الترقيم الدولي:ISSN 2543-3857

# مقاليد

## للدراسات اللّسانية والنقدية والأدبية

مجلة دولية محكّمة، تصدر عن معهد الآداب واللّغات المركز الجامعي آفلو

عدد خاص

الملتقى الوطني الأوّل:

أدب محمد البشير الإبراهيمي

الرّؤيا والتشكيل

يومي: 09-10 مارس 2020

بالمركز الجامعي بأفلو

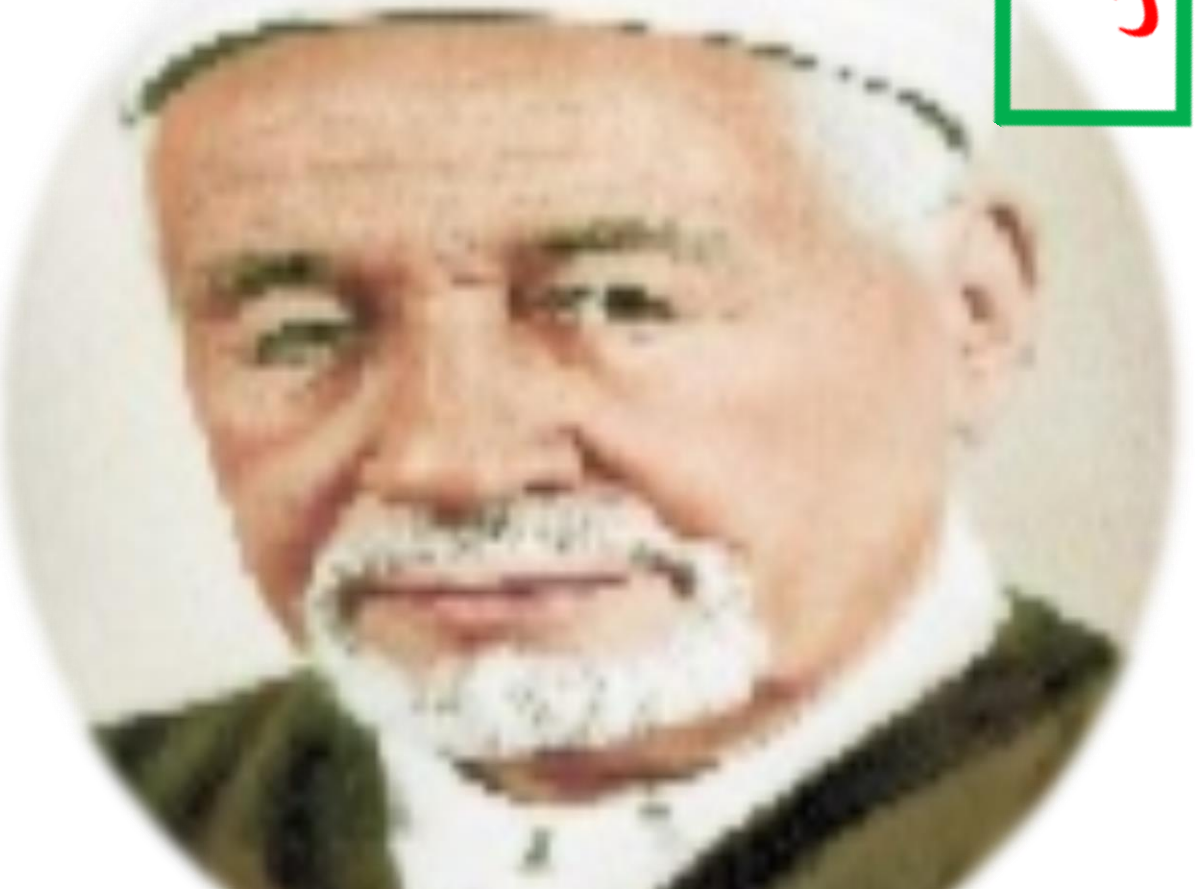

# مجلة مقامات

# MAQAMAT

## مجلّة دوريّة دوليّة علميّة محكّمة

تصدر عن معهد الآداب واللغات

بالمركز الجامعي بآفلو

الترقيم الدّولي : ISSN2543-3857

المدير الشرفي للمجلة : الدكتور عبد الكريم طهاري - مدير المركز الجامعي -

مدير المجلة: أ. الدكتور الوكال زرارقة

رئيس التحرير: الدكتور بن الدين بخولة

تنسيق وترتيب:

د. سيد أحمد محمّد عبد الله

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المركز الجامعي أفلو
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية

الملتقى الوطني الأول

# أدب محمد البشير الإبراهيمي
## ـ الرُّؤيا والتَّشكيل

**يومي . 10/ 03 / 2020 م.**

الجمهوريَّة الجزائريَّة الدِّيمقراطيَّة الشَّعبيَّة
وزارة التَّعليـــــم العـالي والبحـــث العلـــمي
المركـــز الجـــامعيّ - آفلو
معهـــــد الآداب واللغـــات
قسم اللغة العربيَّة وآدابها

**ينظِّم معهد الآداب واللغات ملتقى وطنيّاً بعنوان :**

# أدب محمد البشير الإبراهيمي
# ـ الرُّؤيا والتَّشكيل ـ

**بتاريخ : 09 . 10/ 03 / 2020 م .**

**الرَّئيس الشَّرفي للملتقى الوطني :**

**د . طهَّاري عبد الكريم** ( مدير المركز الجامعي بآفلو ) .

**رئيس الملتقى الوطني :**

**أ.د . زرارقة الوكَّال** ( مدير معهد الآداب واللغات ) .

**اللجنة العلميَّة للملتقى :**

**رئيس اللجنة العلميَّة :**

**د . بوجمل حمزة .**

**أعضاء اللجنة العلميَّة :**

. الدكتور بن دبلة جلول
. الدكتورة بلعالم فضيلة.
. الدكتور لخذاري أمحمد
. الدكتور جقال جيلالي
. الدكتور بناني ناصر
. الدكتور شاذلي عمر.
رئيس لجنة التَّنظيم : الأستاذ علاق يحي
أعضاء لجنة التَّنظيم :
. الأستادة الفاسي فاطمة.
. الأستاذ: الرندي محمد.
. الأستاذ: مصطفى بن مبارك

**الدّيباجة والإشكاليَّة :**

يعد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رجلا عظيما ، وعالما جليلا ، ومجاهدا كبيرا ، وكنزا جهاديا ، وفكريا وأدبيا ثمينا ، خلَّف آثارا فكرية وأدبية تلخص معالم جهاده ونضاله في سبيل النهضة بأمته وتخليصها من تخلفها وتأخرها ، وتحريرها من محتلها الدّاخلي قبل تحريرها من محتلها الخارجي ، فقد عايش واقع أمته الضرير ، ومأساتها الأليمة ، وأحداثها المريرة ، وما صنعه أعداؤها بها من تنكيل وتمزيق وإذلال ، وتجهيل وتفقير فغدت مشتتة ذليلة مهانة يتداعى عليها الأعداء كما تتداعى الوحوش على فريستها ، وسلبها أعداؤها كل أسباب النهضة حتى تبقى أسيرة تخلفها وتأخرها. إلاّ أنّ رحم هذه الأمة لم يعقم من إنجاب رجال لم يستسلموا للواقع الذي فرضه الأعداء عليهم ، فراحوا يبحثون عن سبل الخلاص من القيود والأغلال التي سلطت على أمتهم ،وتسخير كل الوسائل المادية والمعنوية في سبيل إخراجها من محنتها ومأساتها.وقد جسَّد المفكر والأديب المصلح البشير الإبراهيمي جهاده ونضاله منذ شبابه في كتاباته الأدبية التي كان نشرها في مجلات وجرائد الحركة الإصلاحية في الجزائر والتي اتخذت أشكالا أدبية متنوعة من مقالة وخطبة ورسالة وقصة احتوت على موضوعات مكثفة تحدث فيها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عن

القضايا الجوهرية من تربية وتعليم ودين ولغة وقومية وسياسية مشخصا ومحددا الأسباب والعلل ومقترحا العلاج والدواء. ولم يختلف الدارسون والنقاد في جودة هذه الأعمال الأدبية والفكرية،وفصاحتها وقوة أسلوبها وبيانها ، متحديا في ذلك الترسانة الثقافية التغريبية للمحتل الفرنسي الذي أراد تحويل الشعب عن تاريخه وهويته وجغرافيته ووحدته.

**محاور الملتقى :**

01 - **المحمول الثقافي في كتابات محمد البشير الإبراهيمي .**

02-**البعد الإنساني في كتابات محمد البشير الإبراهيمي**

**03 . الخصائص الفنية في كتابات الإبراهيمي.**

04 . **القضايا الوطنية و القومية و العالمية في أدب الابراهيمي**

الـجـمهورية الـجزائريـــة الديمقراطيـــة الـشـعبيـة

*Républiaue Algérienne Démocratique et Populaire*

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المركز الجامعي – افلو -

معهد الآداب واللغات

*Ministère de l'enseignement supérieur*
*Et De La Recherche scientifique*

*Centre universitaire d'Aflou*
*institut des lettres et des langues*

# برنامج الملتقى الوطني الثاني الموسوم بـ " أدب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي . الرؤيا والتشكيل

## اليوم الأول : 09 / 03 / 2020م

## الجلسة الأولى

## رئيس الجلسة : الدكتور بن دبلة جلول

| الأستاذ المتدخل | الجامعة | عنوان المداخلة |
|---|---|---|
| أ.د بوداود وذناني | جامعة الأغواط | حضور الإنسان في فكر الشيخ البشير الإبراهيمي |
| الدكتور الحاج جغدم | جامعة الشلف | صورة المقاومة في كتابات الشيخ البشير الإبراهيمي |
| الدكتور غانم حنجار | جامعة تيارت | أدبية الإبراهيمي من براعة الحفظ إلى ملكة البيان |
| الدكتور باجي بن عودة | المركز الجامعي . البيض | استراتيجية الحجاج عند الشيخ البشير الإبراهيمي |
| أ.د نورالدين دريم | جامعة الشلف | البعد الحجاجي وبنيته الإيقاعية في خطاب البشير الإبراهيمي |
| الدكتور دبيح محمد | جامعة تيارت | مقتضيات الإنسانية في الآثار الأدبية للشيخ البشير الإبراهيمي |

## الجلسة الثانية

## رئيس الجلسة : الدكتور طرش لخضر

| الأستاذ المتدخل | الجامعة | عنوان المداخلة |
|---|---|---|
| الدكتور العيد علاوي | المركز الجامعي البيض | الشيخ الإبراهيمي وضوابط البحث العلمي قراءة في "رسالة الضب" |
| الدكتور أحمد سعودي | جامعة الأغواط | هاجس الوحدة العربية ومقتضياتها في أدب الشيخ البشير الإبراهيمي |
| الدكتورة حليمة صوفي | مركز البحث ع ح بالأغواط | الأبعاد الإبداعية في أدب المقال عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي |
| الدكتورة فضيلة بلعالم | المركز الجامعي بأفلو | البنى التقابلية في وصية الشيخ البشير الإبراهيمي (ياشباب الجزائر) |
| الدكتور أمين خروبي | المركز الجامعي بأفلو | أسس التعاون الاجتماعي ولوازمه في فكر محمد البشير الإبراهيمي |
| أ . د الوكال زرارقة | المركز الجامعي بأفلو | المنهج التغييري في أدب محمد البشير الإبراهيمي |

## اليوم الثاني : 10 / 03 / 2020م

## الجلسة الأولى

## رئيس الجلسة : الدكتور أحمد لخذاري

| الأستاذ المتدخل | الجامعة | عنوان المداخلة |
|---|---|---|
| الدكتور كمال مايدي | المركز الجامعي بأفلو | الدور الدبلوماسي للبشير الإبراهيمي اتجاه القضية الجزائرية |
| الدكتور بشير عروس | جامعة ميلة | شعرية التداخل في (رواية الثلاثة) لمحمد البشير الإبراهيمي |
| الدكتورة صفية بن زينة | جامعة الشلف | آفاق البعد اللغوي وآليات تجسيده عند العلامة محمد البشير الإبراهيمي |
| أ.د بوفاتح عبد العليم | جامعة الأغواط | كتابات البشير الإبراهيمي . خصائصها وآثارها |
| الدكتور طارق بوحالة | جامعة ميلة | الأنساق الثقافية في كتابات الشيخ البشير الإبراهيمي |
| أ .د تاج محمد | جامعة تيارت | الكتاية عند الإبراهيمي من المحلية إلى العالمية |
| طالبة الدكتوراه غويرق فاطنة | جامعة الأغواط | البعد الوطني والقومي في خطاب الشيخ البشير الإبراهيمي |
| طالبة الدكتوراة حاكمي نورة | جامعة الأغواط | الجهود التربوية والتعليمية ومرجعياتها عند البشير الإبراهيمي |

## الجلسة الثانية

## رئيس الجلسة : الدكتور عمر شاذلي

| الأستاذ المتدخل | الجامعة | عنوان المداخلة |
|---|---|---|
| طالبة دكتوراه قزيم نورة | جامعة الأغواط | البعد الإنساني في كتابات البشير الإبراهيمي |
| طالب الدكتوراه جلول قطاف | جامعة وهران | التناص وتجلياته في مقال الإبراهيمي |
| طالبة الدكتوراه بروبي غنية | جامعة الأغواط | البشير الإبراهيمي معلم وطني وأثر قومي |
| طالب الدكتوراه علي زرارقة | جامعة تيارت | القضايا القومية في أدبيات محمد البشير الإبراهيمي . فلسطين أنموذجا |
| طالب الدكتوراه سبقاقي بومدين | جامعة الأغواط | تجليات النزعة الإنسانية في أدب الإبراهيمي |
| طالبة الدكتوراه ميهوبي خديجة | جامعة الأغواط | الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر من خلال كتابات البشير الإبراهيمي |

**رئيس الملتقى:** **رئيس المجلس العلمي:**

# حضور الإنسان في فكر الشيخ البشير الإبراهيمي

( صدق في العقيدة ، ووعي بالإنسانية )

أ . د . وذناني بوداود
جامعة عمار ثليجي الأغواط

**الملخص:**

**لا يوجد ملخص باللغتين**

**مقدمة :**

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رجل رزق صوابا في الرأي ، فنتج عنه سداد في التفكير . ولذلك فهو يتميز في كل ما كتبه بثقافة واسعة ، ووعي بحقيقة الإنسان في هذا الوجود . إلى جانب إدراكه لما يحدث في عصره من أحداث سياسية ، وتحولات اجتماعية . مما جعل الإنسان بكلّ مشاكله ، وصراعاته الدائمة ، حاضرا بقوة في كتاباته . و أن الإنسان في نظره ، لا تكمن قيمته في إنسانيته التي خلقه الله عليها ، بل بعلاقته بأخيه الإنسان . كما لا يقاس بشرفه ، ولا بقوته ، ولا بثرائه ، ولا بلونه ، وإنما يقاس بنفعه للإنسانية وحبه لها . ومن خلال الطرح السابق نحاول في مداخلتنا هذه المتواضعة ، أن نرصد الكيفية التي عالج من خلالها فكرة الإنسان والإنسانية في كتاباته . والمنطلقات التي جعلت قضية الإنسان تترسخ لديه وتسيطر على اهتماماته . وأصارحكم القول ، بأن البحث في فكر الشيخ الإبراهيمي ، يحتاج إلى فسحة من الوقت ، نظرا لعمق فكره ، وغزارة طرحه للقضايا ، وتشعب وتنوع وجهات نظره . ونحن في هذه العجالة نحاول أن نلملم ما استطعنا أن نقف عليه من وجهة نظره للإنسان والإنسانية ، والزاوية التي تناول من خلالها القضية . لأن الوقت لم يكن كافيا للإطلاع على كل ما كتبه . ولكن رغم ذلك استطعنا أن نصل إلى بعض الحقائق التي تكشف لنا عن رؤية الإبراهيمي للإنسان في هذه الحياة .

**إشكالية الإنسان في الفكر الإنساني :**

لقد كان الإنسان، وما زال ، ذلك اللغز الذي حير العلماء ، والفلاسفة، ورجال الإصلاح ، في طبيعته وتصرفاته ، في عاطفته و عنفه وفي كل ما يصدر عنه .فالإنسان ومنذ نشأته الأولى أحدث حيرة فيما حوله فالملائكة اتهموه بالفساد وسفك الدماء ، والشيطان رفض السجود له لأنه من سلالة من طين . ( فالإنسان مخلوق فذ فريد هو نسيج وحده في هذا العالم .)1 وهو المخلوق ( الوحيد الذي جهزه الله بالعقل والتفكير والقدرة على إدارة الأمور .)2 فالله عندما استخلف الإنسان في هذا الكون أعطاه العقل والفهم والتفكير. ومن هنا بقي الإنسان لغزا محيرا في هذا الوجود. يقول ألكسيس كاريل صاحب كتاب الإنسان ذلك المجهول ( فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ما زال غير كاف وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب )3 وهذه الرؤية الفلسفية النابعة من تصور عقل الإنسان ، هي التي جعلته في الأخير يقول :( فعلينا أن ندرك بوضوح أن علم الإنسان هو أصعب العلوم جميعا )4 وهكذا تصل الفلسفة إلى الطريق المسدود في فهمها للإنسان في هذا الكون . ( والإنسان بألغازه وأسراره يظل رمزا يجب فكه ، لأن من أدرك مفهوم الإنسان وحقيقته أدرك النوع البشري منذ بدايته الأولى ، ومن أحاط بالإنسان عرف سلالة العالم .)5

ومن هنا يطرح السؤال التالي نفسه . كيف كانت نظرة الشيخ الإبراهيمي للإنسان ، وهو العالم المتشبع بالعقيدة الإسلامية والثقافة العربية ؟

**حضور الإنسان في فكر الإبراهيمي :**

كل من يقرأ آثار الشيخ البشير الإبراهيمي ، يجد نفسه أمام عالم ، متمكّن متعدد المواهب ، مصلح ومفكر إنساني واع بدوره في هذا الوجود ، ومدرك لحقيقة الوجود الإنساني ، في هذا الكون . وبذلك يكتشف شخصية ذلك العالم الكبير المتعدد الاختصاصات : الفقيه - اللغوي -المحدث - المؤرخ -الخطيب - المصلح - الواعظ - الداعية - السياسي - الفيلسوف – الرجل الإنساني ....إلخ فهو من طراز يقل وجوده في الأمم . عالم يستمد فكره من عقيدته الإسلامية ويسير في حياته على ضوئها .يقول :( أنا رجل ممن هيأتهم الأقدار لخدمة هذه

الأمة في نواح دقيقة شريفة لا يقبل فيها الزيف ، ولا يتسمح فيها مع الباطل ، من هذه النواحي ما هو أمانة تؤدى لا تصرف ، وما علينا إلا أن نقول ونبلغ ، وما على الأمة إلا أن تسمع وتطيع ، وهذا هو الدين في سلطانه الأعلى ، ومنها ما يقتضي المسايرة والمجاراة لاستعداد الأمة ، وهذا هو الجانب الاجتماعي ، ومنه التعليم )6 بهذا الموقف تميز الإبراهيمي بنظرته العقلية للواقع الإنساني فهو مثقف واعي حر الفكر تشغله هموم الإنسان في هذا الوجود ، قد خبر ذلك من خلال معايشته لحقيقة الإنسان في هذه الحياة .

إن الذي يطلع على كتابات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، يتضح له جليا ، ذلك البعد الإنساني الذي يتجلى من خلالها . فهو ركن من أركان العلم والمعرفة وقمة شامخة في الوطنية والأخلاق الرفيعة في الأمة الجزائرية والإسلامية . يقول التركي عمار في وصف الإبراهيمي ( فقد كان رجلا متنورا متفتح الذهن والفكر لمتطلبات عصره ، يعيش همومه ، وينفعل بأحداثه وتطوراته .)7 وتلك حقيقة لا غبار عليها لأن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يمتلك شخصية قوية واعية بدورها الإنساني شديدة الاعتزاز بقيم عقيدتها الإسلامية . وذلك أهّله لأن يكون أحد أقطاب جمعية العلماء المسلمين التي أثرت في الأمة الجزائرية أيّما تأثير. وفي ذلك يقول أبو القاسم سعد الله في كتابه أفكار جامحة (لا توجد منظمة وطنية تركت بصماتها على الحياة الجزائرية وأثرت على عقلية أهلها تأثيرا واضحا مثلما فعلت جمعة العلماء .)8 جمعية العلماء التي لم يكن دورها محصورا في الأمة الجزائرية بل تعدى ذلك إلى العالم العربي والإسلامي . فـ( لم تكن جمعية العلماء هيأة محلية لا تهتم إلا بشؤون الجزائر. إن قضايا العالم العربي والإسلامي التي نجدها في صحف الجمعية وفي نشاطها تشكل أكثر من الثلث تقريبا . ويبدو أن قادتها كانوا يعلمون علم اليقين أنه لا نجاح للجزائر بدون نجاح العالم العربي الإسلامي . والتاريخ في ذلك إلى جانبهم .)9 ونظرا لعلاقتها المتينة بالعالم العربي الإسلامي ، فقد وثقت صلتها بالعلماء في تلك الأقطار.( فعلماء تونس ومصر والهند ( الباكستان) والشام كانوا على صلة برجال جمعية العلماء وكانوا يحسون أنهم يعملون لغاية واحدة وإن اختلفت المواقع والوسائل .)10

**الدوافع التي أدت إلى تجلي البعد الإنساني في فكر الشيخ الإبراهيمي .**

1 – **عقيدته الإسلامية** : الإبراهيمي ينتمي إلى عقيدة ربانية أعلت من قيمة الإنسان في هذا الوجود . فالإسلام اهتم بالإنسان كثيرا ، وبذلك نجد مكانة كبيرة له في القرآن الكريم . ويقول الإبراهيمي في الدين الإسلامي ( السر أنه دين فطري روحي ، يحمل في طياته نهاية الكمال الإنساني وأن أصوله بنيت على حكمة من خالق الحكمة )11

2 – **انتماؤه إلى حركة إصلاحية** : الإبراهيمي هو أحد ركائز الحركة الإصلاحية ، والتي كان هدفها الأساسي إصلاح الإنسان من كل النواحي عقديا ، وفكريا ، وأخلاقيا وإنسانيا . ( ونحن قوم خلقنا لهذا، وأخذ علينا عهد الله أن نقف فيه المواقف الصادقة ، وأن لا نزال به حتى نثبت حقه الأصيل وننفي باطله الدخيل ، وأن لا تغلب ضعفنا فيه قوة الشيطان .)12. وإلى جانب هذا القول الصريح يؤكد قائلا : ( عاهدنا الله أن نطهر دينه ، من الداخل ومن الخارج ، وأن ننصره على أنفسنا حتى يكون له عليها سلطان . قبل أن ننصره على الأجنبي حتى لا يكون له عليه سلطان .)13

3 – **ثقافته العربية الإسلامية** : الإبراهيمي ينتمي إلى ثقافة تمجد العلاقات الإنسانية . فالموروث العربي القديم فيه من المواقف الإنسانية المشرفة ، إلى جانب ما أضفى عليه الإسلام من مسحة ربانية أعلت من مكانة الإنسان في هذا الوجود . وكلنا يعرف مواقف الشاعر الجاهلي ( عروة بن الورد ) الإنسانية عندما قال : فلا أترك الإخوان ما عشت للردى كما أنه لا يترك الماء شاربه

ولا يستضام الدهر جاري ولا أرى كمن بات تسري للصديق عقاربه14

4 – **شخصيته** والتي هي في منبتها شخصية إنسانية دينية إصلاحية تعمل على ربط الإنسان بأخيه الإنسان . فقد كان همّه إصلاح الإنسان عقائديا وعلميا وأخلاقيا . أما نظرته للإنسان فمتولدة عن وعي بحقيقة الإنسان في هذا الوجود من جهة . ومن جهة أخرى بوعيه بالدور الذي يجب أن يؤديه الإنسان في هذا الكون والكيفية التي يؤدي بها ذلك الدور . و أدرك من خلال مسيرة حياته بأن الإنسان إذا تحلّ بالفهم الصحيح للدّين الإسلامي ، فإنه يستطيع أن يتجاوز تناقضات الحياة .

5 - **وقائع عصره** : لقد عاصر الإبراهيمي أحداثا صعبة عرفها عصره من حروب وويلات الاستعمار. كما أنه عاصر زمنا كثرت فيه المآسي والأحزان، وأصاب الإنسانية ما أصابها من ويلات بسبب سيطرة الأنانية والحروب الوحشية على العالم ، فغابت عنه القيم الإنسانية .( فالحياة الإنسانية مشروطة دائما ببعض المعاني والقيم ، والحيوان وحده يقبل حياته بلا شروط ويعيش بلا معنى .إنه يظل في مستوى الأشياء والظواهر لا يتخطاها أو يعلو عليها.)15 كل ذلك كان أثره في نظرته للإنسان .

**المرجعية التي أسس عليها الإبراهيمي نظرته للإنسان** :

لا يختلف اثنان في أن مرجعية الشيخ الإبراهيمي هي المرجعية الإسلامية . فهو في تناوله للإنسان لم يهتم كثيرا بتلك النظريات الفلسفية التي تناولت الإنسان وحاولت البحث في حقيقته ومعرفة سر وجوده في هذا الكون . وإنما استلهم أفكاره ووجهة نظره من العقيدة الإسلامية ، وعلى ضوئها تناول الإنسان ، فالشريعة الإسلامية أوضحت بأن الإنسان مخلوق مكرم ومفضل على كثير من المخلوقات. وهو ما نجده مبينا في القرآن الكريم والسنة المطهرة وفكر علماء وفلاسفة المسلمين . فقد استمد وجهة نظره من خلال ثلاثة مصادر وهي .

1 – **القرآن الكريم** : الدين الإسلامي دين شامل كامل لم يترك شيئا يتعلق بالإنسان في هذا الوجود إلا وبينه ووضحه . فقد كانت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، نبوة مبشرة هادية مبلغة ، ورحمة للعالمين . تبين للإنسان الطريق المستقيم ، وتربط علاقته بأخيه الإنسان في هذا الوجود ، ومن يقرأ ما جاء في القرآن الكريم يلاحظ ذلك الاهتمام الكبير بالإنسان دون غيره من المخلوقات ، فهو حاضر باستمرار في كل سوره وآياته ، فقد تحدث القرآن عن كل ما يتعلق بالإنسان من نشأته الأولى وإلى خروجه من هذه الحياة الدنيا . يقول الله سبحانه وتعالى : ( ولقد كرمنا بني آدم . وحملناهم في البر والبحر .ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ) الإسراء/70

ويقول : ( وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس ) البقرة /34

ويقول : ( وإذ قال ربّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ) البقرة/30

( فالإنسان في القرآن الكريم خليفة الله في أرضه . وقد تكررت قصة خلافته في كثير من السور متضمنة : إن الله جعله سيدا يطاع ويكرم ، ومتضمنة : أن من يتجرأ على إهانته ، ويتمرد على مكانته ليس بأهل لرحمة الله وبره .)16 و لكي يقوم الإنسان بهذا الاستخلاف عليه أن يطهر ذاته من شرورها ، فيحرر نفسه من الشرور ( كالتسلط ، والتعصب ، والكبر ، والأنانية ، ومخالفة أوامر الله ....) فقد دلت الآيات السابقة وغيرها كثير في القرآن على تلك المكانة الرفيعة التي حبا بها الله الإنسان ، فهو خليفته في أرضه . قال الله تعالى :( هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها )سورة هود/61 . كما بيّن القرآن الكريم المكانة الرفيعة للإنسان عند خالقه وتفضيله على سائر المخلوقات ، و ذلك من أجل أن يقوم بوظيفته في هذا الوجود . فالقرآن ( عرّف الإنسان على ذاته وتبصيره بأصله وخصائصه ، ومدى أهمّيته وخطورته في هذا الكون الذي يعيش فيه )17 ومن هنا لا يمكن أن يكون قد غاب عن ذهن الشيخ الإبراهيمي ما أشار إليه القرآن فيما يخص حقيقة الإنسان في هذا الوجود . ونظرا لأن القرآن قد تعرض لأصل الإنسان وبين ذلك تفصيلا ، فإن الشيخ لم يتعرض لذلك ، وإنما خاض في سلوكه وتصرفاته وعلاقته بغيره ، والتقلبات التي تحدث في سلوكه . فقد يتحول إلى إنسان شرير، يتعالى عن أخيه الإنسان، بشرفه أو ماله ،أو سلطته أو قوته . ولذلك فهو يرى بأن هناك اختلاف في النوع الإنساني ، فهناك الخيّر، وهناك الشرّير. ومن طبع الإنسان الخيّر فعل الخير ، ومن طبع الإنسان الشرّير فعل الشر. وإذا ساد الإنسان الخير، ساد الخير في الكون . وإذا ساد الإنسان الشرير ، ساد الشر فيه ، وعمّ الوجود ، وضاعت القيم والأخلاق والأخوة الإنسانية ، وبذلك يكون هلاك الإنسانية . فمن خلال المفاهيم الربانية التي وردت في القرآن الكريم ، تلمس الشيخ البشير الإبراهيمي الطريق الصحيح ، لفهم الإنسان في هذا الوجود .

2 – **السنة النبوية المطهرة** : لقد بعث الله سبحانه وتعالى محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين : فسعدت الإنسانية بنبوته ، واستعاد الإنسان إنسانيته . بعد كانت قد ضاعت منه ، بسبب طغيان وتجبر المتسلطين ، من حزب الشيطان .وقد بين النبي دور حسن الخلق في ربط العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان . فقد جاء في حديث الرسول

صلى الله عليه وسلم قوله ( إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم ) .كما حث على التواضع حين قال ( تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ) وقال : ( الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله .) وقال : ( لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه ) وقال ( والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه )18 وقال : ( من لا يرحم الناس لا يرحمه الله )19 .

3 – **الموروث الفكري العربي الإسلامي** : لقد كان لعلماء الإسلام دور كبير في خدمة الإنسان والإنسانية وتنوير عقل الإنسان بالمفاهيم النيرة ، ودلّه على الطريق الصحيح ، في هذا الوجود . فقد تعرض البعض منهم إلى حقيقة الإنسان في هذا الكون ، بمنهج علمي دقيق . كإخوان الصفا ، أبو حيان التوحيدي ، والجاحظ ، والمعري ، وابن سيناء ، والكندي وابن رشد وغيرهم . فالدين الإسلامي ( هو دين تحرير الإنسان ودين العزة والقوة فهو دين يقارع الاستعمار بمبادئ الاتحاد والاستعداد والجهاد .)20 أي الإنسانية الحقيقية التي لا تضيع فيها حرية وحق الإنسان في الحياة . ولا يمكن أن يغيب مثل هذا الفكر النيّر عن رجل مثل الشيخ الإبراهيمي الذي تشبع بالموروث الفكري العربي .

**تجلي البعد الإنساني في فكر الإبراهيمي** :

إن الذي يقرأ ما بين السطور يجد أن الذي كان يشغل فكر الإبراهيمي هو الإنسان في تقلباته وتغيراته وعلاقته بأخيه الإنسان ، ففي كل ما كتب إلا ونجد الإنسان حاضرا بطريقة أو بأخرى . وهو يثير قضية الإنسان في وقت اشتدت فيه وطأة المستعمر الغربي على الشعوب الضعيفة في زمن ضاع فيه العدل ، وحاول من خلال طرحه ذلك فهم الطبيعة البشرية ، وهو يخوض صراعا مريرا مع المستعمر الفرنسي في زمن اختلت فيه العلاقة بين الإنسان والإنسان وضاعت فيه القيم الإنسانية التي تجمع بينهما وتسعد حياتهما . وقصده من ذلك فهم الإنسان الذي كرمه الله وفضله على الكثير من خلقه . فقد استلهم الشيخ الإبراهيمي الثقافة الإسلامية المستنيرة بالحكمة السماوية فأكسبته نظرة فلسفية خاصة به ، وعلى ضوئها بنى نظرته للإنسان والمجتمع والحياة . وبما أن شخصية الإبراهيمي كانت متعدد المشارب الفكرية وواعية بحقيقة الوجود الإنساني ، فإنها قد أدركت حقيقة الإنسان في

هذا الكون . فالإنسان في نظره صاحب رسالة في هذه الحياة يجب أن يؤديها على حقيقتها .وأن سعادة الإنسانية لا تتحقق إلا إذا تحققت الأخوة الإنسانية ، وأن الإنسان لا تتحقق إنسانيته في هذه الحياة إلاّ إذا كان أخا لأخيه الإنسان.

والملاحظ أن فالكرة المركزية التي تتمحور حولها نظرته للإنسان هي جملة ( الإنسان أخو الإنسان ) فقد نشر في جريدة الشهاب الجزء الثامن المجلد الخامس بتاريخ سبتمبر 1929. مقالا بعنوان (الإنسان أخو الإنسان ) ومقالا ثانيا بعنوان ( الإنسانية آلامها ، واستغاثتها) نشر في جريدة الشهاب الجزء الأول المجلد السادس بتاريخ فيفري 1930 . ففي مقاله الأول انطلق من فكرة مركزية هي جملة ( الإنسان أخو الإنسان ) فالإنسانية في نظره لا تستقيم إلا إذا حققت هذه الجملة . يقول موضحا ذلك: ( مؤدى هذه الجملة الصريح عقد الأخوة بين أفراد البشر بموجب الإنسانية التي هي حقيقة سارية في كل فرد . ومقتضى هذه الأخوة أن يشارك الإنسان، الإنسان في جميع لوازم الحياة سرورا وحزنا لذة وألما مشاركة معقولة تنتهي إلى حدود لا تتعداها بحيث يعلّم العالم الجاهل ويرشد النبيه الغافل ويواسي الغني الفقير ويقع التعاون المتبادل بين الناس في كل جليل وحقير.)21 و يتضح لنا من خلال هذا القول أن نظرة الشيخ الإبراهيمي ، هي نظرة خالية من كل نزعة عنصرية . نظرة مشبعة بحب الإنسانية ومعادية لكل فكر معادي للأخوة الإنسانية. وحتى تتضح وجهة نظره للآخر ، فقد ركز على جملة من الحقائق والتي من خلالها يمكن أن تترسخ الأخوة الإنسانية . فهو يرى بأنه ( من مقتضى هذه الأخوة : المساواة في الحقوق البشرية العامة تلك المسألة التي طالما بذل فلاسفة الأمم قواهم لتقريرها وتمكين دعائمها في الكون وعملت الشرائع على تنميتها وتغذيتها بالمبادئ الصحيحة حرصا على راحة البشر وهناء الإنسانية . ومن مقتضى هذه الأخوة ، إلغاء سنة التمايز والاستئثار التي سنها المستبدون في القرون الخالية وكانت سلاحا مهولا في وجه الحق . )22 ولكي تتخلص الإنسانية من هذا البلاء عليها أن :

1- محاربة نزعة الاستئثار والامتياز لأنها شر أفسد البشرية .

محاربة الإباحية الخاطئة الفاسدة التي أصبحت تهدد الإنسانية في وجودها . 2 -

ولا يقف الشيخ البشير الإبراهيمي في تناوله للأخوة الإنسانية عند فكرة المساواة بل يحاول لفت النظر إلى جوانب أخرى ذات أهمية بالنسبة للإنسان الباحث عن حقيقة الأخوة الإنسانية . ففي مقاله الثاني والذي نشر في جريدة الشهاب الجزء الأول المجلد السادس بتاريخ فيفري 1930 . والذي كان بعنوان (الإنسانية آلامها ، واستغاثتها ) فقد حاول فيه لفت الانتباه إلى حقيقة الإنسان بعد أن تبلورت في ذهنه كحقيقة ثابتة . وأدرك أن الإنسانية تعاني من تصرفات أبنائها نظرا لما حدث بينهم من صراع وتطاحن على حطام الدنيا خاصة في ( الحربين العالميتين الأولى والثانية) فبعد أن فقد الإنسان إنسانيته ، وتحول إلى وحش ضاري لا يميز بين الخير والشر. لذلك فهو يتعجب من المصير الذي وصلت إليه الإنسانية ( عجيب لهذه الإنسانية ما كفاها من مصائب الدهر تقاطع أبنائها وتدابرهم ، ونصب الحبائل وبث المكائد لبعضهم البعض )23 لأن الإنسانية في نظره ليست على هذه الشاكلة ، فهي الأمّ الحنون على كل أبنائها ، إلا أن الأبناء قد خرجوا عن طاعتها وتمردوا عن أمرها .فحدث ما حدث وأصبح الأخ يقتل أخاه ظلما وبدون حق .( الإنسانية تلك الأم الرؤم التي لا تحابي واحدا من أبنائها دون آخر ولا تميز بين بار منهم وفاجر ، ولا تفرق بين مؤمن منهم وكافر ، تلك الأم المعذبة بالويلات والمحن ، من ويلات الحروب التي أتلفت الملايين إلى ويلات الأمراض والطواعين إلى ويلات الزلازل والبراكين .)24 هكذا يتمثل الشيخ الإبراهيمي الإنسانية وهكذا يشرح أمراضها وأهوالها ومصائبها ، وكل المحن التي تعذبها وتنخر كيانها. فهو ينظر للإنسان من خلال نظرة كونية إن صح هذا التعبير متجاوزا من خلالها تلك النظرة المادية الضيقة المحدودة . بعد أن أدرك بأن الإنسان في هذا الكون ليس واحدا بل هنا نوعان من الإنسان . الإنسان الصالح الخيّر الذي ينفع الإنسانية ، والإنسان الفاسد الشرير الشيطاني الذي يضر الإنسانية . وأن الإنسان الصالح في نظره هو الذي يتميز بروح إنسانية عالية ، ومدركا لحقيقة وجوده ومتميزا عن غيره من المخلوقات بأخلاقه الفاضلة . وأما الإنسان الشرير، فهو أخو الشيطاني ، عدو للإنسانية ، يعمل على تخريب كيانها وتحطيم صرحها .

**البعد الاجتماعي للإنسان في نظره :**

يرى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأن وجود الإنسان في هذا الكون مرهون بالجماعة ، فالإنسان بأخيه الإنسان . لأن( البعد الاجتماعي للفرد حقيقة ثابتة فيه ، بل هو جزء من حقيقته وعنصر ثابت في معنى وجوده . فالإنسان لا يحقق إنسانيته إلا بانتمائه إلى المجتمع وارتباطه بالمجتمع . فلا إنسان بلا مجتمع ولا مجتمع بلا إنسان . إنه كائن اجتماعي بقدر ما هو كائن فردي .)25 واجتماعية الإنسان حقيقة مؤكدة ، لأن الإنسان ومنذ أن ظهر في هذا الكون كان ملازما لأخيه الإنسان . وأن الشرائع السماوية عملت على تقوية الرابطة الأخوية بين الإنسان وأخيه الإنسان . ومن الشرائع التي أكدت على الأخوة الإنسانية الإسلام . يقول البشير الإبراهيمي في ذلك ( فالإسلام دين واجتماع . وإذا كانت دائرة الأول محدودة فإن دائرة الثاني واسعة الأطراف وأن الإصلاح الديني لا يتمّ إلا بالإصلاح الاجتماعي .ولهذا الارتباط بين القسمين فإن جمعية العلماء . وهي الجمعية الرشيدة العالمة بحقائق الإسلام عملت منذ تكوينها في الإصلاحيين المتلازمين وهي تعلم أن المسلم لا يكون مسلما حقيقيا مستقيما في دينه على الطريقة حتى تستقيم اجتماعياته فيحسن إدراكه للأشياء وفهمه لمعنى الحياة وتقديره لوظيفته فيها وعلمه بحظه منها وينضج عقله وتفكيره ويلم بزمانه وأهل زمانه ويتقاضى من أفراد المجموعة البشرية ما يتقاضونه منه من حقوق وواجبات ويرى لنفسه من العزة والقوة ما يرونه لأنفسهم وتربط بينه وبينهم رابطة الأخوة والمساواة والمصلحة لا رابطة السيادة عليه والاستئثار دونه)26 فهو في كل ما يطرحه من أفكار لا يخرج عن مرجعيته الإسلامية الثقافية التي تؤطر أفكاره ورؤيته للأشياء . يقول:( إن الأوطان تجمع الأبدان ، وأن اللغات تجمع الألسن . وإنما الذي يجمع الأرواح ويؤلفها ، ويصل بين نكرات القلوب فيعرفها هو الدين . فلا تلتمسوا الوحدة في الأفاق الضيقة ، ولكن التمسوها في الدين والتمسوها في القرآن تجدوا الأفق أوسع ، والدار أجمع ، والعديد أكثر ، والقوى أوفر .)27

**البعد الأخلاقي للإنسان في نظره :**

وجود الإنسان في هذا الكون مرتبط بالأخلاق فهي التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان ، وكلما كانت أخلاق الإنسان فاضلة ، كلما كانت علاقته بغيره جيدة ومتينة .وهذه الحقيقة

يؤكد عليها الإبراهيمي قائلا : ( لو رزق الله إخواننا هؤلاء عقولا تزن الأمور بعواقبها ، وإخلاصا يذيب الحسد ، ويذهب بالأنانية ، لعلموا أن الخير كل الخير في الاجتماع ، وأن القوة كل القوة في الاتحاد ، وأن الخروج على الجماعة أهلك من قبلنا وهم في نهاية القوة ، فكيف لا يهلكنا ونحن في نهاية الضعف ؟ )28 . فالإنسانية الحقيقية في نظره لا تسترشد إلا بالأخلاق الفاضلة ، وأن الأخلاق لا تستقيم إلا بالعقيدة الصحيحة . وهو في تناوله للإنسان يسير وفق ما جاءت به الشريعة الإسلامية التي ترى بأن الإنسان أخو الإنسان. ومن خلال نظرته للإنسان فرق بين الإنسان العالم والإنسان الجاهل ، وبيّن أيهما أكثر نفعا للإنسانية . وأن حياة الإنسان لا تستقيم إلاّ بالعلم ، وأن أخطر شيء على الإنسانية الجهل ، فهو عدوها الأكبر ، وكلّما استفحل الجهل في أمة ، إلا وهلك أفرادها ، وهدّم كيانها ، وأفسد حياة أفرادها .لأن الطبيعة البشرية تتميز من إنسان إلى إنسان بل تتقلب وتتغير في الإنسان الواحد . 29

**أعداء الإنسانية في نظره** : يرى الشيخ الإبراهيمي بأن للإنسانية أعداء يجب أن تتصدى لمحاربتهم بكل قوة وهم :

1- **الاستعمار** : يقول الإبراهيمي :( والاستعمار كله رجس من عمل الشيطان ..ولكن هناك تفاوتا بين استعمار واستعمار، فاستعمار يباشر وسائله بالحقد ، ويشربها معاني من الانتقام ، وآخر يباشر بنوع من التسامح واللين .والاستعمار الفرنسي من النوع الأول ، وبين النوعين فرق ، وإن كان بغيضين ممقوتين ..) ص 30 ويضيف موضحا ذلك ( إن الاحتقار هو الأساس الخلقي الذي وضع عليه الاستعمار قواعده ، وبنى عليه قوانينه ، وإن ملكة الاحتقار هي الغاية في العالم الاستعماري ، ينتهي إليها عالمه ، وحاكمه ، ومشرعه ، ومنفذه ، )31 فالاستعمار شر لأنه يحتقر الإنسان يقول الإبراهيمي مبينا ذلك : (إن الاحتقار هو الأساس الذي بنى عليه الاستعمار تربيته وتعليمه ، وحكمه ، وقد أصبح خلقا ذاتيا في أبنائه وأنصاره وحكامه ، لا يستطيعون الانفكاك عنه لأنه جزء من وجودهم ، ومادة لحياتهم )32

2 - **الجهل** :يرى البشير الإبراهيمي بأن الجهل هو العدو الأكبر للإنسانية ، فالإنسان الجاهل هو عدو لنفسه ولغيره .لذلك حث على التعليم والتعليم يقوم على العقل ، فكلما استعمل

الإنسان عقله كلما كانت نتائج ذلك في صالحه وصالح الإنسانية . قال رسول الله صلى عليه وسلم ( لا فقر أشدّ من الجهل ) وقال :( الناس رجلان :عالم ومتعلّم ولا خير فيما سواهما ) وقال :( ليس منّي إلا عالم أو متعلّم ) . وقال : ( من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له طريقا إلى الجنة ) فالتعليم نعمة من نعم الله كرم بها الإنسان في هذا الوجود . ( فقيمة الإنسان إنما تتحدد بمدى تعلقه بعالم العقل واستيعابه له وتكمله به . فكلما شغف به أخصب وأنجب وزاد تلألؤا وعطاء ، وكلما أهمله أو زهد به جدب ومجل ولم تأت إلا بكل سقط جهيض خديج .)33 وإذا كانت المدرسة هي الحاضنة الأولى لتربية الإنسان المتعلم الصالح . فإن الإبراهيمي قد ركز على دورها في تربية النشء التربية السليمة التي تنتج الفرد الصالح للمجتمع وللإنسانية . فقد كان يحث المعلمين على زرع الأخوة والمحبة في نفوس الصغار منذ نشأتهم . يقول موضحا ومبينا المنهج الصحيح لتعليم الأجيال .( وأن تطبعوهم على التآخي والتعاون على الخير، وأن تربوهم على الفضيلة الإسلامية التي هي مناط الشرف والكرامة والكمال ، وأن تأخذوهم بممارسة الشعائر الدينية صغارا ، حتى نأمن تضييعهم لها كبارا، وأن تزرعوا في نفوسهم حب العلم والمعلم .)34 وهو إذ يقف هذا الموقف الإنساني ، فلأنه ينتمي إلى جمعية كان هدفها الأساسي تعليم وتربية الإنسان الصالح ويؤكد ذلك بقوله : ( وحسبنا هنا أن ننبه إلى أن جمعية العلماء اهتمت بالإنسان ، فجعلته هو الهدف في كل تحركاتها ، خاطبت عقله بالعلم والإصلاح والوطنية ، وخاطبت عاطفته بالدين والخطابة والتاريخ ، وأنشأت لذلك جمهرة من الدعاة والخطباء والمؤرخين والصحفيين والشعراء والمعلمين.)35

3 – **الاحتقار والتعالي والتمايز**: نظرا لأن الإبراهيمي قد خبر حقيقة الإنسان فقد أظهر رفضه المطلق لفكرة الاحتقار و التمايز. فهو يرى بأن احتقار الإنسان لأخيه الإنسان جريمة كبرى لا يقبلها الدين الإسلامي ، ولا العقل ، ولا القيم الإنسانية . ولذلك نجده في أحد مقالاته يذم موقف المتنبي المبطن بالنظرة العنصرية ، ويشيد بموقف المعري الداعي إلى الأخوة الإنسانية .يقول موضحا ذلك (فما كاد المتنبي واضع شريعة التمايز بين السادة والعبيد يجف ثراه ،حتى قيض الله له فيلسوف المعرة ناسخا لتلك الشريعة الجائرة، ومبشرا

بشريعة الأخوة السمحاء )36. فهذا الإعجاب بموقف المعري ينمّ عن موقف إنساني يحب الخير للإنسانية .ويؤيدها بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ( يا أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . وكلكم لآدم وآدم من تراب .إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ) ومن هنا فهو يؤكد على المساواة بين أبناء الإنسان وفي ذلك يقول : ( المساواة عدل تنمو عليه ، الأخوة ، وتنبت منه القوة . والاستقلال تكافؤ في الآدمية، واحترام للإنسانية ، وتبادل للمنفعة والخير ، وتحقيق لسنة الله . )37 . بالمساواة يكون الإنسان ، إنسانا ويعيش حياته الطبيعية . وأما الدعوة إلى العنصرية والقبلية والطائفية ، فهي كلّها من علامات انحطاط الإنسان ( فشخصية الإنسان لا تنحصر – كالحيوان - في حدوده البيولوجية والعضوية ، إنها تمتد بعيدا خارج ذاته ، وتذهب حتى تستوعب الأزل والأبد .)38 . فالإنسان الذي يتكلم عنه الشيخ البشير الإبراهيمي هو الإنسان الصالح النافع ، الذي يعمل على سعادة الإنسانية ، ويضحي من أجلها . وأن تربية الإنسان على الإخاء في نظره تبدأ من الصغر. يقول: ( هذه الحياة العامة تحدثنا بلسان الحال أن غايتها توحيد المجموعة البشرية في مظاهر الحياة وخوافيها في الميول والأهواء في العواطف والمشارب في النزعات والتأثيرات .)39 بهذه المواقف الإنسانية النابعة من قلب رجل يؤمن بإنسانية الإنسان عبّد الشيح محمد البشير الإبراهيمي الطريق لتلامذته نحو بناء مجتمع فاضل يعيش فيه الإنسان في كنف الأخوة المسيجة بنور العلم ، والمضيئة بهدي الرسالة المحمدية .

**الخاتمة:**

وفي الأخير نصل إلى أن الذي كان يشغل تفكير الشيخ البشير الإبراهيمي هو الإنسان في صلاحه وفي أخلاقه وفي تعليمه وفي إنسانيته . وقد جسد ذلك في الكثير من مقالاته وخطبه . وما يمكننا أن نقول في حق هذا الرجل العلامة ما قاله في حق مرزوق المنصف التونسي حين قال : ( إن موت العظماء حياة لأممهم ، فإن كانت في الغربة زادت إجلالا ، فإن كانت نتيجة للظلم زادت جمالا ، فإن كانت في سبيل الوطن كانت جلالا وجمالا ، فإن صحبها سلب العز والملك كانت حلية وكمالا .)40 فهذه العبارات تنطبق على شخصية الشيخ

محمد البشير الإبراهيمي . فهو قد وهب حياته في سبيل الوطن والعلم . ونكمل كلامنا بما قاله في نفسه ، عند ما كان في الغربة ، أيام كان الاستدمار الفرنسي بالجزائر( خطّت الأقدار في صحيفتي أن أفتح عيني عليك وأنت موثقة ، فهل في غيب الأقدار أن أغمض عيني فيك وأنت مطلقة ؟ وكتبت الأقدار علي أن لا أملك من أرضك شبرا ، فهل تكتب لي أن أحوز في ثراك قبرا ؟ .)41 . وصدق محمد العيد آل خليفة حين قال في رثاء الشيخ البشير الإبراهيمي :

فجئت أمّـة العروبة في الهـــا دي لمن ظلّ نهجها المستقيما
يا أخي الحقّ إن قصرت عن القو ل فـما قصّـر الفـــؤاد كليما
عشت فـوق الثرى عظيما فأحرى بك أن تسكن السّماء عظيما 42

رحم الله الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وأسكنه فسيح جناته مع الأنبياء والرسل والصالحين .

**الهوامش**:

1 - محمد عبد الرحمن مرحبا الفكر العربي في مخاضه الكبير ص197 .
2 - محمد سعيد رمضان البوطي منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ط2003 ص42 .
3 - ألكسيس كاريل الإنسان ذلك المجهول تر/ شفيق سعد فريد مكتبة المعارف ط1985/4 بيروت ص 19 .
4 - ألكسيس كاريل الإنسان ذلك المجهول ص 24
5 – زرارقة عطاالله تجليات النزعة الإنسانية في الفكر العربي ص96
6 - آثار الإبراهيمي ج2 ص 224 .
7 - تركي رابح البشير الإبراهيمي في المشرق العربي مجلة الأصالة ع8 جوان 1972 ص261 .
8 - أبو القاسم سعد الله أفكار جامحة المؤسسة الوطنية للكتاب 1988 الجزائر ص 48/47 .
9 - أبو القاسم سعد الله أفكار جامحة المؤسسة الوطنية للكتاب 1988 الجزائر ص 52 .
10 - أبو القاسم سعد الله أفكار جامحة المؤسسة الوطنية للكتاب 1988 الجزائر ص 52 .
11- آثار محمد البشير الإبراهيمي ج1 ص 34.
12 - آثار الإبراهيمي ج2 ص 163

13 – آثار الإبراهيمي ج2 ص164

14 – ديوانا عروة بن الورد والسموأل دار صادر بيروت 1964 ص 19

15 - محمد عبد الرحمن مرحبا الفكر العربي في مخاضه الكبير ص 195

16 – محمد سعيد رمضان البوطي منهج الحضارة الإنسانية في القرآن دار الفكر المعاصر ط 2003 ص41 .

17 - محمد الغزالي نظرات في القرآن شركة الشهاب الجزائر ص 60

18 – صبحي صالح منهل الواردين شرح رياض الصالحين ج1 دار العلم للملايين ط1970/1 ص36/35

19 - صبحي صالح منهل الواردين شرح رياض الصالحين ج1 ص 205

20 - محمد فاضل الجمالي الشيخ الإبراهيمي كما عرفته مجلة الثقافة ع1985/87 ص121.

21 آثار البشير الإبراهيمي الجز الأول ص 18

22 آثار البشير الإبراهيمي الجز الأول ص19/18 .

23 – آثار الإبراهيمي ج1 ص 27 .

24 - آثار الإبراهيمي ج1 ص 27 .

25 - محمد عبد الرحمن مرحبا الفكر العربي في مخاضه الكبير ص 597 .

26- جريدة البصائر ع37 أكتوبر 1936 ص6 .

27 - محمد الطاهر فضلاء من جوامع الكلم لحكيم العلماء وعالم الحكماء الشيخ البشير الإبراهيمي مجلة الثقافة ع1985/87 ص394.

28 - آثار الإبراهيمي ج2 ص304 .

29 - أنظر زرارقة عطاالله تجليات النزعة الإنسانية في الفكر العربي ص 89

30 - آثار محمد البشير الإبراهيمي الجزء الثاني ص 38

31 - آثار محمد البشير الإبراهيمي الجزء الثاني ص402

32 - آثار محمد البشير الإبراهيمي الجزء الثاني ص 404

33 - محمد عبد الرحمن مرحبا الفكر العربي في مخاضه الكبير ص193

34 - آثار محمد البشير الإبراهيمي الجزء الثاني ص 296

35 - أبو القاسم سعد الله أفكار جامحة المؤسسة الوطنية للكتاب 1988 الجزائر ص 49/48

36 أنظر آثار الإبراهيمي ج1ص 28

37 - آثار الإبراهيمي ج 2 ص416

38 - محمد عبد الرحمن مرحبا الفكر العربي في مخاضه الكبير ص 204 .

39 - آثار الإبراهيمي ج1ص 8

40 - آثار محمد البشير الإبراهيمي الجزء الثاني المؤسسة الوطنية للكتاب ص 38.

41 - آثار محمد البشير الإبراهيمي الجزء الثاني المؤسسة الوطنية للكتاب ص 485/484

42 – محمد العيد آل خليفة الديوان ص 490

**المصادر والمراجع** :

1 – آثار الإبراهيمي ج1 .الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط1978/1 الجزائر.

2 - آثار محمد البشير الإبراهيمي الجزء الثاني . المؤسسة الوطنية للكتاب 1987 الجزائر.

3 - جريدة البصائر ع37 أكتوبر 1936 .

**المراجع** :

1- محمد سعيد رمضان البوطي منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ط2003 .

2 - محمد عبد الرحمن مرحبا الفكر العربي في مخاضه الكبير دار الجيل بيروت.

3 - ألكسيس كاريل الإنسان ذلك المجهول تر/ شفيق سعد فريد مكتبة المعارف ط1985/4 بيروت .

4 - تركي رابح البشير الإبراهيمي في المشرق العربي مجلة الأصالة ع8 جوان 1972 .

5 - أبو القاسم سعد الله أفكار جامحة المؤسسة الوطنية للكتاب 1988 الجزائر.

6- محمد فاضل الجمالي الشيخ الإبراهيمي كما عرفته مجلة الثقافة ع1985/87

7 - محمد الطاهر فضلاء من جوامع الكلم لحكيم العلماء وعالم الحكماء الشيخ البشير الإبراهيمي مجلة الثقافة ع1985/87 .

8 - محمد الغزالي نظرات في القرآن شركة الشهاب الجزائر ( د.ت )

9 - زرارقة عطاالله تجليات النزعة الإنسانية في الفكر العربي المطبعة العربية غرداية .( د.ت)
10 - صبحي الصالح منهل الواردين شرح رياض الصالحين ج1 ط1/1970 دار العلم للملايين بيروت .
11 – محمد العيد آل خليفة ديوانه .

# صورة المقاومة الوطنية في كتابات الشيخ البشير الابراهيمي
## مقاربة – موضوعـاتيّة / بنـويّة-
## National resistance image in the writings of Sheikh Al-Ibrahimi
## - (thematic / structural) approach-

د/ الحـــاج جغـــدم. Dr/DJOURDEM El hadj
جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف.-University of hassiba ben bouali –chlef
djourdemhadj@gmail.com

**الملخص:**

يُعد الأديب ضمير الأمّة، وصدى همومها وآمالها، ولسانها المعبّر عن معاناتها وطموحها، يرصد جوانب الخير والشّر فيها،رافعًا راية المقاومة ضد الغزاة الحاقدين مستصرخًا في وجه بني جلدته من الخائنين، داعيا إلى سعادة الإنسان وصوت كرامته

وعليه، فإنّ الشيخ البشير الإبراهيمي من هؤلاء الرجال الصناديد الذين أسهموا بشكل كبير في مقاومة الاستدمار الفرنسي بقلمه، وكان أحد أكبر كتاب العربية في النصف الأول من القرن العشرين وأحد اكبر المفكرين الإصلاحيين

من هنا، تروم هذه الورقة البحثيّة الموسومة بـ " المقاومة الوطنيّة في كتابات الشّيخ الإبراهيمي: - مقاربة موضوعاتية / بنويّة- " إبراز فعل المقاومة في المقالة عند البشير الإبراهيمي، حيث ينتصر للذات الوطنية" الأنا"، مقابل السّخرية من الاستدمار" الآخر" واصفًا إياه بأقبح الصفات، مستظهرين المعجم اللّغوي الذي وظّفه الكاتب في كتاباته المقاومة

كلمات مفتاحية: صورة؛ المقاومة؛ موضوعاتية؛ بنوية؛ السخرية.

**Abstract:**

The writer considers as the nation’s conscience, and the echo of its concerns and hopes, and its tongue who express its suffering and ambition, monitors the aspects of good and evil in it, raising the banner of resistance against the hateful invaders crying out in the face of the inside traitors, calling for the happiness of the human being and the voice of his dignity

For this, Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi is one of these men who contributed greatly to resisting French colonialism with his pen, and he was one of the largest writers of Arabic in the first half of the twentieth century and one of the largest reformist thinkers

Hence, this research paper tagged "National resistance image in the writings of Sheikh Al-Ibrahimi: - (thematic / structural) approach" - highlights the action of resistance in the article of Al-Bashir Al-Ibrahimi, where he overbears the national self "I", as opposed to ridicule of the colonization "other" Describing it as the most ugly adjective, demonstrating the linguistic dictionary which the writer hired in his resistance writings .

Keywords: Image; resistance; thematic; structural; ridicule أولا:الإرهاصات الأولى لكلمة المقاومة:

1/- تعريف المقاومة لغة واصطلاحا.

أ/- التعريف اللّغوي:

العزم، المنازلة[1] ،النهوض[2]، ومن هنا كان مصطلح" قوم" لغويًّا: القيام: نقيض الجلوس، قام: نقيض جلس[3]. ومنه " تقاوموا في الحرب أي قام بعضهم لبعض"[4].

ويأخذ لفظ قام: معنى العزم، كما في قوله تعالى:« إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض» أي عزموا فقالوا[5]

وليس بعيدا عن هذا المفهوم يطلعنا صاحب اللسان بلفظ آخر وهو المنازلة، قاوم بمعنى نازل ومنه"مازلت أقاوم فلانا في هذا الأمر أنازله"[6]

ب/- التعريف الاصطلاحي:

وإذا كانت تعني من الناحيّة اللغويّة مَا جاء في لسان العرب من معانٍ – سبق ذكرها- فإنَّ المعنى الاصطلاحي يكاد يجمل تلك المعاني كلها، فالمقاومة من الوجهة الاصطلاحية، كانت في بعض تجلياتها موقفا من الواقع والحياة والعالم، فهي فعل مضاد ومغاير ومختلف

يُفصح عن وعي جديد يوجه الواقع المعيش، وبعضه الآخر قد يُصاحبه أو يليه سواء أكانت المقاومة تواجه قوى وأوضاعا وعوامل خارجية ، أم كانت تجابه قوى داخلية.

وفي المجال السّياسي يُستعمل مصطلح المقاومة للتَعبير عن المواجهة والتصدي المقترن بإرادة الشعوب المضطهدة وعزمها على المقاومة[7].

العدو واستئصال جميع أشكال الإستغلال والهيمنة والتبعيّة، فالمقاومة من هذا المنطلق "الوقوف في وجه الإعتداء سواء أكان مصدره قوّة أجنبيّة غازية أم قوّة داخليّة مستبدة"[8].

2/- بدايات التفتح المقاوم:

ظل الشعب الجزائري يُعاني من طامة الاحتلال الفرنسي التي أصابته سنة 1830، ورمت به متاهات الضيّاع والتشرد والذلّ، وقد نتج عنها تلقائيًا اضطراب شديد في الحياة السياسيّة، فعمت الفوضى بين أبناء الوطن، حيث ألقت بظلالها على الحياة الاقتصادية بالنسبة للمواطنين الجزائريين الذين سُلبت منهم الأراضي الخصبة وأبعدوا إلى الأحراش والأوعار التي لا تسمنهم من هزال، ولا تغنيهم من جوع، وقد ولد هذا الاضطراب الاقتصادي، اضطرابًا اجتماعيًّا أفضى إلى بروز ظاهرتين: الهجرة إلى الخارج، والصّراع الطبقي بين السكان في غضون تلك الظروف الحاسمة مع نهاية العقد الرّابع من القرن الماضي والتحولات الإستراتيجية التي شهدها العالم مع نهاية الحرب العالمية الثانية، استطاع الشيخ البشير الإبراهيمي أن يفك قيود الرقابة اللصيقة والمطاردة، لتكون كتاباته بمثابة الصرخة التي مهدت لثورة الشعب ، فكانت بداية التفتح عبرتنامي خط المقاومة الوطنية في مقالاته[9].

ولعل مقالته المعنونة بـ "ذكرى ثامن ماي" تجسد غضب الشيخ الابراهيمي مما اقترفه الإستدمار من مذابح كان ضحاياها ضعفاء مستعيدين، فترى عواطفه تلتهب، فيصرخ في وجه هذا الاستدمار المشؤوم، داعيا عليه، محملا إياه مسؤولية معاناة الأطفال وبكائهم ، ودموع نسائه، وعويل عجائزه ، وصراخ شبابه ، يقول:« لك الويل أيها الإستعمار، هذا جزاء

من إستنجدته ساعة العسرة فأنجدتك، واستصرخته حين أيقنت بالعدم فأوجدك؟ أهذا جزاء من كان يسهر وأبناؤك ينام، ويجوع أهله وأهلك بطان، ويثبت في العواصف التي تطير فيها نفوس أبنائك شُعاعا؟ أيشرفك أن ينقلب الجزائري من ميدان القتال إلى أهله بعد أن شاركك في النصر لا في العتيمة، لعل فرحة بانتصارك مساو لفرحة بالسلامة: فيجد الأب قتيلا، والأم مجنونة من الفزع، والدّار مهدومة أو محرّقة والغلّة متْلفة، والعِرض منتهكًا، والمال نهبًا مقسمًا، والصّغار هائمين"[10].

وفي المقالة نفسها، نجد الكاتب يخاطب هذا اليوم المشؤوم، حيث أفصح فيه عن موافقة المقاومة لآخر، مفصحا على أن الجزائريين سيظلون يحيونه، مبرزًا روح المرارة التي كانت تملأ نفسه وهو يصفه قائلا: "يا يوم!... لك في نفوسنا السّمة التي لا تُمحى، والذكرى التي لا تُنسى. فكن من أية سنة شئتَ، فأنت يوم ثامن ماي وكفى! وكلّ ما لك علينا من دَين أن نحيّ ذكراك وكلّ ما علينا لك من واجب أن ندّون تاريخك في الطّروس، لئلا يمسحه النسيان من النفوس"[11].

ثانيًا: فعل المقاومة في المقالة لدى البشير الإبراهيمي:

1)- قيمة المقاومة في مقالة «عادت لعترها لميس»:

ممّا لا يختلف فيه إثنان أنّ الشيخ البشير الإبراهيمي أسهم بشكل كبير في مقاومة الاستدمار الفرنسي بقلمه؛ إذ ألفينَا الكاتب يستمد مضامين مقالاته * في هذه المرحلة لحسّاسية- من آهات الإنسان الجزائري، وجراحات الوطن، المنكوب، فالنزعة المقاومة تتجلّى بوضوح في مقالته الشّهيرة «عادت لعترها لميس»، وفيها يصف حكومة الاستدمار بالعُهر، سعيا منه لبث رسالة منازلته لتخليص الجزائر من أنياب الغزاة الحاقدين.

إنّه التّحدي الذي لبس الكاتب ثوبه، منذ الأعوام العشرين من القرن الماضي، معبّرًا عنه بالكلمة الحارة التي "كانت أحد من السّيف، وأمضى من السّهام منذ القديم إلى اليوم"[12]،

فلدى الابراهيمي في كتابة المقالة بأنواعها "صولات وجولات؛ وذلك بفضل أسلوبه الأدبي الأنيق، ولغته الفخمة العالية، ثّم لما أوتي من سخرية نادرة كثيرًا ما يربط بها كتابته حتّى تغدو ومحبوبة لدى القارئ، وخفيفة عند المتلقي، وممتعة إلى حدّ السّحر والإبهار"[13].

ومما سبق، نستخلص أن الشيخ البشير الابراهيمي، قد اِعتنق مبدأ المقاومة بالكلمة ما جعلّه –رفقة رجال الحركة الإصلاحية في الجزائر- يؤسس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، إنّه الكاتب أي مكنّه دهاؤه السياسي من مسايرة الحركة الوطنية، ومساهمته في بناء مشروعها الوطني الإسلامي القائم على التربية الصحيحة وتحدي قوى الظلم، والمقاومة بالكلمة الحارة التي أرهصت لثورة الشعب ها؛ إذ تميزت بمضمون طبع بطبائع السّخرية، والدعوة إلى محاربة المستدمر بأسلوب التلميح ذي اللغة الانزياحيّة، ولعلّ مقالته الموسومة بـ «عادت لعترها لميس»، تجسد فلسفة الشيخ البشري الإبراهيمي في الإصلاح، وفي الحياة، وفي الرؤّية الوطنيّة إلى الوجود الاستدماري، وفي طريقة مقاومته بالكلمة الساخرة والعجيبة، وسنأتي على أطراف من نصها، لإبراز « تيمة المقاومة»، يقول الشيخ البشير الابراهيمي:"ولميسُ هذه في مورد المثل هي اِمرأة كانت لها عوائد شر تعتادها، وأخلاق سوء تُفارفها، ثم تقارفها، لغلبة الفساد فيها، وصيرورة أصلاً في طباعها (والعتر هو الأصل): فسيّرت العرب فيها هذا المثل (...) أمّا في مضرب المثل فهي الإدارة الجزائرية، وعترها هو الاستعمار البغيض إلى كلّ نفس، وما يقتضيه من ظلم وعتب للمستضعفين، وما يُبْنَى عليه من انتهاك لحرماتهم، وما ينتهي إليه من وحشية في معاملتهم، وقتل لمعنوياتهم ومسخ لأخلاقهم..." [14].

وعليه، نحاول الوقوف لدى هذه الافتتاحية من مقالة «عادت لعترها لميس»، والمثير فيها أنّ الشيّخ البشير الإبراهيمي دأب منذ البدايات الأولى لكتابة المقالة على ترصيعها بضروب من الأمثال العربية القديمة وغيرها. «وكثيرًا ما كُنْتُ ترى الإبراهيمي ينطلق من فكرة بيت شعر عربي شهير، أو فكرة مثل غربيّ قديم، أو قاعدة نحوية طريفة، أو مسألة فقهية شريفة، أو قضية أصولية معروفة: ليؤسس النتيجة على المقدمة (...) كما تراه يضرب، أثناء كتابته أمثلا عربيّة قديمة لم يسبقه أحد إلى ضربها وتوظيفها"[15].

ولو جئنا النّص –سالف الذكر بالدراسة والتحليل، لوجدنا الشيخ البشير الإبراهيمي يفضح الاستدمار والخونة من أبناء هذا الوطن؛ إذ يشبه «الإدارة الجزائرية» بالمرأة العاهرة، وعترها «الاستدمار الفرنسي»، إنّه يرى فيه الظالم المستبد، والطّاغية المتغطرس الذي يتباهى بجرائمه الشنيعة، هي المعاناة التي طمست العهود الزاهيّة، ورمت بها في مزبلة التاريخ، فانبرى لها الكاتب مقاومًا بالكلمة الشريفة، داعيًّا إلى فك القيود عن شعب داس الغزاة على كرامته وأخلاقه.

حقّا، إنّها الصّرخة المدويّة التي أطلقها الشيخ البشير الابراهيمي، وفيها أبان "عن سيرة الاستعمار الفرنسي في الجزائر: ينطلق من مضرب مثل عربيّ قديم، كانت العرب سيّرته حول اِمرأة عاهرة لم تستطع الإفلات من سيرتها القديمة حين تقدمته السّن بها على نحو ما، فكان ذلك الدّأبُ السّير ألا يزال يقارفها إذا ظنّ الناس أنّه فارقها، فلمّا أيقنوا أنّه لا مناص من ذلك الشر الذي ينبؤها فيعتورها: عادت لميس لعترها، فسلكت من عاداتها القديمة ما سلكت ويبدوا أنّ الشيخ لم يفلت حالة تشبه حالة الحكومة الاستعمارية في إصرارها على العودة إلى عادتها السّيئة، غير حالة تلك المرأة العربية الفاسقة"[16].

وتجد الكاتب- في طرف المقالة الثاني- يحاول كشف الاستدمار عللا حقيقته؛ إذ تراه يقاوم سيرته القائمة على التضييق والظلم والاضطهاد وبيان سلوكه الخيب، فيكون مثل تلك المرأة العربية العاهرة، لميس في سلوكها المتأحر بالقياس إلى سلوكها المتقدم، كان النّاس ظنّوا أنها تابت من فعل الشّر، وأقلعت عن اقتراف الرذيلة، إذ أن "كل الحكومات الاستعمارية تجعل معنويات الشعوب المغلوبة هدفها الأول فترميها بها يُضعفها، ولكن على التدرج لا على المغافصة، وبالحيلة لا بالقوة، وفي السّر لا في العلن"[17].

ألفنا الشيخ البشير الإبراهيمي يتأوه لواقع أمته، حيث صبّ المستدمر على الأهالي أسواط العذاب جهارًا، فهذا الاستدمار الذي أصاب الجزائر على حين عقلة من الدهر، لا يتردد في قتل معنويات الشعب بالقتل السريع، والحال أن حكومة الجزائر "فإنها تتغمد تلك

المعنويات بالقتل الوحي، عمدًا على الإصرار، وغاية أمرها أنّها تسّن القوانين القاتلة وتتناسى تنفيذها إلى حين، تغليطًا للمغفلين، وإيهامًا للمنتقدين"[18].

وعلى الشاطئ الآخر من المقالة، يطلعنا الكاتب على مسألة الديمقراطية فيقول:"إنّ الديمقراطية عند حكومة الجزائر كصلاة المنافقين، لا تزكي نفسًا، ولا تنص عن فحشاء وتفضُلُها صلاة المنافق بأنّ فيها من الصلاة مظهر الصلاة... فإنّ الديمقراطية عند الأمم التي تنتحلها وتزعمها لنفسها تتجلّى في عدّة مجالي، أرفعها الانتخابات، فهو عندهم العنوان الواضح للحريّة (...) والميزان العادل لاختيار الشّعب"[19].

ينهض هذا النص على تيمة أخراة من تيمات المقاومة بالكلمة؛ إذا استطاع بلغته السّاخرة ودهائه الفكري أن يفضح ديمقراطية الاستدمار في الجزائر فشبهها بصلاة المنافقين، فهي مشوّهة ناقصة،أساسها الميز العنصري بين الأوروبيين والجزائريين، فترى الجزائري المضطهد يُقيم في قبو،و يأكل من مزابل الأغنياء، ويُحرم أبناؤه من التعليم، والعوام مت السّاسة من أبناء الوطن يتسابقون على الكراسي... أي محنة أسوأ من هذه؟ وأيّ خرافة هذه الديمقراطية؟[20].

إن إيمان الشيخ الإبراهيمي بحب الوطن، ومقاومة المستدمر والدفاع عن لغة الضّاد واستمرار اللغة الربيّة في مدارسنا الحرّة، دفع الكاتب للثورة على القانون الجائر الصّادر في الثامن مارس 1938، يستوجب على كلّ متعلم تحفيظ القرآن وتعليمه للناشئة أن يستظهر ترخيصًا من السلطات الاستدمار، وهو ما أثار حفيظة الشيخ الذي عاد في الفقرة السّادسة من مقالة «عادت لعترها لميس»، ليُذكر بأفعالها الدّنيئة ويستظهر صفاتها القبيحة؛ حيث عاودها الطباع الشيء، فأغلقت مدارس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، حتى يعم الجهل أبناء هذا الوطن، وتضيّع عليهم عربيتهم، يقول الشيخ: «وعادت لعترها لميس في هذه الأيّام، وكانت عودتها، هذه المرّة، للمدارس العربيّة التي تديرها جمعيّة العلماء، فبعد أن سكتت عنها سنين اِتسّق فيها سيرها، وعاد على الأئمة خيرها، عادت عليها في هذه الأيّام

بالتضييق والتعسير، وأخرجت ما كان مخبوءًا في جمعيتها من القوانين والقرارات (...) كأن التّعليم جريمة يترتب عليها العقاب، وكأن حبل الأمن اِضطرب بسبب هذه المدارس ومعلميها وأطفالها"[21].

لا زال الكاتب يرمي بسهامة الثاقبة في جسد الاستدمار، ثائرًا ومقاومًا سياسة التدمير؛ إذ ألفينا تارة أخراة يرمي حكومته بالعهر الصّراح، ويسخر منه بأسلوب أنيق ولغة فخمة، مستظهرًا سلوكه الحاقد على العربيّة ومعلميها يقول:"أليس معنى مقاومة التعليم نشر الأميّة وتكاثر الأميين؟ لا يقتضي المنطق إلا هذا، ولا يفعل الاستعمار إلّا هذا؛ له مذهبًا في المحافظة على الأميّة لئلاّ تزول، كمذهب العلماء في المحافظة على الحيّات السّامة لئلا ينقطع نسلها"[22].

والمتأمل في النّص –سابق الذكر- يلحظ أنّ "حكومة الاستعمار في الجزائر، أو تلك المرأة العاهرة، عادت إلى ما كانت تقترفه من شرور وقد ركزّت فعلاتها هذه المرّة على المدارس العربيّة ومعّلميها فأخذتهم أخذ مستبد ظالم، وعدّت تعليم العربيّة جريمة ترتكب في شأن الإنسانية؛ وهي وإن بدأت إلى اِزدجاء المعلمين إلى المحاكم الجائرة «نقرى» في انتظار أن يغتدي السوق جفلى"[23].

2)- في المعجم اللغوي في مقالة «عادت لعترها لميس»:

تحاول أن نقف من خلال المعجم اللّغوي لذي «للغة الانزياحيّة» التي يصطنعها الشيخ البشير الابراهيمي؛ وقد ألفيناه "يرمي إلى معنى بعيد، دون أن يُعرّض نفسه للمسَاءلة من قبل السلطات الاستدماريّة، ويُفلت من المتابعة من وجهة، وليعلو بكتابته الأدبيّة السّياسية على طريقة الكبراء، فلا يُسْفَ، ويسمو على طريقة البلغاء فلا يسقط"[24]، وإلّا كيف نفسر الألفاظ الواردة في المقالة:

- العتر: وهو الأصل، وقد ورد في لسان العرب: «عادت لعترها لميس»: أي «رجعت إلى أصلها، ويقال العربيّة: عاد له وعاد عليه، معًا- ولأنَّ لميس الأصل فيها «الجنون»، وقيل: اِمرأة عاهرة

لم تستطيع الإفلات من سيرتها القديمة؛ ويقصد بها فرنسا العجوز التي دومًا تحنّن إلى استعماريتها»[25].

- الأصل: ما يُبنى عليه. تقول: أصل الحائط أيّ قاعدته، وقد تُوسع فيه عند العرب، حيث إرتباطه بوجود الشّيء، مثال ذلك: أنّ الوالد سبب في وجود الابن؛ فالأب أصل والابن فرع، ومؤداه، أنّ الحكومة الفرنسية لم تتخل عن طباعها؛ وهذا أصل فيها.

- تفارق: فيه دلالة المفاعلة؛ أي أنّ الفعل يقع من الاثنين، ولكن يجوز إسناده لأحد الفاعلين. مثل قولنا: قَتَلَ زيدٌ عمرًا، فإنّنا حينما تنظر إلى المفعولية في هذا الدالة اللّغوية، تستنتج على أنّ الفعل وقع واحد، وهو زيد، ولكن الحقيقة في دلالة هذا الوزن: أنّ الفعل وقع من الاثنين؛ لأنّ الفاعل يُفيد المشاركة والقول فيه: أنّ فرنسا تقاتل الجزائريين.

- تُفارقُ: تعود غليها بمعنى ترتكبها، وعن هذا الموضوع يقول الناقد عبد الملك مرتاض: "نُلِفي الابراهيمي ينطلق من مَضْرِب مثل عربيّ قديم كانت العرب سيّرته حول إمرأة عاهرة لم تستطع الإفلات من سيرتها القديمة حين تقدّمت في السنُّ بها على نحو ما، فكان ذلك الدّأب السيّئ لا يزال يُفارقها إذا ظنّ الناس أنّه فارقها، فلمّا أيقنوا أنّ لا مناص من ذلك الشّر: عادت لتعرها لميس، فسلكت من عاداتها القديمة ما سلكت..." [26].

- الفساد: عكس الصّحة، وقد إستخدمه الفقهاء والنحاة؛ فإذا إختل شرط من شروط صحّة الصّلاة. قالوا: فسدت صلادته، والفساد لا يُجْبَرُ إلّا أنّ تأتي بمثل الشيّء.

- الصّيرورة: مُعبّر عنها بالمصدر لإفادة التّوكيد، كأنّما قال: ليصير الفساد فيها، فوجود المصدر ينبئ عن حذف فعله، والقول فيه: أنَّ البشير الابراهيمي يؤكد على أن السّلطات الفرنسيّة لن ترعوي أبدًا عن تدمير الجزائريين، لأنّ قهر الشعوب بالحديد والنّار، وإبادتها أصل في الاستدمار.

- الطّباع: جمع طبيعة، ويُطلق عليها في العربيّة: الخليقة والنخيرة، والقول فيها: إنّ الاستدمار الفرنسي كلّما حاول أن يتوب من ذنبه، عاد إلى سلوكه، وهو الظلم والاضطهاد.

- البغيض: على وزن (فعيل) وهو من صيغ المبالغة والقول فيه: وجيء الصيغة ليكون ردّ الفعل عند الجزائريين من جنس العمل لأجل شحذ الهمم.
- المسخ: تغيير الخلقة، يُفيد التّحويل "وهذه الكلمة موحيّة لأنّ الاستدمار يُريد أن يقتل فينا مقومات الشخصية الوطنيّة.

الخلاصة:

وخلاصة القول أن الشيخ البشير الإبراهيمي كان واحدا من رجال الجزائر العظام الذين أشعلوها نارا على المستدمر بقلمه، حيث لم يهدأ له بال حتى نالت الجزائر استقلالها، فكان في كتاباته الكثيرة ينتصر للذات الوطنية " الأنا "، مقابل السخرية من الاستدمار" الآخر"، واصفا إياه بأقبح الصفات. إذ وجدناه في مقال " عادت لغيرها لميس" يوظف معجما لغويا مقاوما، فتراه يصف الإدارة الجزائرية بالمرأة العاهرة، وعهرها الاستدمار الفرنسي، إنه يرى فيه الظالم المستبد .

قائمة المراجع


- لسان العرب، ابن منظور.
- القاموس المحيط، الفيروز آبادي.
- المعجم الوسيط .
- www.alkader.net
- القاموس السياسي.
- فنون النثر الأدبي في الجزائر، عبد الملك مرتاض .
- البصائر الثانية، محمد البشير الإبراهيمي.
- مجلة الثقافة، علي عليلات: اثر الكلمة الحارة في الثورة الجزائرية.
- أدب المقاومة، عبد الملك مرتاض.
- عيون البصائر، محمد البشير الابراهيمي.

## الهوامش

[1] ابن منظور: لسان العرب، مادة (ق وم)، مج 12، ص 224.

[2] الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مادة (ن ه ض)، ج02، ص 348.

[3] ابن منظور ، م، م ،س.

[4] المعجم الوسيط: (ق و م)، ج01، ص 768.

[5] ابن منظور: م، من س.

[6] م، س، ص 228.

[7] النص مأخوذ بتصرف من مقال موسوم " الفعل والكتابة: مفهوم المقاومة، www.alkader.net

[8] القاموس السياسي: مادة ( ق و م)، ص 1207.

[9] ينظر: عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1983، ص23.

[10] محمد البشير الإبراهيمي، ذكرى ثامن ماي، البصائر الثانية، ع35، 10 مايو، 1948، ص 01.

[11] م.س.

[12] علي عليلات: اثر الكلمة الحارة في الثورة الجزائرية، في مجلة الثقافة، ع72، 1982، ص 75.

[13] عبد الملك مرتاض: أدب المقاومة الوطنية، دار هومة، الجزائر، 2002، ص 161.

[14] محمد البشير الابراهيمي، البصائر الثانية، ع64، 1949، ص 02.

[15] عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة، ص 162.

[16] عبد المالك مرتاض: أدب المقاومة، ص 162.

[17] م.س، ص 159.

[18] م.س، ص 159.

[19] محمد البشير الابراهيمي، البصائر الثانية، ع64، 1949، ص 02.

[20] ينظر عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة، ص 167.

[21] محمد البشير الابراهيمي، البصائر الثانية"، ص 03.

[22] م، س.

[23] عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة، ص 170-171.

[24] عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة، ص 162.

[25] عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة، ص 162.

[26] ترعوي: لم تكتف.

# البعد الحجاجي وبنيته الإقناعية في خطابات البشير الإبراهيمي

## -دراسة في عيون البصائر-

# The Pilgrimage Dimension and Its Persuasive Structure in Al-Bachir Al-Ibrahimi's Speeches - A Study in the " aiyoune elbassaaire "

دريم نورالدين Drim nouredine

قسم اللغة العربية كلية الآداب والفنون جامعة الشلف (الجزائر)

**الملخص:**

تميّزت خطابات البشير الإبراهيمي، بأنها حجاجية، وقد تعددت مجالات استعمال الحجاج فيها، حسب الظروف المختلفة، التي ألقي فيها الخطاب؛ لغرض إقناع الآخرين ومحاولة الشيخ هذه واعية نابعة من غيرته على وطنه، وما خلّفه المستعمر الغاشم، هدفها التأثير في المتلقي (المثقف وغير المثقف من الجزائريين في تلك الفترة)، إن على مستوى السلوك، أو مستوى المعتقد والقناعة. وقد بناها الشيخ وفق استراتجية لغوية لا يدرك سرّها إلا هو، هذه الدراسة تبيّن خصائص الخطاب الأدبي لدى البشير الإبراهيمي، من وجهة حجاجية، وإبراز البنية الإقناعية في هذا النوع من خطاباته.

**الكلمات المفتاحية:** الحجاج، الخطاب، الإقناع، المثقف، الدراسة.

**Abstract:**

Al-Bashir Al-Ibrahimi's speeches were distinguished as pilgrims, and the fields of pilgrims using them varied, according to the different circumstances in which the speech was made, for the purpose of persuading others, and this sheikh's conscious attempt stemming from his jealousy over his homeland, and what the brutal colonial successor succeeded, aiming to influence the recipient (the intellectual and not The intellectual from the Algerians of that period), at the level of behavior, or the level of belief and conviction. The Sheikh built it according to a linguistic strategy whose secret is only aware of it, this study shows the characteristics of literary discourse among Bashir Brahimi, from a pilgrimage point of view, and highlighting the persuasive structure in this type From his speeches.

**keywords:** Pilgrims, discourse, persuasion, intellectual, study

**1. مقدمة:**

تعدّدت الفنون الأدبية وكان منها " فن المقالة "، وقد ظهر هذا النوع الأدبي في أوائل القرن العشرين، تصاغ من خلاله الأفكار بلغة سلسة وأسلوب واضح، وقد تحمل في طياتها بعدا سياسيا أو اجتماعيا أو إصلاحيا، واشتهر في هذا الفن العديد من الكتّاب على غرار الأفغاني جمال الدين، ومحمد عبده، ومصطفى لطفي المنفلوطي، ومحمود عباس العقاد، وغيرهم كثير، وقد ألقى هذا الفن - آنذاك - بظلاله على كتّاب جزائريين، فأبدعوا فيه وكان حامل لواء هذا الفن في الجزائر "مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" الشيخ البشير الإبراهيمي.

قيل عن مدرسة عيون البصائر "إنّها مدرسة ذات أسلوبية قلّ مثيلها في منهجية خطابنا العربي المرسل، فهي تضرب بجذورها في أعماق التراث العربي القديم، في الوقت الذي تبسط أغصانها المتعددة على فروع المعرفة الحديثة، وهي نسج فريد من الأدب، يجمع بين حكمة قس بن ساعدة الأيادي، وفصاحة سحبان، وعقلانية أبي عثمان الجاحظ، وإشارات أبي حيان التوحيدي، إلى جانب رشاقة أسلوب عبد الحميد الكاتب، وأناقة عبارة أحمد حسن الزيات، ورمزية مصطفى صادق الرافعي، غير أنّها تزيد على ذلك كلّه، بخصوصيات أخرى، هي أنّها جزائرية العزيمة في التصدي للاستعمار، ومغاربية الالتزام في الدفاع عن الحرية، وعروبية الانتماء في التأصيل الحضاري، وإسلامية المنهج في علم التصحيح العقدي"[1]، كان فارسها بلا منازع الشيخ البشير الإبراهيمي - رحمه الله -.

لمّا كانت خطابات الشيخ تحمل كلّ هذه المزايا، فهي لا محالة قد اتسمت بصبغة حجاجية، فجاز لنا أن نطلق على بعضها خطابات حجاجية، لأنّها تنوعت من حيث مجالات استعمالها من قبل صاحبها، في ظروف مختلفة، لغرض إقناع الآخرين، فهي محاولة واعية جادة للتأثير في المتلقي ( المثقف وغير المثقف من الجزائريين في تلك الفترة)، إن على مستوى السلوك، أو مستوى المعتقد والقناعة. وقد بنى الشيخ خطاباته وفق استراتجية لغوية لا يدرك كنهها إلا هو، في مجالات متنوعة.

تروم هذه الدراسة إلى البحث في خصائص الخطاب الأدبي لدى الشيخ البشير الإبراهيمي، من وجهة حجاجية، وإبراز البنية الإقناعية في هذا النوع من الخطاب لدى الشيخ. من خلال دراسة بعض النماذج من عيون البصائر.

**2- لمحة عن عيون البصائر:**

هي إحدى الآثار النفيسة التي خلّفها شيخ الجزائر محمد البشير الإبراهيمي، وهي في الأصل عبارة عن مجموعة من المقالات الافتتاحية التي كتبها الشيخ في السلسلة الثانية من جريدة البصائر، ثمّ جمعت بعد ذلك وطبعت تحت مسمّى "عيون البصائر"، وقد أصدرت السلسلة الثانية من جريدة البصائر سنة 1947 من قبل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي "أضحت مدرسة أدبية لغوية تحتذى، ويشتاق إليها القارئ المنتهى قبل المبتدي، وينتظر صدورها بفارغ الصبر، ويحصل عليها رغم الفقر والجور، مجلة متنوعة عالمية، بما تحمله من لغة ساحرة، ومن بيان رفيع، ولسان سريع، فكانت مجلى الفصاحة والبيان، وأضحت قطوفة الجنان، في نمطها العالي، وفي بيانها الداني، ووضوحها الصافي، مجلة كانت قوام وجودنا المعنوي، وأساس امتدادنا الفكري والتاريخي، وحجر زاوية أمننا الثقافي والحضاري"[2]، كيف لا وقد صمدت في وجه العدو الغاشم، وأرقته شهورا وسنين متواليات، بفضل حنكة كتّابها، وقد عبّرت هذه الصحيفة أيضا عن الاتجاه الإصلاحي الذي تبنته الجمعية، في أبعاده المتنوعة (الدينية والاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والأدبية والعلمية...) وفي الغالب الأعم تفتح المقالات بقلم رئيسها الشيخ البشير الإبراهيمي، وقد لاقت استحسانا شديدا من قبل المشرق والمغرب، بسبب جودة محتواها ومضمونها، ورقي أسلوبها[3].

ومن بين الخصائص المميزة لأسلوب تلك المقالات ما يلي[4]:

- العرض المنطقي والمنهجية الدقيقة
- الجمع بين جمال الصياغة والتعبير عن الفكرة
- الرساليّة
- السخرية الحادة واللهجة العنيفة عند المناقشة.

- ظاهرة الاقتباس والتضمين.

**3- مفهوم الحجاج**

تعددت مفاهيم الحجاج، وإن اتفقت على أنّه ينطلق من دعوى مبرّرة بغرض إقناع الآخرين" فالحجاج جنس خاص من الخطاب، يبنى على قضية خلافية، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيا قاصدا إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية"[5]، وحدّه عند طه عبد الرحمان "كلّ منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة، يحقّ له الاعتراض عليها"[6]. أي إنّه خطاب قائم على المحاججة بين المتلقي والمتكلم.

**4- ملامح الخطاب الحجاجي:** يمكن أن نلخّصها في المخطط الآتي وفق ما جاء في الدراسات الحديثة:

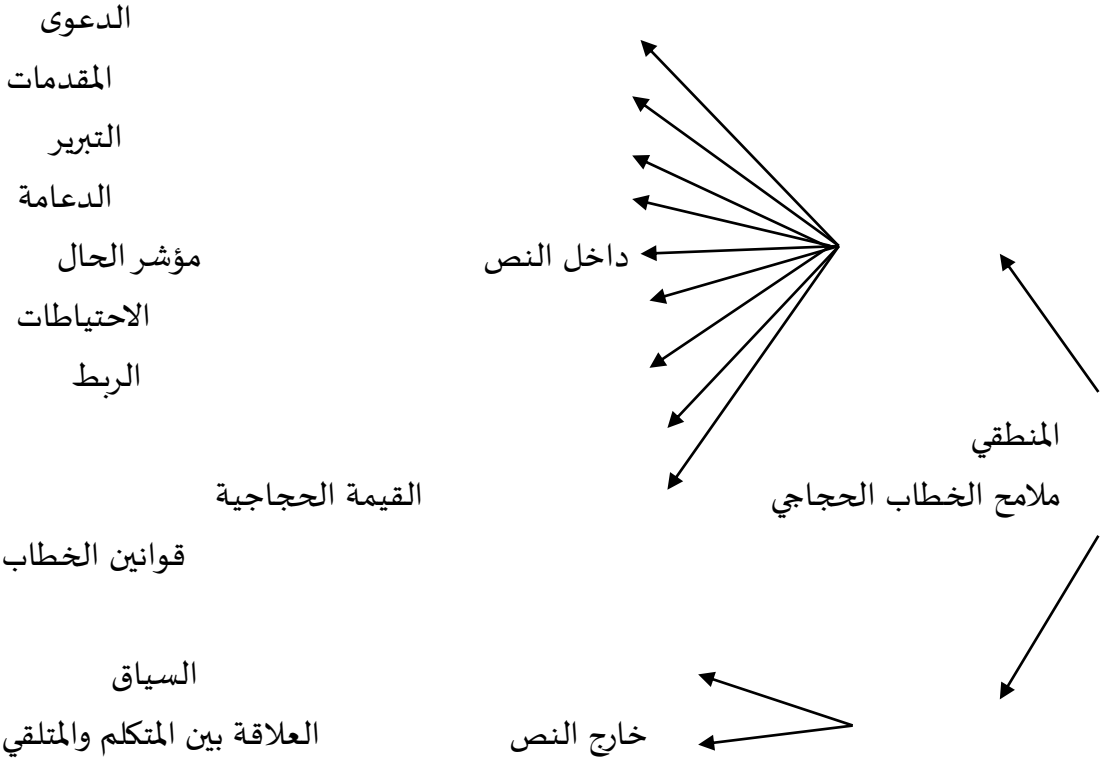

وفي ظلّ هذه الملامح يمكن للمتكلّم أن يستعمل عدة أنواع من الحجاج، في سياق التخاطب مع المتلقي، انطلاقا من الفكرة التي يحاول أن يقنعها بها، وهو في ذلك قد يلجأ إلى استخدام آليات مختلفة من الإقناع، ومنها:

- الآليات النفسية والاجتماعية.
- الآليات المنطقية.
- الآليات اللغوية.

**5- ملامح الحجاج في خطابات البشير الإبراهيمي:**

تميّزت جلّ خطابات البشير الإبراهيمي التي جمعت في عيون البصائر، بجملة من الخصائص التي جعلتها صالحة لأن تكون نواة دراسة حجاجية بامتياز، بفضل تنوع أسلوب الشيخ في تقديمها، وتضمنها لجملة من الحجج المختلفة (عقلية، منطقية، لغوية...)، إضافة إلى ذلك صدق مقولة طه عبد الرحمان على خطاباته حين قال "لا خطاب بغير حجاج"[7] فلا يكاد يخلو خطاب من خطاباته من حجاج. وأكثر من ذلك كلّه تنوع ثقافة الشيخ فقد ضرب بحظ وافر في كلّ علم (فقه ولغة ونحوها، ومنطق، وفلسفة)، وسعة اطّلاع على كثير من العلوم والمعارف.

نحاول أن نبرز في هذه الدراسة التطبيقية لبعض خطابات الشيخ، تلك الملامح الحجاجية التي أقرها الدارسون المحدثون، على النحو الآتي:

**5-1. مكوّنات الحجاج داخل النص:**

- **الدعوى**: إنّ المتصفح لعيون البصائر تطالعه، عدة قضايا جوهرية، دعا إليها الشيخ الإبراهيمي في مقالاته، ويظهر ذلك جليّا في عناوينها من ذلك: "من الحقائق العريانة" ودعوته إلى الأخذ بمطالب الجمعية وعلى رأسها حق الأمة في التعليم العربي، وفي المساجد وأوقافها، وفي القضاء الإسلامي وإصلاحه[8]، إجمالا ثمّ يفصّل في كلّ مطلب على حدة ومنها أيضا: "إلى أبنائي الطلبة المهاجرين في سبيل العلم" ودعوته أبناء الجزائر إلى التشدّد في طلب العلم والصبر على تعلّمه والحرص على نيله، ومنها كذلك: "اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة، وليس لها ضرّة" ودعوته إلى إقرار العربية لغة للجزائريين، بلا خلاف ولا ضغينة بينهم. ومنها

أيضا "معهد عبد الحميد بن باديس" ودعوته للأمة الجزائرية أن تحافظ عليه وعلى نهجه ومحتواه وأهدافه، وعلى هذه الشاكلة نجد مقالات الشيخ لا تخلو من دعوى لقضية بعينها سواء في مجال الدين أو العلم أو الاجتماع أو الإنسانية.

- **المقدمات**: جاءت جلّ مقدمات مقالات الشيخ مبنية بناء منطقيا، منطلقا من بديهيات ومسلمات ليبني حجاجه فيها، لأنّه بصدد أن يقنع المتلقي بما يطرحه من أفكار ورؤى وحقائق، وقد تميّزت كلّ مقالة عن أخرى بحسب موضوعها، وفي ما يلي بيان بعض مقدمات من مقالاته:

* مقالة " مدارس جمعية العلماء"[9]:

- وصفه للمدارس على أنها نجوم تضيء ظلام الجهل الذي صيّره المستعمر في الجزائر.
- ذكره بأن حياة الأمم بالمدارس، وأن المدرسة منبع العلم والمعرفة، وفضلها يعلو على فضل المصانع والقصور والحدائق المشيّدة.
- ذكره بأن كلّ بناء خاو، وسيزول إلاّ مبنى المدارس الذي يعمر ويستمر ما دامت الحياة مستمرة.

* مقالة " كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار"[10]:

- ذكره بأنّ التعليم أمانة في عنق أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
- ذكره للصبر ومجابهة الشدائد والمحن في ظل بسط المستعمر لهيمنته، ودعوته لتجاوز الصعاب والمحن التي سيلاقونها لا محالة من قبل المستعمر.
- ذكره لمكانة المعلم في حياة قد ملئت بالجهل، وسيطر على أهلها الحرمان والفقر ومنع سكانها من تلقي العلم والمعرفة.

* مقالة " اختلاف ذهنين في معنى التعليم العربي"[11].

- ذكره لفضائل العربية، ورؤية الأمة الجزائرية لها.
- ذكره لمكائد المستعمر الفرنسي التي اتخذها سلاحا لمحاربة العربية، وثني عزيمة أهلها.
- ذكره لنظرة الجمعية إلى العربية، ورؤية المستعمر لها.

- **التبريرات**: لقد برهن الشيخ في خطاباته على صدق ما يدعو إليه، بدليل أنّه لم تكد تخلو مقالة من مقالاته من تبريرات لكلّ قضية كتب عنها أو طرحها للنقاش أو دافع عنها ونتبيّن ذلك من خلال هذه النماذج التي نوردها كدليل لما ذهبنا إليه مشفوعة بالتبريرات التي أوردها في خطاباته:

ففي مقالة " الكلمة الأخيرة للأمة"[12]، وبعد أن يقدّم الشيخ دعواها ومقدماته يسترسل في ذكر المبررات، وهي على النحو الآتي:

- إنّ الاستعمار شيطان، فلا بدّ للجزائريين أن ينظروا إليه بهذه النظرة وعلى هذه الصورة.
- بسطة المستعمر الغاشم وتمسكه بالجزائر، والتذكير بأحداث 8 ماي 1945م، وأن الجزائريين لم يسلموا من خبثه كما عبّر الشيخ البشير الإبراهيمي.

وفي مقالة "من مشاكلنا الاجتماعية الشبان والزواج"[13]، يقدّم الشيخ دعواه ومقدماته ثمّ يشرع في ذكر مبررات قضيته، وهي:

- عزوف الشباب عن الزواج، وتأخيره إلى سن ما فوق الثلاثين، وجملة المشاكل المترتبة عن هذا التأخير عند كلّ من الفئتين ( الذكور والإناث)، وما يمكن للجزائر أن تخسره بفعل هذا التأخير.
- طبيعة الزواج في البادية وكيف أن أهلها يزوجون أبناءهم في فترة مبكرّة جدّا، وما ينجر عن الزواج المبكر، ودعوة الشيخ إلى الاعتدال والوسطية في هذا الأمر.
- التركيز على فئة بعينها، ومحاولة تقديم النصح لها، بما يعود عليها وعلى الجزائر بالمنفعة العامة والخاصة معا.

- **الدعامة**: لا يفتأ الشيخ يدعم مقالاته بجملة من الشواهد والبراهين، والغاية من ذلك كلّه إقناع المتلقي بما يهدف إلى إيصاله له، فلم تكد خطاباته تخلو من شواهد وأدلة على ما طرقه وعالجه في مجالات تنوعت بتنوع خطاباته، ومن ذلك ما جاء في مقالة "من مشاكلنا الاجتماعية الطلاق"[14]:

- جهل المسلمين بحقائق الدين، بسبب جفاف الفقه عند الفقهاء، لمّا أخذوه من كتب تعلّم الأحكام ولا تعلّم الحكم كما عبّر الإبراهيمي.

- وجوب أخذ الفقه من القرآن والسنة وعلماء السلف، أو كتب العلماء المستقلين المستدلين التي تقرن المسائل بأدلتها.
- الحلف بالطلاق سبب في خراب البيوت ودمارها، وقد تكون المرأة لا دخل لها في ذلك فتصبح في عداد المطلقات، وهي لا تعلم شيئا ولا تمت إلى ذلك اليمين بصلة.
- العواقب الوخيمة للطلاق، والحال التي ينشأ عليها الولد الذي حرم عطف أحد أبويه.

ومن ذلك أيضا ما جاء من أدلة في مقالة "عواقب سكوت علماء الدين عن الضلال في الدين"[15]، لمّا قدم الشيخ الإبراهيمي لهذه القضية جملة من المقدمات والتبريرات ضمّنها العديد من الأدلة والبراهين، وهي:

- حقّ العامة على العلماء دعوتهم إلى التمسك بالدين، لأنّ لعلماء الإسلام سلطان على الروح، مستمدّ من روحانية الدين الإسلامي، والعامة تخضع له بسهولة وينفذ إلى نفوسها.
- كانت الدعوة إلى الدين الإسلامي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغت مبلغها، واستمر الحال على ذلك في عهد الصحابة - رضوان الله عليهم-، وهو دليل صريح على وجوب دعوة الناس إلى الهداية والالتزام بتعاليم الدين الحنيف.
- ذكر وقائع حدث عبر امتداد التاريخ الإسلامي (وما حصل في أمر البيعة).
- خلو الساحة من العلماء والفقهاء، أدّى إلى انتشار الدجالين والسحرة، ففسدت بذلك عقائد المسلمين وأخلاقهم.
- **مؤشر الحال**: إن علو كعب الإبراهيمي في اللغة جعله فارسا فيها بفضل استخدامه وتوظيفه لأساليب لغوية لا يحسن استعمالها إلا هو، والغرض من ذلك كلّه، إقناع المتلقي بتطبيق ما دعا إليه في مختلف خطاباته، وجاءت مقالاته حافلة بالأساليب الرائقة ومن ذلك:

قوله "يوم مظلم الجوانب بالظلم، مطرّز الحواشي بالدماء المطلولة، مقشعر الأرض من بطش الأقوياء، مبتهج السماء بأرواح الشهداء، خلعت شمسه طبيعتها فلا حياة ولا نور، وخرج شهره عن طاعة الربيع فلا ثمر ولا نور، وغبنت حقيقته عند الأقلام فلا تصوير ولا

تدوين"[16]، فتأمل معي هذه العبارات الرنانة والتشبيهات البديعة، والمفردات الغريبة ذات المعاني الجليلة، فالشيخ يصور لنا ذلك اليوم (ذكرى الثامن ماي 1945م)، كبيت جوانبه مظلمة بسب غياب النور، وكأن ظلم المستعمر ليل ألقى بظلمته على الجزائريين، وأنّ كثرة الدماء صارت كالطلاء للمنزل، وهي كناية عن كثرة القتلى الذين لقوا حتفهم على يد المستدمر، وأن الأرض تجسّدت في شكل إنسان وارتعشت خوفا، من بطش المستعمر، وأنّ سقفه (السماء المعنى البعيد) فرح بأرواح الشهداء دلالة على نقاء نفوسهم التي قدموها تضحية للوطن، ثمّ صوّر لنا ذلك المشهد المريب والساحة المليئة بالقتلى على أنها مدينة بلا حياة غابت عنها الشمس فانعدمت الحياة فيها، وصوّر عجز الكتّاب والمصورين عن وصف المنظر نتيجة لهوله. بلغة بديعة ووصف لا يدانى بأسلوب كاتب مقتدر.

- **الاحتياطات:** كان الشيخ الإبراهيمي ذكيا في طرحه لجملة القضايا التي تناولها، فقد وضع في الحسبان العديد من الاحتياطات أثناء إلقائه لخطاباته، تحسبا لردود المتلقي المتوقعة وغير المتوقعة، ومن ذلك مثلا لا حصرا، ما جاء في مقالة "حدثونا عن العدل فإننا نسيناه"[17]، فهو يفتتح خطابه بتساؤل عن العدل ثمّ عن المصادر التي يتأتى منها العدل وهو يعلم يقينا بأن فرنسا ظالمة غير عادلة، فنجده يقدّم خطابه عن فرنسا الرائدة في العلم والمعرفة والأدب والفن ... وغير ذلك، ثمّ يقدّم لنا الصورة الحقيقة لفرنسا ذاك المستعمر الغاشم، وينتقل بعدها بتقديم دليل حسيّ حين يذكر تلك المفارقة بين الحنظل والعسل ويعقب ذلك كلّه بأدلة وبراهين كثيرة عقلية ولغوية وغيرها.

- **الربط المنطقي:** من خصائص خطابات الإبراهيمي الربط المنطقي بين أجزائها، فحين يعالج أية قضية كانت سياسية أو دينية أو اجتماعية، أو ثقافية، إلاّ وجدنا أجزاء الخطاب متماسكة متسلسة وفق عرض منطقي، نذكر من ذلك، ما وقفنا عليه في مقالة " أرحام تتعاطف"[18]، وهو يدعو من خلال هذا العنوان إلى توحيد الأمة الإسلامية تحت لواء واحد وهو الإسلام من شرقها إلى غربها، حتّى لا تكون لقمة سائغة في فم المستعمر الغاشم، ثمّ انبرى يذكر الأدلة والحجج التي تؤكد قوة الأمة في توحيدها، ويسرد براهين واقعية على أن الاستعمار يسعى إلى بثّ دسيسة التفرق والاختلاف بين المسلمين، لينتهي إلى أنّ هذه الدعوى

يجب أن تؤخذ على محمل الجدّ لأنّ المستعمر سيعمل على وأدها لا محالة لما لها من فائدة ترتجى.

- **القيمة الحجاجية**: كانت غاية الإبراهيمي من خطاباته في عيون البصائر، تحقيق جملة من الأهداف من خلال القضايا التي عالجها بمختلف أصنافها، وقد ضمنها قيمة حجاجية لذلك جاءت كلّ خطاباته حجاجية بكلّ ما تحمله كلمة الحجاج من معنى، ونذكر من ذلك ما جاء في مقالته "فلسطين تصوير الفجيعة"[19]، التي ضمّنها قيما حجاجية وهي:

- حبّ كل جزائري لفلسطين؛ لأنها أولى القبلتين، وفيها المسجد الأقصى وأنّها مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وأنّها مهبط الأنبياء عليهم السلام.
- اغتصاب اليهود لأرض فلسطين.
- فلسطين عربية الأرض والدم.

- **قوانين الخطاب:** لم يلجأ البشير الإبراهيمي في إقناع خصومه أثناء خطاباته إلى قوة السلاح، بل احتكم إلى قوانين الخطاب، واتّخذ من قوة قلمه وإبداع فكره سبيلا لإقناع المتلقي، انطلاقا من جملة الحجج التي ساقها في كلّ خطاباته، ومن ذلك مقالته "محنة مصر محنتنا"[20]، والتي يصوّر فيها معاناة الشعب المصري من ويلات المستعمر الإنجليزي، ويشبه محنته بمحنة الشعب الجزائري ومعاناته هو أيضا من ويلات المستعمر الغاشم، وليثبت ألم معاناته استوقفته عدة حجج منطقية ولغوية، استعان بها ليوصل فكرة أنّ ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، ضمن حوار هادئ عوّدنا عليه الشيخ في خطاباته.

**2-5. مكونات الحجاج خارج النص:**

- **السياق**: ويقصد به تلك الظروف المحيطة بالخطاب لحظة إنتاجه، فالزمن الذي كتب فيه الشيخ مقالاته يحيل لا محالة إلى الظروف التي عايشها الشيخ أثناء كتاباته، فالسياق التاريخي يثبت معاناته هو والشعب الجزائري من وطأة الاستعمار، أضف إلى ذلك الشعوب العربية التي عانت هي الأخرى من ويلاته، فإذا تأمّلنا خطاباته فجلّها عالج قضايا حساسة: إما دينية، أو اجتماعية أو إنسانية، أو سياسية... وغيرها، فصوّر الشيخ بصدق ما عايشه

آنذاك وقد ضمن جلّ خطاباته أبعادا حجاجية، من أجل أن يقنع المتلقي مهما كانت صفته (المستعمر، الشعب الجزائري، العرب، السياسيون، الحكام... وغيرهم).

**العلاقة بين المتلقي والمتكلّم**: غالبا ما يكون البشير الإبراهيمي هو المتكلّم في خطاباته أمّا المتلقي فيختلف من مقالة إلى أخرى بحسب المقام الذي قيل فيه الخطاب والسياق الذي كتب فيه، ولكن خطابات الشيخ جاءت بعربية فصحى وأسلوب رائق سلس، وإبداع فني لا مثيل له، فكيف يمكن أن يحقق الشيخ هدف الإقناع من وراء إنتاجها، والشعب الجزائري (أحد المتلقين لخطاباته) يعاني الأمرّين الفقر والجهل، لكن وعلى الرغم من تراثية لغته، فالشيخ يخاطب شعبه بحسب مقام معرفته وإدراكهم، لذلك نجد لغته في الخطابات التي وجّهها إلى عامة الشعب الجزائري، لغة سهلة واضحة المعاني والأفكار (مثلا مقالة "دروس الوعظ في رمضان")، أمّا إن كانت موجّهة إلى الطبقة المثقفة، فالشيخ يرفع من حدته اللغوية، ويقوّي أسلوبه الرصين (مثلا: مقالة "كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار")، وأمّا من أراد أن يقرأ عيون البصائر -كحالنا اليوم - فليمعن النظر في العبارة الآتية: إنّ "لقراءة هذا الكتاب ودراسته، قواعد وشروطا، لا بدّ من توافرها لمن أراد القيام بهذه الرسالة العلمية، فمضمون الكتاب يحتوي على رموز قرآنية، وإيحاءات معرفية، وألغاز سياسية، واستعارات مجازية، ولا بدّ لمن رام الإقدام على هذه المهمة من التحلي باستعداد فكري خاص، والتسلح بأدوات معرفية معينة، تمكّن من تخطي الصعاب، وكشف أسرار الحجاب"[21]، فيجب على كلّ دارس أن يتحلى بروح علمية صابرة مثابرة لقراءة تراث الشيخ وأن يعمل جاهدا على كشف مكنوناته.

**6- آليات المحاججة عند البشير الإبراهيمي:**

سبق وأن قلنا إن خطابات الشيخ جلها اتسّم بالحجاج، فكان لزاما أن يعتمد على جملة من الآليات التي تحقق هدف الإقناع من خلال الخطاب، وبنظرة فاحصة لخطابات الشيخ نجده قد اعتمد على الآليات الآتية:

**6. 1.الآليات المنطقية:** التي تقوم على خاصية التدعيم، والذي يتحقق بدوره بفضل طبيعة الأدلة التي ساقها الشيخ في خطاباته من أجل المحاججة، ومن تلك الأدلة:

- **الأدلة التاريخية**: ويظهر ذلك في قوله "فكان الأشبه أن أقول: أثر الأزهر في الثورات المصرية؛ لأنّ الأزهر حقيق عليه أن يعلّم الناس الثورات، على الأباطيل في الدين والدنيا، ولأنّ الأزهر ساهم بالفعل في الثورات المتتابعة في مصر على الحاكمين من الأمراء الفاسدين وعلى المتحكمين من المستعمرين الغاصبين، ولعمر الحق إذا لم يكن الأزهر معهدا لتعليم الثورات على الشر، وميدانا لتنظيم الثورات على أهل الشر، فماذا عسى أن يكون"[22] فبيّن الشيخ الدور الريادي للأزهر في قيام الثورات المتعاقبة في مصر ردّا على طمع المستعمر الغاصب أو الحاكم الفاسد.

- **الأدلة اللغوية**: ومن ذلك ما سقاه في بيان دلالة "الاستعمار"، إذ يقول "هوّن عليك فإنّ المظلوم هنا هو هذه الكلمة العربية الجليلة التي ترجموا بها لمعنى خسيس، مادة هذه الكلمة هي العمارة، ومن مشتقاتها التعمير، والعمران وفي القرآن" هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها"، فأصل هذه الكلمة في لغتنا طيب، وفروعها طيبة، ومعناها القرآني أطيب وأطيب، ولا ننكر من استعمالاتها في ألسنة خاصتنا وعامتنا إلاّ العمارة الدرقاوية، ولكن إخراجها من المعنى العربي الطيب إلى المعنى الغربي الخبيث، ظلم لها، فاستحقت الدخول من هذا الباب، والإدراج تحت هذا العنوان، فالذي صيّر هذه الكلمة بغيضة إلى النفوس ثقيلة على الأسماع، مستوخمة من الأذواق، هو معناها الخارجي، وهو معنى مرادف للإثم والبغي والخراب، والظلم والتعدي، والفساد، والنهب والسرقة، والشره، والقسوة، والانتهاك والقتل، والحيوانية... إلى عشرات من مئات هذه الرذائل تفسّرها آثاره وتنجلي عنها وقائعه"[23]، فانظر إلى براعة الشيخ اللغوية، حين حدّد المعنى اللغوي لكلمة الاستعمار واستعمالاتها التي تدلّ على الطيب من الأشياء، ثمّ بينّ أن هذه الكلمة اكتسبت معنى جديدا في إطار ما يعرف بالتطور الدلالي - في نظرنا - وهو الإثم والبغي ... وجميع تلك المعاني التي ذكرها الشيخ أو لم يذكرها.

- **الأدلة الدينية**: ومن ذلك قوله "والقرآنَ القرآنَ، تعاهدوه بالحفظ وأحيوه بالتلاوة، وربوا ألسنتكم على الاستشهاد به في اللغة والقواعد، وعلى الاستشهاد به في الدين والأخلاق، وعلى الاستظهار به في الجدل وعلى الاعتماد عليه في الاعتبار بسنن الله في الكون"[24] فنبّه من

خلال هذا القول على أنّ القرآن محل شواهد متنوعة بتنوع المجالات التي تساق فيها الأدلة، فاللغوي لا مناص له من الاستشهاد به، ومثله الفقيه والمحدّث، والداعية لا محيد له عن الاستدلال به، والمجادل إن أراد الحجة الدامغة فعليه بالقرآن.

- **الأدلة الحسية والمادية:** ويتجلّى ذلك في قوله "إنّ العربي الفاتح لهذا الوطن جاء بالإسلام ومعه العدل، وجاء بالعربية ومعها العلم، فالعدل هو الذي أخضع البربر للعرب ولكنه خضوع الأخوة، لا خضوع القوة وتسليم الاحترام، لا تسليم الاجترام، والعلم هو الذي طوّع البربرية للعربية"[25]، فأثبت الشيخ بالدليل المادي والحسي معا بأن العدل كان سببا في خضوع البربر في الفتوحات الإسلامية، وأن العلم هو من طوّع البربرية للعربية.

- **الأدلة القياسية:** أو ما يعرف بالقياس المنطقي، وقد وظّفه الإبراهيمي بكثرة في خطاباته، ونلتمس ذلك في هذا النص الذي يقول فيه "من قال إن البربر دخلوا في الإسلام طوعا فقد لزمه القول بأنهم قبلوا العربية عقوا، لأنهما شيئان متلازمان حقيقة وواقعا، لا يمكن الفصل بينهما، ومحاول الفصل بينهما كمحاولة الفصل بين الفرقدين، ومن شهد أن البربرية ما زالت قائمة الذات في بعض الجهات فقد شهد للعربية بحسن الجوار وشهد للإسلام بالعدل والإحسان، إذ لو كان الإسلام دين جبرية وتسلّط لمحا البربرية في بعض قرن فإن تسامح ففي قرن"[26] ففي النص قياسان منطقيان، ذكره بإنّ البربر دخلوا طواعية في الإسلام من غير قوة، ونتيجة ذلك أنهم تعربوا وأصبحت لغتهم العربية، والثاني بقايا البربرية في بعض أقطار الجزائر يترتب عنها نتيجة بأن الإسلام دين عدل.

**6. 2.الآليات اللغوية:** وعمادها: الإحالة، والتكرار والازدواج.

- **الإحالة:** وهي كل "العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل، إذ لابدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها"[27]؛ وحدّها أحمد المتوكل بأنّها "علاقة تقوم بين الخطاب وما يحيل عليه الخطاب إن في الواقع أو في المتخيّل أو في خطاب سابق/ لاحق"[28]، وهي كثيرة في خطابات الشيخ، تنوعت بين الإحالة الداخلية والإحالة الخارجية.

من أمثلة الإحالة الداخلية (القبلية والبعدية) في خطابات الشيخ، قوله "من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما يقرأ الكتاب وليدرسها كما يدرس الحقائق العلمية، ... فأزعم

أنني جرّبت ودرست، وأنني قرأت هذه الأمة وفهمتها"[29]، (وهي إحالة قبلية) أراد الشيخ من خلال قوله أن يبين فضل خدمة الأمة وعلى أي وجه يكون، فأشار بلفظ الأمة، ثمّ أحال عليه باللفظ نفسه في سياق الحديث عن خدمة الأمة، وغايته من ذلك تحقيق الربط المنطقي الذي يسهل عرض الأفكار في الخطاب. ومن الإحالة البعدية، قوله "بدأ المعهد في سنته الأولى على خلاف ما تبدأ به مشاريعنا، قويا جيّاشا بالحركة والنشاط، ولكنّه نشاط من جهة واحدة، من المدير والمدرسين"[30]، فأشار الشيخ إلى طبيعة المعهد التي اكتساها بلفظ "على خلاف" وهي إحالة بعدية تفتح لدى المتلقي أفق التأويل كيف ستكون هذه الطبيعة، إلا أن يُذكر لفظ قوي تزول معه التساؤلات وتذهب عن عقل السامع التوهمات.

أمّا الإحالة الخارجية: وهي الإحالة المقامية، ويرى الأزهر الزناد أنّها "إحالة عنصر لغوي إلى عنصر إشاري غير لغوي موجود في المقام الخارجي، كأن يحيل ضمير المتكلم المفرد إلى ذات المتكلم، حيث يرتبط عنصر لغوي إحالي بعنصر غير لغوي هو ذات المتكلم ويمكن أن يشير عنصر لغوي إلى المقام ذاته في تفاصيله، أو مجملا، إذ يمثل كائنا أو مرجعا موجودا مستقلا بنفسه"[31]. ومن ذلك قوله "لا معنى للشمول في القوانين، مالم يصاحبه شمول في التطبيق والتنفيذ، وإذا كان واضع القانون ليس منّا، ومنفذه ليس منّا فمن البلاء تطبيقه علينا"[32]، هي إحالة خارجية تشير إليها عبارة "واضع القانون ليس منّا"، ويقصد المستعمر الفرنسي الغاشم، فأشار إليه وهو خارج النص بعنصر لغوي.

- **التكرار:** وهي خاصية لمسناها في بعض خطابات البشير الإبراهيمي في عيون البصائر وقد تنوع بين التام والجزئي، فمن التام، أن يعيد العبارة بلفظها ومعناها، كعبارة "يا شباب الجزائر هكذا كونوا أو لا تكونوا" التي وردت في مقالة "الشاب الجزائري كما تمثّله لي الخواطر"[33]، أربع مرات، ولم يأت الشيخ على تكرارها فحسب بل أراد أن يلفت انتباه الشباب إلى أمر مهم، وهو ما يجب أن يكونوا عليه، خاصة وأن المستعمر قد بسط هيمنته، واشتد عود الجهل والفقر في الجزائر. أما التكرار الجزئي فيقصد به تكرار اللفظ دون المعنى، وقد وقفنا على نماذج من هذا النوع في خطابات الشيخ، ومن ذلك قوله "وخصّ الله بتحياته المباركة، أولئك الذين زادوا، على التهنئة بالعيد تهنئة العربية بالبصائر، وتهنئة البصائر

بجهادها وبالمكانة التي تبوّأتها في القلوب"[34]، فتكرار لفظ "تهنئة" لا يعني بأن للفظ نفس المعنى، بل تغيّر معناها انطلاقا من السياق.

- **الازدواج:** ويتعلق بالنسج اللغوي لخطابات البشير الإبراهيمي، كأن تتكرر بنية لغوية في خطاب واحد، من نحو قوله: عيد: لو عدت على قومي بالخفض والدعة، أو جدت عليه باليسر والسعة، لوجدت مني اللسان الخافق بذكرك، والقلم الدافق بشكرك، ولكنك عدت عليه بنهار كاسف الشمس ويوم شرّ من أمس"[35].

**7.خاتمة:**

- امتازت خطابات الشيخ البشير الإبراهيمي، بلغة تراثية راقية، وأسلوب سلس، أكسبها ذلك أبعادا حجاجية، كانت الغاية منها تحقيق الإقناع لدى المتلقي، الذي تنوع داخل خطاباته (الشعب الجزائري، المستعمر، الحكام، العرب،... وغيرهم)، وقد استخدم خلالها الشيخ آليات متنوعة لذلك الغرض.
- جاءت خطابات محمد البشير الإبراهيمي متنوعة عالج في كلّ منها قضايا دينية أو اجتماعية أو سياسية، أو ثقافية، أو تعليمية، وأعمل خلالها حجاجا لغويا ومنطقيا، بحسب ما يقتضيه الخطاب.
- اكتست خطابات الشيخ البشير الإبراهيمي طابعا حجاجيا، بفضل تضمنها للمكونات الحجاجية التي أقرها الدارسون المحدثون.

**8.قائمة المصادر والمراجع**

- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى، 1997.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1954- 1962)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2007.
- صالح بلعيد، محاضرات في التربويات والإسلاميات، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، 2015.

- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1998.
- عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009.

**المجلات:**

- محمد العبد، النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع، مجلة فصول، الهيئة المصرية للكتاب، 2002، العدد 60.

**الهوامش :**

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ج3 عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى، 1997، ص05.

[2] محاضرات في التربويات والإسلاميات، صالح بلعيد، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، 2015، ص182.

[3] ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي (1954– 1962)، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ج10، ص197.

[4] ينظر : عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009، ص37.

[5] النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع، محمد العبد، مجلة فصول، الهيئة المصرية للكتاب، 2002، العدد 60، ص44.

[6] اللسان والميزان، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1998، ص221.

[7] اللسان والميزان، طه عبد الرحمان، ص213.

[8] ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، عيون البصائر، ص48.

[9] المصدر نفسه، ص288.

[10] المصدر نفسه، ص266.

[11] المصدر نفسه، ص281.

[12] المصدر نفسه، ص288.

[13] المصدر نفسه، ص293.

[14] المصدر نفسه، ص297.

[15] المصدر نفسه، ص308.

[16] المصدر نفسه، ص333.

[17] المصدر نفسه، ص370.

[18] المصدر نفسه، ص422.

[19] المصدر نفسه، ص435.

[20] المصدر نفسه، ص490.

[21] المصدر نفسه، ص06.

[22] المصدر نفسه، ص499.

[23] المصدر نفسه، ص506.

[24] المصدر نفسه، ص204.

[25] المصدر نفسه، ص207.

[26] المصدر نفسه، ص207/206.

[27] المصدر نفسه، ص209.

[28] المصدر نفسه، ص213.

[29] المصدر نفسه، ص220.

[30] المصدر نفسه، ص509.

[31] المصدر نفسه، ص489.

[32] المصدر نفسه، ص480.

[33] المصدر نفسه، ص509.

[34] المصدر نفسه، ص489.

[35] المصدر نفسه، ص480.

# الشيخ البشير الإبراهيمي وضوابط البحث العلمي (قراءة في رسالة الضبّ)

# Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi and Scientific Research Controls (Reading in Al-Dhab's Message)

**د.العيد علاّوي، laid Allaoui**

المركز الجامعي نور البشير البيض University Center Nour Al-Bashir El-Bayadh

إيميل الباحث:atoufik841@gmail.com

**ملخص:**

تنطلق هذه الدراسة من الإشكالية التي يعانيها بعض الباحثين في التعامل مع النصوص ومعالجة القضايا البحثية، الأمر الذي يستوجب منهجا صارما أو ضوابط منهجية للوصول إلى نتائج دقيقة ومحمودة.

وعليه، فقد حاولتِ الدراسة الإجابة على سؤال مفاده: ما الذي يمكن أن يستفيده الباحث العلمي من رسالة الضبّ من حيث المنهج؟

وقد خلصتِ إلى جملة من النتائج ترجع في جملتها إلى أن رسالة الضبّ أشارت تصريحا أو تلميحا إلى صفات الباحث والكفاءات (اللغوية، المعرفية، المنطقية، التخاطبية) التي ينبغي أن يتسلح بها لإنجاز بحث رصين وفعل قرائي متميز.

**كلمات مفتاحية:** الضابط، البحث، القراءة، النصوص، المنهج، الكفاءة، رسالة الضبّ، البشير الابراهيمي.

**Abstract:**

The present study examines the problems experienced by some researchers in dealing with texts and addressing research issues, which requires a strict approach or systematic controls to reach accurate and consistent results.

Therefore, the study has attempted to answer the following question: What could the scientific researcher benefit from Al-Dhab's Message in terms of approach?

This study concluded with a series of findings that, in its entirety, indicate that Al-Dhab's Message has referred in a statement or an allusion to the researcher's qualities and competencies (linguistic, cognitive, logical and conversational), that he should be able to perform a sober research and a distinct reading act.

**Keywords:** controller. Research.reading. text. Approach. Competency. Al-Dhab's Message. Al-Bashir Al-Ibrahimi.

**1. مقدمة: (تأسيس الدراسة ومنطلقاتها)**

اقتضى تحديد المراد بـ (الضوابط/ ج. ضابط) وبيان السمات الأخرى التي ميّزت هذه الرسالة الانطلاق من مُؤَلَفين:

أحدهما للعالم المغربي فريد الأنصاري رحمه الله( أبجديات البحث في العلوم الشرعية –محاولة في التأصيل المنهجي-)، والآخر للدكتورة الجزائرية آمنة بلعى (أسئلة المنهجية العلمية في اللغة والأدب).

فالأول من بين ما جاء فيه الحديث عن علمية البحث في العلوم الشرعية؛ ببيان المراد بالضابط الذي **"هو محدد جوهري، بموجبه يتحدد جزء من جوهر البحث أو طبيعته"** [i]

فالضوابط: مجموعة من المحددات التي باجتماعها تتجلى حقيقة (الإشكال) العلمي، وطبيعته، وحدوده الجوهرية؛[)]

(2

وحصر فريد الأنصاري رحمه الله تلك الضوابط في: [3] الضابط التعبدي، الضابط الإشكالي، الضابط الشمولي، ضابط الأولويات العلمية أو مراحل المشروع التراثي، ضابط الواقعية، الضابط المنهجي.

وبما أن الرجل كان مهتما بالمصطلحية، فقد بيّن المراد من كل ضابط،[4] وموجز ذلك أن **الضابط التعبدي** هو الشعور الذي يحمل الباحث على إنجاز بحثه قصد التعبد وابتغاء مرضاة الله، بحيث يُرجى من هذا الشعور أن تتجلى آثاره على العمل إتقانا إحسانا وأمانة في النقل...، ويُراد **بالضابط الشمولي** تأسيس البحث على إشكال جزئي في إطار إشكال كلي؛ أي تأطيره ضمن رؤية شمولية لمشروع علمي يشمل عدة بحوث جزئية يقوم بها فرد واحد أو مجموعة من الأفراد، وقد يستغرق وقتا طويلا، ويقصد **بالضابط الإشكالي** اجتماع جملة من العوائق المعرفية تحول دون الوصول إلى حقيقة أو حقائق ما، واجتماعها في نسق واحد هو (الإشكال العلمي)، أما الضابط المنهجي، فمعناه سير البحث(بناؤه) على نسق من القواعد، وقصد **بضابط الأولويات العلمية** مراعاة مراحل البحث (التحقيق أولا ثم التفسير ثانيا والتركيب أخيرا)، و**بضابط الواقعية** تتحقق علمية الإنجاز والاستنتاج، فالمقصود بالواقعية إمكانية الإنجاز في زمن معلوم على الوجه الأكمل بحصر الإشكال بحدود معينة تمنع عنه الإنشائية والهلهلة...

وعطفا على ما تقدم، فكتاب الدكتورة آمنة بلعلى -المُشار إليه سلفا- يعد منطلقا آخر لهذه الدراسة من حيث إنه في أحد مباحثه( قراءة النصوص) يوجه الباحث إلى أن القراءة العلمية أو بالأحرى الفعل القرائي العلمي لا يتحقق إلا بتوفر شروط قاعدية لدى الباحث وهي:[5]الكفاءة اللغوية، والكفاءة المعرفية، والكفاءة المنطقية، والكفاءة التخاطبية.

ويظهر لي أن الشيخ البشير الإبراهيمي من خلال رسالة الضبّ يوجه القراء والباحثين- تصريحا أو تلميحا- إلى هذه الكفاءات، وهذا ما تحاول الدراسة تتبعه إن شاء الله.

**2. بنية الخطاب/الرسالة:**

المراد من هذا المبحث(بنية الخطاب) بيان شكل الرسالة(هيكلها/ معمارها) الذي يمكن أن يسجله القارئ من أول قراءة، وبعبارة أخرى بيان الملامح العامة التي تتسم بها هذه الرسالة.

فقد استهل الكاتب نصه بالبسملة مبيّنا المرسل إليه ودافع الرسالة، وختم رسالته باعتذار ورجاء، ومما تواتر ذكره حتى صار ظاهرة أو ملمحا بارزا (عدم استنكاف الكاتب من استحضار المعلومة).

وتجدر الإشارة إلى أن أجزاء ذلك الشكل أو المعمار محمّلة بجملة من المضمرات يقتضي الفعل القرائي الوقوف عند ها وبيانها.

**1.2 الاستهلال:**

افتتح الشيخ البشير الإبراهيمي رسالته بالبسملة امتثالا واقتداء، واستنزالا للبركة[6] والرحمة والفتح، - وتواضعا وانكسارا.

فالأولون اعتقدوا أن كل عمل لم يصدر بالبسملة، وإن اكتمل حسا إلا أنه لم يكتمل معنى، ممتثلين إلى قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم((**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بباسم الله الرحمن الرحيم أقطع**)) [7]

واستفاد بعضهم منها الالتزام بالتواضع والانكسار، قال الشاعر: [8]

| | |
|---|---|
| تَواضَعْ إذا رُمتَ التّقدُّمَ وانكسرْ | فرَبُّك جلّ عند منكسرِ القَلْبِ |
| فَكسرةَ بِسمِ الله للباء أوجبتْ | له رتبةَ التصدير في أولِ الكتبِ |

ولا يخفى على الباحثين أن التواضع من الصفات المطلوبة في الباحث وأن الفتح والزيادة والرفعة متوقفة على تحققه.

**2.2 الرسالة وأطراف العملية التواصلية:**

أمَا وقد عُلِم من العنوان أن النص رسالة، فالمرسل(الشيخ البشير الإبراهيمي/ الكاتب) معلوم، وقد اقتضاه المنهج أن يبين المرسل إليه( المخصوص بالرسالة) خلال تلك اللحظة، إلا أن كل قارئ لها بعد ذلك مخصوص بها؛ لما تحويه من معارف مختلفة، فالمرسل إليه زمن الخطاب تلميذه الأستاذ أحمد بن أبي زيد قصيبة من مدينة الأغواط.

**3.2 دافع الرسالة/ دافع البحث:**

اهتم القدماء ببيان دافع تأليف أي عمل ما، حتى أن **محمد خير رمضان يوسف** تتبع دوافع البحث والتأليف عند المسلمين فوجدها تزيد على الأربعين،[9] ولقد ذكر الإبراهيمي في مطلع رسالته الدافع الذي حمله على كتابتها، وهو إهداء تلميذه الأستاذ أحمد قصيبة ضبا وورلا محنطين بالنخالة لأحمد ابن الشيخ الإبراهيمي، فجاءت الرسالة عبارة عن عتاب لطيف.[10]

وما من شك أن دواعي أو أسباب البحث العلمي من أبجديات البحث العلمي، وهي ركن أساس من أركان مقدمة البحث التي ينبغي للباحث الإفصاح عنها.

**4.2 عدم استنكاف الكاتب من استحضار المعلومة دليل تواضع:**

يسجل القارئ للرسالة أن الكاتب لا يستنكف ولا يجد عيبا في عدم استحضاره بعض الشواهد، ولعل إفصاحه عن ذلك دليل تواضع من جهة، ومن جهة أخرى يدل على

الاضطراب النفسي وحالة التشتت التي كان يعيشها، ومن آثار ذلك أنْ يؤدي إلى نسيان العلم أو نقصانه، وفيما يلي تلك المواضع التي أقرّ فيها بعدم تذكر المعلومة أو الشاهد:

قوله: "... وفي مقصورة ابن دريد بيت مختومة بضبّ الكدى، ولا أذكرها الآن، وليس عندي ما أراجعها فيه..." (11)

وقوله:"...فكتب له المعري جواب الإهداء رسالة من أبدع رسائله، وفيها نقد لكتاب ابن السكيت على طريقة المعري الغريبة في سخريته العجيبة. يقول فيها إن لم تَخُنّي الذاكرة." (12)

وقوله: "وهذه الرسالة مطبوعة مصححة فيما طبع((كامل الكيلاني))مع رسالة الغفران، فإن كانت عندك فراجعها، فلعل الحافظة لم تضبط ألفاظها..." (13)

وكذا قوله: "... وفي شعر أمية بن أبي الصلت المتأله بيت في تقرير هذا المعنى، ولم أتذكر الآن ألفاظ هذا البيت..." (14)

وقوله: "وقال شاعر آخر وأظنّه إسلامي يتعارب، ولست أتذكّر اسمه الآن..." (15)

وإقراره في الختام أن حافظته"مختلة نسيت أكثر ما وعت، وضيّعت أكثر مما استودعت..." (16)

**5.2 اعتذار ورجاء في ختام الرسالة:**

سار الكاتب في ختام رسالته على نهج بعض المتقدّمين، فوجّه اعتذاره إلى كلّ مطّلع وجد قصورا في الرسالة؛ معللا ذلك بأنه أملاها في ليلة، راجيا أن تكون الرسالة تذكرة بالحال الذي كُتِبت فيه والبلدة التي صدرت عنها والزمان الذي أُنشئت فيه؟

وسيتم عرض السمات الأخرى التي ميّزت هذه الرسالة في متن هذه الدراسة، ومن تلك السمات الدعوة (تصريحا أو تلميحا) إلى الكفاءة التواصلية، الكفاءة المعرفية، الكفاءة الحجاجية...

**3. رسالة الضبّ ومفاهيم حول البحث وصفات الباحث:**

يعالج هذا المبحث المفاهيم البحثية المستفادة من رسالة الضبّ، ومنها أن البحث تتبع وتنقيب، وأن الإبداع فيه(البحث) نتاج الحرية، وأن الابتعاد عنه متاهة، والانقطاع عنه علة، ومن بين ما جاء في الرسالة من الأخلاق المطلوبة من الباحث: الخوف والاحتياط، الصبر، البِرّ، الابتعاد عن التقليد قدر الإمكان، الاستمرارية، الابتعاد عن الإقصاء...

**1.3 البحث حفر ونقر وتنقيب والاحتياط والخوف فيه مطلوبان:**

دلّنا القرآن الكريم على أن ابن آدم من قبل أفاد من الغراب،(17) ومن هاهنا يمكن القول إنه لا ضير أن يستفيد الباحث من الكبير والصغير، من العالم والأمي، من الرجال والنساء، من البشر والحيوان وسائر الكائنات.

والمستفاد من الرسالة أن من بين الخصائص المأثورة عن الضبّ أنه معروف بالخوف والاحتياط، فقد جاء في رسالة الضبّ ما يدل على أن الضبّ يحتاط فيحفر جحره في الكُدى(الصلب من الأرض المتماسك التراب) أو الوجين(الأرض الصلبة الغليظة)، وتصفه العرب بـ( ضب دامي الأظافير) [18]

قال الشاعر:

| | |
|---|---|
| ويحفر في الكدى خوف انهيار | ويجعل بيته رأس الوجين |

وقال آخر:

| | |
|---|---|
| ترى الشر قد أفنى دوائر وجهه | كضب الكُدى أفنى أناملَه الحفرُ |

**2.3 الباحث خبير ببحثه ومسؤول على هندسته:**

عطفا على ما تقدم من أن الضبّ معروف بالخوف والاحتياط اللذين يحملانه على حسن اختيار مكان بيته( جحره) بخبرة وتحمل المسؤولية في هندسته، فقد أورد الكاتب قول الشاعر: [19]

| | |
|---|---|
| سقى الله أرضا يعلم أنها | بعيد عن الأدواء طيّبة البقل |
| بنى بيته فيه على رأس كدية | وكل امرئ في حرفة العيش ذو عقل |

وعلّق الكاتب عليه مبينا أن الشاعر وصف الأرض التي اختارها الضبّ لسكناه، وأن الضبّ - وهو الاختصاصي في هذه الهندسة- كأنه يعلم أنها بعيدة عن الآفات، وأكبر الآفات في نظر الضبّ السقوط والانهيار والخراب. [20]

وجدير بالباحث أن يختار موضوع بحثه بوعي وتبصر، ويحمل عنه تصور من البداية إلى النهاية، ويعلم أنه مسؤول عنه من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة التكميلية [21]، فلا يقبل منه بأي حال من الأحوال أن يعلّق عجزه أو قصوره على المشرف أو غيره، ويفترض منه يوم المناقشة أن يكون على علم بجزئياته.

**3.3 انعدام الحفظ والبحث قبح:**

لقد حرص المتقدمون على الحفظ والبحث واعتبروا ذلك أساسا من أسس تحصيل العلم، فكانوا أوعية للعلم ونال كثير منهم لقب((الحافظ))، وعُدّ اللقب درجة تميز صاحبها عن غيره. وبالمقابل عُدّ عدم الحفظ أو الاضطراب فيه أساسا من أسس الاحتراز من الناقل أو الراوي.

وصرح الكاتب في هذه الرسالة عند ذكره لبعض الأمثال العربية أن عدم حفظها من قبل المتأدبين من الناشئة قبح **"وهذا باب واسع في أمثالهم يقبح بالمتأدبين من ناشئتنا ألا يجعلوا له حظا من حفظهم وبحثهم"** [22]

و ينبغي لنا أن ننتبه إلى أن تمام الحفظ يكون بالفهم، ولقد أشـــار غير واحد إلى هذا المعنى، قال الشاعر: [23]

| | |
|---|---|
| وَاعْتَنْ بأن تفهم كل مسألة | حفظتها فذاك وصف الكَملَهْ |
| فالحفظ للعلم بدون الفهم | ككتب فوق الحمير البُهْم |

ويؤكّد هذا هذا قول الشاعر: [24]

| | |
|---|---|
| زوامل للأشعار لا علم عندهم | بعلمها إلا كعلم الأباعر |
| لعمرك ما يدري البعير إذا غدا | بأوساقه أو راح ما في الغرائر |

وكذا قول الشاعر:

| | |
|---|---|
| كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ | والماء فوق ظهورها محمول |

**4.3 دوافع الكتابة(هم أو غم):**

سبقت الإشارة في الحديث عن بنية الرسالة إلى دافع كتابتها، وبيّن أهمية هذا الأساس باعتباره ركنا من أركان مقدمة المقدمة أو خطبة الكتاب، وقد جاء في متن رســالة الضــبّ أن دافع الكتابة قد يكون همّا أو غمّا، قال الكاتب"...**ولكن المثال البارد الفج الصــامط الذي لا يثير في النفس اهتماما بل يثير فيها اغتماما هو المثال الذي تعلّمناه من كتب النحو، وهو قولهم: هذا جحر ضبّ خرب...**" [25]

**5.3 الصبر للباحث:**

يُستفاد من قول الكاتب " **وكم في كلام الفارغين من تسلية للهم وتزجية للوقت وترويح للخواطر المكدودة بشرط أن يكون للسامع موفور الحظ من الصبر**" [26]أن الباحث عليه أن يتحلى بالصبر أمام مشقة البحث ويجعله ديدنا له في سائر الأحوال.

**6.3 رفض التقليد في السفاسف:**

أنكر الكاتب في سياق مناقشته لبعض العادات المأثورة التقليد في السفاسف بقوله: "**فإني ما رأيت أصلح لمعدتي من الجمع بين السمك واللبن والفضل لهذه الطبيعة التي لا تقلد في السفاسف**".[27]

ويُفهم من مفهوم المخالفة(المسكوت عنه) أنه لا عيب في تقليد المفيد والعظيم من الأمور والمحمود من الخصال.

**7.3 الإبداع نتاج الحرية و التدجين نتاج التقييد:**

تطلعنا التجارب والواقع أن الإبداع غالبا ما يكون نتاج الحرية، وبالمقابل يتولّد التدجين من التقييد والضــغط والإكراه، فلا يُتَصــورُ أن ينتظر من الباحث إبداع إذا حُدّت حركته وضُــيّق عليه،فأي باحث كان شــأنه كذلك تراجعت ملكاته، وهذا ما يُســتفادُ من قول الكاتب

**"وليس لأمة من الأمم ما لهم في وصف الحيوانات الضارية، وأن أمم الحضارة على وفرة أدواتها لم تدرس الضواري إلا بعد أن دجّنتها، وفاتهم أن التدجين يذهب بكثير من الخصائص الطبيعية لها فيفوت بذلك على الدارس كثير من النتائج، واعتبر ذلك بتدجيننا -ونحن بشر- كيف اغتال خصائصنا ومقوماتنا، ومسخ معنوياتنا حتى أصبحنا أحط من بعض أنواع الحيوان"** [28]

**8.3 الباحث والعقوق:**

لا شك أن الاستقلالية صفة من الصفات المطلوب تحققها في الباحث وهي أن **" يتحرر نسبيا من التبعية لأشخاص آخرين في الحياة العملية واليومية في مجالات الفكر والسلوك والمواقف"**،[29] وتدل كلمة هاهنا **"نسبيا"** على أن الاستقلالية لا تعني التنكر لجهود أهل الفضل كالأستاذ المشرف، ولا تعني الإعراض عن الأفكار النيّرة فـ**"لا قداسة لفكر بشر ولا تجاوز له إلا بدليل"**،[30] فمن البِرّ احترام الأستاذ المشرف ونظرائه من أهل العلم وإكرامهم والاختلاف معهم بأدب.

والذي جعلنا نستذكر هذه ونذكرها ما ساقه الكاتب عن الضبّ الذي تضرب العرب المثل في العقوق بالضب، فيقال: ((أعق من ضبّ)) ويفسرون عقوقه بأنه يأكل حُسُوله... [31]

وإننا لنستغرب ممن يأكل من فوقه ومن دونه، فلا يحترم عالما ولا يرحم متعلما، وبمثل هذا تضيع قيم الأمة وأخلاقها وتُحْرم من طرق باب الحضارة والتقدم.

**9.3 الابتعاد عن البحث متاهة:**

إذا كانت العرب تضرب المثل بالضبّ في الحيرة فيقولون : ((أحير من ضبّ))، ويزعمون –وهم أعرف الناس به- أنه إذا ابتعد عن جحره خبل ولم يهتد إليه على خلاف المعهود...، [32] فيمكن القول إن المستشفّ من الواقع والتجربة أن الباحث يصعب عليه الرجوع إلى بحثه إذا ابتعد عنه، وعليه، فمطلوب منه تعهده بتخصيص وقت له، فلا يهم أن يكون ذلك الوقت قصيرا، وإنما المهم دوامه.

**10.3البحث أبدا:**

إذا كان "الابتعاد عن البحث متاهة" –كما تقدّم- فلا يليق بالباحث أيضا أن ينقطع عن البحث باجتياز مرحلة ما أو الحصول على رتبة، بل عليه أن يكون باحثا على الدوام، وليكن شعاره"**لا أنقطع عن البحث سن الحسل**"، وهذا أمر مستفاد من رسالة الضبّ التي جاء فيها "**أن العرب تقول: "لا آتيك سنّ الحسل يعنون التأبيد إذ يزعمون أن الحسل لا تسقط له سن**"، [33] ويذكرنا ذلك بقول أحد رجال السلف الذي وصف حاله مع التأليف بقوله"**مع المحبرة إلى المقبرة**".

**11.3 انعقاد الألفة بين البحثة:**

لعل هذا العنصر يرتبط بالعنصر السابق **(الباحث والعقوق)**، فالمنتظر أن تكون الألفة قائمة بين الباحثين، يرجع بعضهم إلى بعض في حل المسائل والاستفتاء، ويساعد بعضهم بعضا في تذليل صعوبات البحث، ويذكر الواحد منهم الآخر بما عنده وما فيه من خير، ويتجاوز بعضهم عن عثرات بعض بسد الخلل.

والمتأمل لرسالة الضبّ يستشف هذا المعنى من العلاقة التي كانت بين الوزير المغربي والمعري، فلقد ذكر الكاتب **"أن المؤرخين عجزوا على أن يحللوا سيرته تحليلا صحيحا، ولم يرو التاريخ عنه إلا أنه مغربي، كان أبوه من رجال الدولة الفاطمية ومن دعائمها وخواصها،...كان شعلة ذكاء وحفظ للآداب وأصناف المعارف، واجتمع بالمعري وهو صغير في حلب، فانعقدت بينهما ألفة متينة تُستشف مما تراسلا به بعد الفراق، وحسبك شهادة المعري دليلا على مكانته في العلم والأدب..."** (34)

**12.3الإقصاء ليس من أخلاق الباحث:**

إذا جاز لنا القول إن أي أمة تقف بالبحث(ودوامه) على باب الحضارة وتدخل عالمها بجملة من الأخلاق منها: نبذ الإقصاء والابتعاد عنه، ويُوقف على هذا في رسالة الضبّ من خلال قول الكاتب**"ولا نشترط على التاريخ أن يأتينا بأمة أمية من أممه يطاول بها أمة العرب في هذا الباب[باب الوصف]، بل نتنازل وندعوه لأن يأتينا بأمة من أمم الحضارة تستطيع أن تقف بجانب العرب في هذا الميدان"** (35)

فالتنازل سلوك حضاري عزّ في زماننا، ولذلك كَثُر التقاتل والتدابر والشقاق...، فلم تسلم منابر العلم والباحث والمعرفة من النزاع والصراع، مما يدل على غياب التجرد وسيطرة الأهواء ...

**4. رسالة الضبّ ومفاهيم حول المنهج( الضابط المنهجي):**

الغرض من هذا المبحث تتبع المفاهيم المتعلقة بالمنهج التي جاء ذكرها أو الإشارة إليها في الرسالة، ومن ذلك: دراسة الأشياء على المناهج العلمية، النقل المباشر وغير المباشر، الملاحظة والتأمل، دراسة الظاهر والباطن، مكانة السؤال والوصف والمقارنة والتجربة والمناقشة في الدراسة العلمية...

**1.4 العلم ودراسة الأشياء على المناهج العلمية:**

المعهود في الأوساط العلمية أن دراسة المسائل والإشكاليات بعلمية ووفق المناهج العلمية يمكّن من الوصول إلى نتائج دقيقة مما يمكنها من أن تكون مقبولة.

ولقد أكّد صاحب رسالة الضبّ على هذا المعنى فذهب إلى أن العربي **"لو لم يكن أميا وكان ممن يدرس الأشياء على المناهج العلمية، لأتى بالمعجزات"** (36)

**2.4 النقل بالمباشرة أو بالواسطة:**

إن الاقتباس في البحث العلمي عملية لها ضوابطها، ولقد تحدثت كتب المنهجية بما يُغني، ومن أجل التأكيد على أهمية هذه العملية وضرورة الالتزام بضوابطها وقفت على تلك الإشارة العابرة للكاتب، وهي قوله: **"...لولا سلوة بتلك الشذرات التي ينقلها أصحاب المعاجم مباشرة أو بواسطة"** (37)

**3.4 الملاحظة والتأمل:**

إن الملاحظة والتأمل مطلوبان من الباحث والقارئ على حد سواء، فالقارئ ينبغي له أن يجلس إلى نصه مرات عديدة، بحيث تقوده القراءة الثانية إلى ما لم ينتبه له في القراءة الأولى، ومثل هذا يقال مع القراءة الثالثة والرابعة...، فبالملاحظة والتأمل ينفذ الباحث إلى أعماق المدروس/المقروء.

ومما يُحِيل إلى هذا المعنى من رسالة الضبّ قول الكاتب: **"...ووضعت الضبّ أمامي وتأملت خلقته مرات في أيام...لقد أذكرني ضبّكم بما كنت أحفظه عما قيل في الضبّ وعلى لسانه..."** (38)

ويأتي هذا القول ليؤكّد القاعدة التي تبين أن **"من شاهد ليس كمن سمع"**، فالملاحظة والتأمل قائدا التحقيق، ودليلا تصديق الأخبار وسبيلا بلوغ الوصف.

**4.4 دراسة الظاهر والباطن:**

إن الدراسات الجادة والجيدة هي التي لا تكتفي بدراسة الظاهر بل تتعداه إلى الباطن، فالظاهر بإمكان أي باحث مهما كان مستواه أن يقف عليه، في حين تقتضي دراسة الباطن والنفاذ إليه عدة معرفية وجملة من الأدوات الإجرائية.

ولقد عبّر العلامة ابن خلدون عن التطور الذي عرفته الدراسة التاريخية يوم أنْ أدرك أنّ للتاريخ ظاهرا وباطنا،(39) وأن دراسة الباطن تتعدى سرد الأحداث إلى النظر فيها، وعُدّ هذا الأمر منطلقا لما صار يعرف بعد ذلك بـ"فلسفة التاريخ".

وتتجلى أهمية دراسة الظاهر والباطن عند صاحب رسالة الضبّ من خلال قوله:" **فقد كان هذا الحيوان[الضبّ] محظوظا عند العرب دون كثير من الحيوانات الجزرية فدرسوا ظاهره وباطنه، وعرفوا طباعه فأكثروا فيه القول حتى بلغ هيامهم به...**" (40)

ويُفهم من قوله أن دراسة( الظاهر والباطن) سبيل المعرفة، والقول أو الوصف نتاج الدراسة والمعرفة(تدرس فتعرف فتقول/تصف).

**5.4 الصحراء باب الفلسفة:**

إن الحديث عن الصحراء يطول، فقد اختصت دراسات ومخابر بدراسة هذا الفضاء، وتحدث بعض المبدعين عن تجربته مع الصحراء، ومن تلك التجارب التي سمعتها " تجربة إبراهيم الكوني"، ولقد ضمّن صاحب رسالة الضبّ وجهة نظره بشأن الصحراء منها: (41)

-أن الصحراء ليس خاصة بالعرب، بل هي آية من آيات الله في أرضه، أوهي باب الفلسفة، عمرها الله بأمة تشربت معانيها، وتغلغلت في دقائقها، ولاءمت روحُها روحَها مثل الأمة العربية؛

- وبالصحراء جاشت نفوس العرب وتفتقت قرائحهم عن روائع الفلسفة الوصفية للصحراء وأرضها وسمائها وليلها ونهارها وأغوارها...

والذي يُفهم من هذا أن فلسفة الوصف نتاج البيئة الصحراوية التي تحمل على التأمل والامتداد في التفكّر والتفكير والتوسع والتصوير في العبارة. وقد يكون من الطريف تشبيه الإقبال على النصوص(تحليلا، تأويلا...) بالإقبال على الصحراء من حيث المتعة والخطورة.

**6.4 السؤال طارق باب النجاح:**

يحظى السؤال بمكانة كبرى في التراث العربي والإسلامي، فمن الأقوال المأثورة أن **"السؤال شفاء العي"**، ولقد بلغ الاهتمام به إلى وضع آداب له. فإلى جانب العملية التعليمية، أشاد كثير من الدارسين بأهمية السؤال في العملية البحثية أو القرائية، ومما يُسجَل أن بعض الطلبة لا يميزون بين السؤال والإشكالية.

ومما يبرز فائدة السؤال وفاعليته من رسالة الضبّ ما يلي:

ذكر الكاتب بعد إيراده حديث عرض الضبّ على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يُوفق إلى سؤال أهل مكة عنه في زمننا هذا، ولو سأل لكان زيادة في العلم واليقين، لأن الحديث ظني، وإن تعددت طرقه واشتهر بإخراج الصحاح له. (42)

ولمعرفة الصحراء والأمة العربية، جاء في رسالة الضبّ: وسل التاريخ ينبئك، فهو لم يعرف أمة خلعت عنها الصحراء فطرتها وأفرغت عليها إفراغا سابغا غير الأمة العربية.(43)

وظاهر من صورة(مسألة التاريخ) مدراسة الأخبار والمصادر والنظر فيها، فكأنه سؤال لنقلتها(الأخبار) ومؤلفيها(المصادر).

**7.4 الوصف والمقارنة(المقارنة تكشف السر):**

نوّه الكاتب بروائع الفلسفة الوصفية للصحراء عند العرب، ومنها وصفهم للنجوم وظلمة الليل، وضمّن حديثه بعض القواعد المتعلقة بالوصف:

-**المقارنة تكشف السر**، يبرز هذا قوله: **"وانظر إلى أوصافهم البديعة لظلمة الليل وروعته وأثرها في نفوسهم، وقارن ذلك بوصفهم للنجوم ينكشف لك السر من تلك النفوس وارتباطها بكونها وامتزاجها به..."** (44)

-**صدق الوصف من المخالطة والمعايشة والتمثل(الملابسة)**، ويتجلى هذا في قوله: **"وأما العرب فخالطوا الضواري في أغيالها...ومنهم من عايش الضواري حتى ألفها وألفته وجمع بينهما عالم كعالم المثال عند الصوفية، فلطفت في السباع سورة السبعية وامتدت في العربي الميزة الحيوانية، وتقاربت الغرائز في الجو الحيواني الوسط فصدق الوصف وحق التصوير"** (45)

وقوله: " **وإذا أردت أن تفهم بعض السر في خصيصة العرب في الوصف، فاعلم أن الصحراء لبستهم –ولبسوها- حتى أصبحت حياتهم جزءًا منها فأورثتهم ملكة التأمل، ولو سميناها ملكة الحواس لكان هذا هو الصحيح، ومنها جاءتهم دقة الحس ولطافة الشعور وصدق التصوير"** (46)

**8.4 المناقشة:**

كشفت رسالة الضبّ عن الروح النقدية العالية للكاتب، فلا تراه يعرض رأيا إلا ويتبعه بالمناقشة بإعمال فكر وبعد نظر، ومن تلك القضايا التي ناقشها ما يلي:

-اللغة والعلم (اللغة غير قاصرة)؛

-حديث عرض الضبّ على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛وعدّه ظنيا وإن تعددت طرقه واشتهاره بإخراج الصحاح له؛

-المثال النحوي(هذا جحر ضب خرب)، وذهب إلى أنه مثال مصنوع، وحكم على فساده إعرابا ومعنى؛ (47)

-وناقش قولهم ((لا تأكل السمك وتشرب اللبن)) الذي أصبح قاعدة طبية، مبيّنا أنّه ما هو من الطب ولا قاله طبيب ولا هو بصحيح في الواقع والتجربة... (48)

-وناقش أيضا زعم العرب في أن الضبّ أول من دلّ على نفسه،(49) وسيأتي الحديث عن هذا في موضع الحديث عن مكانة التجربة.

والمستفاد، وعطفا على ما تقدم، من أنه**"لا قداسة لفكر(قول) بشر ولا تجاوز له إلى بدليل"**، فبهذا المنطق يتوجّب على الباحث أن يُعمل النظر في الأقوال معتمدا على الواقع والتجربة وغيرهما من الأدوات.

**9.4 التجربة:**

إن التجربة كما بيّنا من الأمور المحَكّمة في النظر في الأقوال، والمفيد هاهنا أن الكاتب ناقش مزاعم العرب في الضبّ أنه أول من دل على نفسه**"لو أنك ذقت الكُشى ( شحمة**

**مســتطيلة في الضــبّ) بالأكباد ..لما تركت الضــبّ يعدو بالواد"** ، مبرزا أهمية التجربة في الإقبال على أمر أو الانصراف عنه، قائلا:

**"...الرؤيـة بـالعين تسـبق الـذوق بـاللسـان وتبيّن الطعم واللـذاذة، فتلـك الألوان والأشـكال [في الفواكه] هي دعايات تسـتهوي من فيه قابلية الأكل وتدعوه إلى التجربة، فإذا تمت التجربة صـارت عادةً في العقلاء وغريزة فيمن سـواهم، ولولا هذه الدعاوى المسـتهوية في الألوان والتهاويل لما أقدم عـاقل ولا غيره على تجربة شـيء لم يعرفه لاحتمال أن يكون فيه داؤه لا غذاؤه..."** (50)

**"...ولاشـك أن الآكل الأول لضـب ما أكله إلا بعد أن اسـتهواه شـيء فيه من سـماته الظاهرة كالكشية، وكم لله من سر خفي !"** (51)

**"...ومـا دمنـا لم نجرب ولم نـدرس دراســة اســتقراء.فلنقـل مـا قـالتـه العرب إنهـا خصوصية أو فضيلة، ومن أحب شيئا نحله ما شاء من الكمالات"** (52)

**10.4رسالة الضبّ و التوجيه إلى الكفاءة التواصلية:**

ضـمّن الكاتب خطابه/ رسـالته جملة من العبارات التي توجّه الباحث إلى أهمية الكفاءة التخاطبية، فافتتح رسـالته بعد البسـملة بعبارات تربط حبل الودّ بين المرسـل والمرسـل إليه، وتوجّه القراء إلى نهج السلوك قائلا: **"حضرة الفيلسوف ولدنا الأستاذ أحمد بن أبي قصيبة حفظه الله"** (53)

فمخاطبته له **بالفيلســوف والأســتاذ** تدل على معرفته به، وتُفهَم أيضـا على أنها تزكية وتحفيز له، ويدل على المعنى الأول قول الكاتب**"ومازلت أنعتكم في رسـائلي بالفيلسـوف تنادرا ومباســطة وتظرفا، وأنا لا أجهل أنكم تنطوون على شــمائل فيلســوف أو تحملون روحه بالتعبير العصري "**(54) ؛

ووفي مخاطبته بالولد حنو الأبوة ورحمة المعلم بتلميذه؛

وفي ذكر اسمه كاملا دلالة على المودة؛

وفي الدعاء له بالحفظ إشـارة إلى الحفاظ على العلاقات والحرص على ما يوجب النجاح والفاعلية للخطابات.

ولا نغفل ما جاء في الرسالة من عبارات تواصلية نحو: **"أما أنا وحياتك"**، (55)**"يابني"**(56)

**11.4رسالة الضبّ و التوجيه إلى الكفاءة المعرفية:**

لعل بعض كلمات أو جمل أو فقرات هذه الرسالة تكشف عن أهمية الزاد المعرفي في الكتابة والمناقشة والتحليل والقراءة والدراسة، فلا مناص أن الباحث العلمي أحوج إلى هذا الأمر لما له

من دور في المساعدة على اختيار موضوع البحث، وتشكيل تصور عنه ثم الاتصال بالمصادر والمراجع المرتبطة به، وكذا دوره في المناقشة والتحليل بمقارنة أو الأقوال ببعضها.

**12.4رسالة الضبّ و التوجيه إلى الكفاءة الحجاجية:**

سبق القول في موضعين إنه لا يحق لأي كان أن يردّ رأيا أو قول إلا بدليل، كما لا يجوز إصدار الأحكام إلا بدليل.

ولقد لمّح الكاتب في رسالته إلى أهمية الحجاج حينما بيّن أن ضرب الأمثلة إنما يكون بغرض **"التنويه أو التنبيه"**[57]، وهذا أمر حري بالباحث أن يراعيه، فكلما أردف أقوال بالأدلة وعضّد آراءه بالحجج كانت أدعى للقبول.

**5. رسالة الضبّ وفعل القراءة:**

إن الممارسة النقدية أو الفعل القرائي، وإرادة الفهم وإدراك السر تقتضي تأملا و دقة حس ولطافة شعور وتمثلا للعمل المقروء، ولقد سبق قول الكاتب: **" وإذا أردت أن تفهم بعض السر في خصيصة العرب في الوصف، فاعلم أن الصحراء لبستهم –ولبسوها- حتى أصبحت حياتهم جزءًا منها فأورثتهم ملكة التأمل، ولو سميناها ملكة الحواس لكان هذا هو الصحيح، ومنها جاءتهم دقة الحس ولطافة الشعور وصدق التصوير"** [58]

وإذا كان التحقيق حسب الكاتب هو الإدراك، فالإدراك يتوقف على الملاحظة والدراسة(النظر)، فقد ذُكر سلفا قول الكاتب" **أعترف أني ما حققت معنى المثل المشهور...إلا بعد دراستي لضبّكم"** [59]

ثم يؤكد الكتب على أن الرؤية(الملاحظة) والتحسس(التلمس/ الملامسة) يجعلان التمثّل أوقع في النفوس، وبهذا الوقع يكون التأثر وعلى مقدار التأثر يكون التأثير، قال الكاتب:"**ولو أن الذين يضربون هذا المثل تقليدا واتباعا رأوا الضبّ ورأوا ذنبه وتحسسوا تلك العقد الشائكة في ذنبه، لكان تمثلُهم أوقع في نفوسهم ولكانت نفوسهم أشد تأثرا به، وعلى مقدار التأثر يكون التأثير"** [60]

ويبدو أن هذا قاعدة مهمة في التعامل مع النصوص ومعالجة الظواهر، فلا يُتصور بحال أن لا يتمثّل المحلل النص ولا يقرأ فيه ذاته ومجتمعه، كما لا يُتصور أن يكون الدارس بعيدا عن واقع الظاهرة وعيّناتها.

**1.5 التلميح إلى رفض التعقيد:**

وقف الكاتب عند المثل العربي(**(أعقد من ذنب الضبّ)**)، وردّ التعقيد الواقع في حياة الناس بقوله: **"وما أكثر العقد –والتعقيدات- في زماننا التي يحسن ضرب هذه الأمثلة لها، ولو أن الذين يضربون هذا المثل تقليدا واتباعا رأوا الضبّ ورأوا ذنبه وتحسسوا تلك**

**العقد الشائكة في ذنبه، لكان تمثلُهم أوقع في نفوسهم ولكانت نفوسهم أشد تأثرا به، وعلى مقدار التأثر يكون التأثير"**(61)

والمستفاد من هذا أن من إشكالات الخطاب النقدي اتسام لغته بالتعقيد، وحري برواده أن يستفيدوا من هذا المثل وإشارة الكاتب، فيبتعدوا عن التعقيد في خطابهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وينبغي للباحث العلمي أيضا أن يضع في الحسبان أن السهولة من مواصفات اللغة العلمية الأكاديمية، فيبتعد عن اللغة المعقدة والألفاظ الغربية.

**2.5 الإيغال في الحكمة( الأدب السامي على ألسنة الحيوان):**

كشف الكاتب عن مقصد الأدب الذي يأتي على ألسنة الحيوان معتبرا ذلك مظهر سمو بقوله: **" ...وهو وضعهم أشياء على ألسنة الحيوانات إيغالا في الحكمة وتطرقا لتربية النفوس البشرية وسوقها لفضيلة أو صدها عن رذيلة، فإن هذا النوع من الأدب السامي هو نمط التربية الصالحة كما في كتاب كليلة ودمنة..."** (62)

ويمكن القول إنه لجدير أن يُستفاد من هذا في التربية وتعليم وتوجيه النصح، وقد قيل قديما: **النصح ثقيل فلا ترسله جبلا ولا تجعله جدلا، وقالوا: الحقائق مرّة فاستعيروا لها خفّة البيان".** (63)

**6- خاتمة:**

ختاما، ومما تقدم يمكن الخروج بما يلي:

-إن هذه الرسالة(رسالة الضبّ) ما تزال حافلة بالأفكار والقضايا والظواهر التي تحتاج إلى البحث والنظر والتتبع، فهذه الدراسة لم تظهر إلا جانبا من تلك الجوانب الكثيرة؛

- إذا كانت هذه الرسالة صورة من صور خطاب الإبراهيمي الأدبي فإنها تقدم صورة عن أهليته العلمية المعرفية واللغوية والأدبية والنقدية...؛

- كشفت هذه الرسالة أيضا عن شخصية الإبراهيمي الفيلسوف والاجتماعي إلى جانب شخصية الإبراهيمي اللغوي والأديب والناقد؛

-دعوة الباحثين بمختلف توجهاتهم(نقاد، فلاسفة، علماء اجتماع، علماء نفس، علماء انتربولوجيا... ) إلى الاهتمام بمثل هذه الآثار التي تعطينا صورة عن الأدب الجزائري وثقافة العالِم الجزائري وصورة عن التاريخ والمجتمع الجزائريَيْن؛

- وقفت الدراسة على ما جاء في رسالة الضبّ من ضوابط تتعلق بالمنهج أو البحث أو صفات الباحث، وما هي إلا فعل قرائي تأويلي إن لم يطمئن إليه القارئ فحسب صاحبه أنه أتاح لنفسه فرصة النظر والتفكير.

**7. . قائمة المراجع:**

1. الإبراهيمي (محمدالبشير): رسالة الضب، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، (5أجزاء).

2. الأنصاري (د. فريد)" أبجديات البحث في العلوم الشرعية((محاولة في التأصيل المنهجي))، دار السلام للنشر والتوزيع والترجمة،مصر القاهرة، ط2، 2010.
3. بالعالم (محمد باي): زاد السالك شرح أسهل المسالك على مذهب الإمام مالك، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 2008.
4. بلعلى (د.آمنة ): أسئلة المنهجية العلمية في اللغة والأدب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر تيزي وزو، 2005.
5. بن تريدي (بدر الدين): قاموس التربية الحديث(عربي-إنجليزي-فرنسي)، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2010، ص40.
6. الجسر (حسين افندي): هدية الألباب في جواهر الآداب، مخطوط.
7. ابن خلدون ( عبد الرحمن): المقدمة، تحقيق شرح وفهرسة: سعيد محمود عقيّل، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ط1، 2005.
8. الشعرواي (محمد متولي): تفسير الشعرواي، خواطر حول القرآن الكريم، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، دط، دت، (مجموع في جزء واحد).
9. .....:تفسير الشعراوي، خواطر حول القرآن الكريم، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، دط، دت، (20جزءا)
10. القرطبي(أبوعبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري): الجامع لأحكام القرآن الكريم والمبيّن لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وشارك في تحقيق بعض الأجزاء محمد رضوان عرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2006(24جزءا)
11. مروان بن ابي حفصة: الديوان الشعري، جمع وتحقيق وتقديم: حسين عطوان، سلسلة ذخائر العرب(49)، دار المعارف، القاهرة، ط1.

**8- الهوامش:**

i- فريد الأنصاري، أبجديات البحث في العلوم الشرعية((محاولة في التأصيل المنهجي))، دار السلام للنشر والتوزيع والترجمة،مصر القاهرة، ط2، 2010، ص222.

2- م نفسه، ص نفسها.

3- م نفسه، ص نفسها.

4- م نفسه، ص نفسها.

5- آمنة بلعلى، أسئلة المنهجية العلمية في اللغة والأدب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر تيزي وزو، 2005،ص98 وما بعدها.

6- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكريم، ج1، ص147.

7- رواه السيوطي في الجامع الصغير، ورواه ابن كثير في تفسيره بلفظ ((فهو أجذم))، ينظر، تفسير الشعرواي، ص48.

8- محمد باي بالعالم، زاد السالك شرح أسهل المسالك على مذهب الإمام مالك، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 2008، ص7.

9- محمد خير رمضان يوسف، دوافع البحث والتأليف عند المسلمين، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 2005.

10- البشير الإبراهيمي، رسالة الضب، آثار الشيخ البشير الإبراهيمي، ج2، ص40.

11- م نفسه، ص44.

12- م نفسه، ص45.

13- م نفسه، ص نفسها.

14- م نفسه، ص46.

15- م نفسه، ص48.

16- م نفسه، ص52.

17- الآية (31) سورة المائدة.

18- رسالة الضب، م س، ص45.

19- م نفسه، ص نفسها.

20- م نفسه، ص نفسها.

21- المرحلة الابتدائية هي المرحلة الأولى من تقنيات البحث وتعني الانطلاق في أشغال البحث بجمع فهرس لمصادره، أي مرجعية ووضع تقرير علمي يتضمن تصورا عاماً لإشكاله ثم تقميش مادته وإعدادها حتى تصير جاهزة للدراسة، أما المرحلة التكميلية فهي الخطوة الثالثة والأخيرة من مراحل انجاز البحث العلمي بعد المرحلتين (الابتدائية و التركيبية) وتعني انجاز الأعمال الختامية للبحث، وذلك بإعداد فهارسه ومراجعته ثم رقنه واخراجه. ينظر، فريد الأنصاري، م س،ص218 إلى 219.

22- رسالة الضب، م س، ص43.

23- حسين افندي الجسر، هدية الألباب في جواهر الآداب، مخطوط، ص3.

24- شعر مروان بن ابي حفصة، جمع وتحقيق وتقديم: حسين عطوان، سلسلة ذخائر العرب(49)، دار المعارف، القاهرة، ط1، ص37.

25- رسالة الضب، م س، ص44.

26- م نفسه، ص نفسها.

27- م نفسه، ص46.

28- م نفسه، ص41.
29- بدر الدين بن تريدي، قاموس التربية الحديث(عربي-إنجليزي-فرنسي)، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2010، ص40.
30- عبارة كانت تتردد كثيرا على لسان أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور محمد خان أستاذ بجامعة محمد خيضر بسكرة الجزائر.
31- رسالة الضب، م س، ص49.
32- م نفسه، ص نفسها.
33- م نفسه، ص نفسها.
34- م نفسه، ص51.
35- م نفسه، ص43.
36- م نفسه، ص41.
37- م نفسه، ص42.
38- م نفسه، ص40.
39- قال عبد الرحمن بن خلدون"...إذ هو (فن التاريخ) في ظاهره لا يزيد عن إخبار عن الأيام والدول ... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ... "، المقدمة، تحقيق شرح وفهرسة: سعيد محمود عقيل، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ط1، 2005، ص8.
40- رسالة الضب، م س، ص40.
41- م نفسه، ص41.
42- م نفسه، ص43.
43- م نفسه، ص41.
44- م نفسه، ص نفسها.
45- م نفسه، ص نفسها.
46- م نفسه، ص42.
47- م نفسه، ص44-45.
48- م نفسه، ص46.
49- م نفسه، ص47.
50- م نفسه، ص نفسها.
51- م نفسه، ص48.
52- م نفسه، ص50.
53- م نفسه، ص40.
54- م نفسه، ص نفسها.
55- م نفسه، ص46.
56- م نفسه، ص51.
57- م نفسه، ص43.
58- م نفسه، ص42.
59- م نفسه، ص43.
60- م نفسه، ص نفسها.
61- م نفسه، ص نفسها.

62- م نفسه، ص46.

63- تفسير الشعراوي،ج15، ص 9101.

# هاجس الوحدة العربية ومقتضياتها في أدب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

Obsessed with Arab unity and its requirements in the literature of Sheikh Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi

**سعودي أحمد - saoudi ahmed**

قسم التاريخ - كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية – جامعة عمار ثليجي- الأغواط.

الإيميل : saoudiahmed67@gmail.com

**الملخص:**

رغم خضوع الجزائر للاحتلال الفرنسي البغيض منذ 1830م ،وسعيه المتواصل لفصل الجزائر عن بعدها العربي الإسلامي، ومحاربة كل ما من شأنه أن يؤكد تلك الرابطة أو يدعمها، من دين ولغة بل وحتى المبادلات العلمية والتجارية ، فقد بقي الجزائريون عامة ونخبتهم المحافظة ذات التكوين والتوجه العربي - الإسلامي يتواصلون مع الوطن العربي والعالم الإسلامي ولو سريا ، واعتمدوا في ذلك التواصل على العديد من الوسائل، مثل الهجرة إلى البلاد العربية ، والكتابة في الصحف الجزائرية ذات اللسان العربي حول قضايا و اهتمامات البلاد العربية ، بل واستخدموا حتى شعيرة الحج للتنقل إلى البلاد العربية، دون أن ننسى البعثات العلمية وهجرة العديد من الشباب الجزائري لطلب العلم ، في القرويين والزيتونة والأزهر وبلاد الحجاز وبلاد الشام، ورغم ظروفهم الصعبة بقي الجزائريون يؤمنون بوحدة الوطن العربي القومية ، ومصيره المشترك، وأن ما حل به من استعمار وهوان هو نتيجة لفرقته وتجزئته التي غرسها المحتل مشرقا ومغربا، فأرتفعت أقلام وأصوات جزائرية تدافع عن الوحدة العربية والإسلامية، داعية لقيامها، يعد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من أكبر دعاتها والمنافحين عنها.

**كلمات مفتاحية :** الوحدة العربية ، الوطن العربي ، البشير الإبراهيمي ، الإستعمار ، التجزئة .

**Abstract:**

Although Algeria has been subjected to the hateful French occupation since 1830 AD, and its continuous endeavor to separate Algeria from its Arab-Islamic dimension, and to fight everything that would confirm or support that bond, from religion, language, and even scientific and commercial exchanges, the Algerians in general and their conservative elite of Arab formation and orientation remained The Islamic communicates with the Arab world and the Islamic world, even if secretly, and in that connection they relied on many means, such as immigration to the Arab countries, and writing in Algerian newspapers with an Arabic tongue on issues and concerns of Arab countries, and even used the ritual pilgrimage to travel to the Arab countries, Without forgetting the scientific missions and the migration of many Algerian youths to seek knowledge, in the villagers, Zaytouna, Al-Azhar, the Hijaz countries and the Levant, despite their difficult circumstances, the Algerians continued to believe in the national unity of the Arab nation and its common destiny, and that what befell it of colonialism and dishonor is the result of its division and fragmentation that the occupier planted In the East and the West, Algerian pens and voices rose to defend Arab and Islamic unity, calling for its establishment. Sheikh Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi is one of the biggest advocates It is lost and its supporters.

Key words:Arab unity, the Arab world, Bashir Ibrahimi, colonialism, fragmentation.

**1- مقدمة :**

رغم الواقع الأليم الذي كانت تعيشه الجزائر تحت النير والظلم الاستعمـاري الفرنسي إلا أن ذلك لم يمنع الجزائريين وخاصة نخبتهم الإصلاحية ذات التوجه العربي الإسلامـي من الاهتمام بقضايا العالمين العربي والإسلامي ،تأكيدا لوشائـج الارتباط معهما وتحطيما للحاجز الـذي سعت فرنسـا منـذ 1830م أن تضعه بين الجزائريين وامتدادهم العربي الإسلامي وفق شعار فرنسا المعروف : " الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا".

ومن بين رموز تلك النخبة ذات التوجه العربي – الإسلامي وذات الحضور البارز يتجلى لنا اسم الشيخ محمد البشير الابراهيمي، كأقوى الحاضرين المنافحين على قضايا العروبة والحامين لبيضة الإسلام مشرقا ومغربا متجاوزا ما كان يعيشه بلده من احتلال بغيض آثم ،ومدركا أن نضال الجزائريين ضد الاستعمار وتوابعه لا يجب أن يخضع لحدود ضيقة،فحمل الشيخ في كتاباته الهم الفلسطيني والمراكشي(المغربي) و الطرابلسي (الليبي) والمصري والباكستاني والهندي وغيرها من البلاد العربية و الاسلامية، ومن أبرز القضايا التي شغلت الشيخ البشير الإبراهيمى ،تبرز قضية الوحدة العربية باعتبارها في نظره صمام أمان العرب والمسلمين والسلاح الأقوى في مواجهة الاستعمار الغربي الذي جثم بكلكله على صدورها.

فما هو تصور الشيخ لضرورة قيام الوحدة؟وما هي فوائدها ومنافعها على مختلف الأصعدة؟وما هي آليات وخطوات تحقيقها عربيا ؟

ولاشك أننا في البداية بحاجة للتعريف بشخصية هذا العلم الإصلاحي البارز من القطر الجزائري ،وأبرز المؤثرات في بناء شخصيته العربية – الإسلامية في حينه.

## 2- التعريف بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي :

هو محمد البشير الإبراهيمي بن محمد السعدي بن عمر بن محمد بن السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي ولد يوم 13 جوان 1889 م بقبيلة " أولاد براهيم "بقرية" راس الوادي" بدائرة سطيف، وهي قبيلة عربية النسب تنتمي في أصولها إلى الأشراف الأدارسة، نشأ في عائلة جزائرية ذائعة الصيت، توارث أفرادها العلم أبا عن جد منذ أكثر من خمسة قرون ، يقصدها طلاب العلم من مختلف أنحاء البلاد للتعلم والتلقين.

هاجر سنة 1911م إلى المشرق العربي للاستزادة في طلب العلم و المعرفة و مكث هنالك إلى غاية سنة 1920 م،و بعد عودته إلى الجزائر بذل جهودا كبيرة في التربية و التعليم لاسيما بعد لقاءه مع زميله الشيخ عبد الحميد بن باديس.

كانت فلسفته في تكوين النشء ترتكز على تربيته على الأفكار الصحيحة والأخلاق الإسلامية الحسنة ومحاربة الشعوذة والابتداع في الدين ، كما كان من الأعضاء البارزين المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الخامس من ماي 1931م، في نادي "الترقي" بمدينة الجزائر العاصمة التي كانت تهدف لإصلاح المجتمع ومواجهة المحتل بالتنوير و التعليم.

اعتقلته السلطات الفرنسية في تلمسان يوم 12أفريل 1940م، ثم نفته إلى منطقة "آفلو" بالجنوب الوهراني (حاليا ولاية الأغواط). تم اختيار الإبراهيمي رئيسا لجمعية العلماء خلفا للشيخ عبد الحميد ابن باديس الذي وافته المنية يوم 16 افريل 1940م.

أعتقل إثر أحداث الثامن 1945م،ليقيم بعدها في العديد من أقطار المشرق العربي وبعض الدول الإسلامية، خلال الفترة الممتدة بين 1952 م– 1962 م، طالبا المساعدة من الأشقاء العرب و المسلمين، لدعم النهضة العلمية والثقافية الناشئة في الجزائر، ولحشد الدعم المادي و المعنوي للثورة التحريرية بعد اندلاعها في أول نوفمبر1954م ،حيث لعب دورا بارزا عن طريق محاضراته وندواته واتصالاته الحثيثة بالكثير من قادة البلاد العربية والإسلامية ومثقفيها، حتى ارتبط اسم البشير الابراهيمي بالثورة الجزائرية والحركة الإصلاحية في المشرق العربي والبلاد الإسلامية.

توفي يوم التاسع عشر ماي 1965 م عن عمر يناهز السادسة و السبعين عاما،تاركا وراءه الكثير من المقالات و الخطب، والأحاديث والدروس و المحاضرات، التي جمعت تحت

عنوان "آثارالشيخ البشير الإبراهيمي"، وهي ذات قيمة أدبية و لغوية، وفكرية وسياسية كبيرة[1].

**3- ضرورة الوحدة وبواعثها لدى الابراهيمي :**

يقول الشيخ البشير الابراهيمي عندما يتطرق لبواعث الوحدة وما يمكن أن يجنيه العرب من ورائها :"أفكر في قومي العرب فأجدهم يتخبطون في داجية لا صباح لها،ويفتنون في كل عام مرة أو مرتين،ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون،وأراهم لا ينقلون قدما إلى أمام إلا تأخروا خطوات على وراء،وقد أنزلوا أنفسهم من الأمم منزلة الأمة الوكعاء من الحرائر."[2]

فإن أكبر ما رزيت به الأمة العربية ،هي انقسامها إلى دويلات ، ولولا هذا التمزق ما تجرأ الاستعمار على احتلال بلدانها،وفي تلمسه لأصل هذا الداء الخطير الذي نخر جسد الأمة يذكر الابراهيمي أنه بدأ بسيطا في شكل اختلافات دينية ومذهبية ،لينتقل إلى الشؤون الدنيوية،ثم ليتشعب في كل نواحي ومجالات الحياة من سياسية وثقافية و اقتصادية وغيره،ومن أبرز مظاهر هذا الانقسام حسب الشيخ الإبراهيمي ما يلي :

- تعدد الزعامات السياسية و الدينية في العالم العربي و الإسلامي
- تصارع هذه الزعامات فيما بينها و إستقوائها بالأجنبي على حساب أبناء جلدتها.
- مقابلة القضايا المصيرية للأمة بكثير من المبالاة والاستهزاء.
- بيع الذمم والضمائر والتفريط في المصالح القومية.
- غياب وحدة عربية ،لاسيما على المستوى الرسمي تكفل توحيد المواقف تجاه القضايا المصيرية.

- ويعلق الإبراهيمي على ذالك تعليقا جميلا فيقول:"ولو كان أجدادنا فهموا شيئا من التضامن الإسلامي ،لما ترك المراكشي والتونسي الجزائر تتخبط وحدها في المقاومة ،ولنبهتهم ضمائرهم أن هذا الغول ان تغذى بالجزائر فسيتعشى بتونس ومراكش،ولكنه كان مستيقظا وكانوا نائمين ،حتى انتهى الأمر إلى الغاية المحـزنة."[3]

أما بالنسبة لتناول موضوع الوحدة فنجد أن كثيرا من كتابات وتصريحات البشير الابراهيمي ،كانت تستهجـــن التساهل في أمرها واعتبار البعض لها عنها على أنها مجرد عاطفة لا تصلح إلا أن تغذي قصائد الشعراء وأغاني المغنيين وهتافات المتظاهرين،بل على العكس من ذلك يجب أن تكون هاجس العربي من حكامه إلى مثقفيه إلى عامته بشكل يومي ومتواصل، و أن يجعلها من أكبر غاياته وأهدافه،فقد جاء في مقالة للإبراهيمي تحت عنوان"حالة المسلمين"نشرتها مجلة "الأخوة الإسلامية،في عدده السابع عشر،لسنة 1953م ،ما يلي:"لا أحمق منا ،نلقن أبناءنا الخلاف في الدين والدنيا بأعمالنا ونقول لهم بألسنتنا اتحدوا،و إن صالحة يأخذها الابن من أبيه بطريق القدوة ،خير من ألف نصيحة باللسان."[4]

ويمكن بوضوح أن نتبين من خلال المقولة تلك أسلوب الشيخ الابراهيمي في التربية والدعوة وهو الذي يدعو إلى اعتماد مبدأ الأفعال لا الأقوال ففي كثير من كتاباته ومحاضراته وخطبه القيمة، نجده يستنكر على الأمة كثرة شعاراتها البعيدة عن التطبيق،وأن الغرب ما تفوق علينا إلا عندما أعمل العقل وقرن الأقوال بالأفعال،ومن ذلك أن الكثير من المثقفين والحكام يكثرون من الحديث عن الوحدة العربية ،إرضاء واستمالة لسامعيهم فقط من أبناء الأمة العربية ولكنهم في واقع الأمر لا يبذلون الجهد المطلوب من أجل ذلك في الواقع ، وعليه فإن خلل الأمة ليس في قلة قيمها وندرة مبادئها ،بل في كيفية تفعيل تلك القيم التي هي من صميم التاريخ والمجتمع العربي وعلى رأسها نصرة العربي لأخيه في كل الظروف ،ولكن ما ينقص الأمة العربية بدأ بقادتها ونخبهما هو تفعيل تلك المبادئ والقيم الداعية للوحدة

على أرض الواقع في البلاد العربية والإسلامية ،ولذلك نجده بمجرد أن سمع بتوقيع الرئيس المصري جمال عبد الناصر على إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة في فيفري 1958م حتى انتشى فرحا وهلل للحدث وأرسل برقية تهنئة للرئيس المصري جاء فيها :" هذه الأيام التي كنا ننتظرها ونستبطئها،وهذا هو الأمل الذي قطعنا أعمارنا فيه أماني بالنهار وأحلاما بالليل،وهذا هو الحدث الذي كان يترقبه المصلحون والهداة إلى الحق والدعاة إلى الخير،وهذا هو الرجاء الذي بقي مترددا في لهوات الزمن إلى أن وجد الهمم التي تفل الحديد فأصبح حقيقة واقعة[5] ، ونجده أيضا في حديث له لإذاعة بغداد سنة 1952م يصرح قائلا :"آن الأوان لأن نتعارف،وآن الأوان لأن تجتمع هذه الأجزاء المتنافرة من الجسم الإسلامي الكبير ووجب على كل مخلص لدينه أن يسعى في جمع هؤلاء الإخوة المتقاطعين في مصلحة غيرهم[6]

كما جاء في تقديم له لأحد الكتب قوله:"لم يمر على العرب عهد كانوا فيه أحوج إلى الاتحاد وجمع الكلمة من هذا العهد،لأن المصائب التي جرها عليهم التفرق كانت المواقع متباعدة الأزمنة،بحيث لا يحس بوقعها المؤلم جميع العرب إلى أن وقعت واقعة فلسطين وسود عارها وجوه العرب كلهم،وزاد في افتضاحهم بها أن حلت بهم القارعة وهم مجتمعون،فكانت صرخة خرقت الآذان ونفذت إلى مواقع الإحساس من العرب جميعا."[7].

كما يتضح لنا فان الشيخ الإبراهيمي أدرك خطورة تلك المرحلة المظلمة من مراحل التاريخ العربي الإسلامي،التي تمكن فيها الاستعمار الأوروبي ثم الصهيوني من البلاد العربية الإسلامية ،منذ حتلال الجزائر 1830م ووصولا إلى ضياع فلسطين بعد وعد بلفور المشؤوم سنة1917م.

وعنـد تشخيص الشيخ لأسباب هذا الاعتلال ،تحفل كتاباته ومحاضراته الشيخ بذكرها ووضع اليد عليهـــا،بدءا من الابتعاد عن قيم الدين الإسلامي الحنيف ووصولا إلى التمزق و التشتت، ثم ليقوم بوصف مجموعة من الحلول التي يراها مناسبة لتجاوز هذا الوضع الصعب وتحرير العالم العربي الإسلامي من الاستعمار ،بهدف الوصول به إلى أسمى الدرجات،وبذلك فهو يولى لإتحاد العرب والمسلمين بالغ الأهمية ،بل يعتبر أن كل الحلول المتبقية الأخرى لا قيمة لها إن لم تكن فعلا عربيا إسلاميا موحدا ومجتمعا ،تستخدم فيه إمكانيات الأمة البشرية والاقتصادية والحضارية،حتى أن الإبراهيمي اعتبر وحدة الأمة كفارة للذنوب :"إن وحدة مصر وسوريا هي كفارة ماحية لما اقترفه العرب من مآثم التفرق والاختلاف،وسيكون لحاق المتخلفين به عملا صالحا كله ،فيا بشرى للسابقين."[8]

## 4- آليات تحقيق الوحدة العربية في فكر الشيخ البشير الابراهيمي:

لاشك أن تحقيق الوحدة العربية في ذلك الظرف العربي الصعب مابين استعمار يجثم على أنفاس دوله ، وجهل يفتك بأبنائه وتخلف اقتصادي يرهن مستقبله،يعد مهمة شديدة الصعوبة،غير أنها ليست بالمستحيلة إذا حسنت النوايا وتكاثفت الجهود بين القادة العرب وشعوبهم،و يحدد الشيخ البشير الإبراهيمي من أجل تحقيق ذلك مجموعة من الآليات والوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الهدف كما يلي:

### أ- تقارب العرب بشير إتحادهم :

إن الجفاء والصدود من شيم الأعداء وإن أول ماي ذهب ريح الأمة ويفشلها تفرقها و انقسامها ،وما وجد الاستعمار يوما منفذا للسيطرة على العرب والمسلمين كما وجد في تفرقهم و تجزؤهم وفق سيادة (فرق تسد).

حيث صرح في كلمة له بمناسبة زيارة الأمير عبد الله الجابر الصباح إلى مصر سنة1953 م قائلا : "التقارب بريد الاتحاد والتزاور دليله، والتحاور بشيره ، والتشاور مفتاح بابه،وكل هذا يقع في هذه الأيام بين رؤساء العرب وأولي الرأي فيهم ويتكرر وتصاحبه مبشرات مؤذنة بقرب تبلج فجر من الاتحاد تعقبه الوحدة الشاملة التي ترهب أعداء العرب و يقول عنها صهيون عن جزيرة العرب:إن فيها قوما جبارين."[9]فلا غرو أن الزيارات والتواصل الشعبي مابين أبناء الأمتين العربية و الاسلامية على مستوى الشعوب لم ينقطع في يوم من الأيام ،بين من يطلب العلم ،أومن يحج للبقاع المقدسة ،حتى من يفر من بطش المحتل لحضن أخيه في الوطن والملة، كما فعل الجزائريون بعد احتلال بلادهم وفشل مقاومتهم لاسيما بعد1847م نحو بلاد الشام ومصر والحجاز.

ولكن الشيخ يلمح إلى أهمية العلاقات الرسمية مابين الحكام من رؤساء وملوك عرب ومسلمين التي تعد مقياسا حقيقيا للتواصل والتقارب بين الدول والشعوب،وإن كان ينتقد إمكانية قيامها على الطقوس الرسمية والدبلوماسية فقط،فالعلاقات مابين أبناء الأمة الواحدة بقدر ما تحمل بعدا دبلوماسيا ،فيجب أن تكتسي أيضا طابع صلة الرحم والتآخي ،فما كان يحدث سابقا في مثل هذه الحالات يقوم على المجاملة والنفاق بدل الإخلاص والمحبة، وعلى الرهبة والتملق بدل الرغبة والصدق. وختم كلامه بالقول إن هذا السلوك الحسن الذي بدر من الحكومة المصرية، باستقبالها الحار لشخصية عربية مرموقة، هو في حقيقة الأمر: "وصل لأرحام كانت مجفوة، والرحم إذا تنبهت أسبابها تأتي بكل عجيب، وتجرف كل ما كن يحجبها من حجب، وما كان يغطي عليها من عقوق وقطيعة"[10].

وعلى هذا الأساس اعتبر الإبراهيمي أن مصر أكثر البلدان العربية أهلية لقيادة العرب، فهي التي احتضنت العروبة ونبت في أرضها لسانها، وتفتقت فيها حضارتها و آدابها، ولكل ذلك فمن الوفاء لها أن يعترف كل عربي بهذا الفضل و السبق، فيقر لها بالقيادة و الزعامة .

وقد برر ترشيحه لمصر لتكون قائدة ومتزعمة للوحدة العربية، بقوله إنه ينبع من التجربة، كونها أكثر من غيرها من الأقطار العربية وحتى الإسلامية القادرة على لعب هذا الدور، فكل أمال العرب بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة معلقة عليها لقيادتهم و لم شتاتهم .

و لا شك أن في هذا الحكم كثير من الصحة، ففي تلك المرحلة كانت مصر هي البلد العربي الوحيد الذي يملك من المقومات خاصة السياسية و الفكرية وحتى الجغرافية التي تجعله الأكثر قدرة على لم شتات العرب، ومن ثمة تزعم الوحدة العربية .

**ب- <u>إزالة الفوارق الاجتماعية وضرورة توحيد الرأي العام العربي :</u>**

لم يقصر الشيخ البشير الابراهيمي في التنديد وكشف مدى الضعف والهوان الذي لحق بالأمة العربية الإسلامية جراء تشتتها،لا من قلة عدد،بل لهوانها على نفسها وقبولها الإثم بوضعها ،وقبولها بأن تكون تابعة لا متبوعة ومسودة لا سيدة فيقول :"إن المسلمين كثير ،ولكن التفرق صيرهم قليلا مستضعفين في الأرض،يشقون لإسعاد غيرهم ،ويموتون في سبيل إحياء عدوهم،وإنها لخطة من الهوان يأباها الحيوانات العجماء فكيف الخلائق العقلاء."[11]

ولذلك يرى الإبراهيمي أن من أولى خطوات و أهم شروط الوحدة، تضافر الجهود من أجل إزالة أقوى أسباب التنافر بين الشعوب العربية ومن تلك النزاعات الفردية التي تعبر عن الانحطاط في مستوى البعض الذي ينسى بأنه ينتمي إلى أمة ضاربة في التاريخ ،صنع أمجادها

أجيال وأجيال من القادة والعلماء والفاتحين ،لا بفرديتهم بل بإخلاصهم للجماعة والأمة ونبذهم للأنانية والفردية وعلى كل فرد أو قطر من البلاد العربية الإسلامية أن يفكر في إخوته الأصعب منه واقعا وظروفا: "يجب أن تتضافر الشعوب العربية على إلحاق أخر قافلتهم بأولها،فإن بين الطرفين بعدا بعيدا في الثقافة والتفكير والاتصال بالعصر وأسباب الثروة وفهم الحياة وأوضاع الاجتماع،وأن هذا التباعد هو أقوى أسباب التنافر بينهم"[12]

ولاشك أن أول مظاهر اللحاق والتقارب ،تقارب الأفكار و الآراء وتوحيدها لاسيما في القضايا المصيرية التي تهم الأمة بأسرها ،أو تلك التي تضمن مواجهة موحدة لما تتعرض له من عدوان خارجي على كافة الصعد ،فعلى عربي المشرق أن يفكر كما يفكر عربي المغرب العربي وعلى مسلم آسيا أن يشعر كما يشعر مسلم إفريقيا:" ويجب عليهم أن يجتهدوا في تكوين رأي عام في كل شعب عربي ليسهل عليهم تكوين رأي عام أعم يوجه ويرشد وينشأ ويخاف ويرجى،فإن بعض الشعوب العربية لم يتكون فيها رأي عام إلى الآن ،ومازالت تسيطر عليها النزعات الفردية التي هي علامة التفكك وأساس التخاذل ،وبعض شعوبهم فيها رأي عام ولكنه لم ينضج بعد، والرأي العام لا ينضج إلا في ظل الاستقرار والثقافة الهادئة الموحدة "[13].وفي ذلك من الشيخ إدراك سابق لعصره لقيمة الأمن الاجتماعي والاستقرار السياسي لتحريك عجلة التقدم ،وتوفير الجو الصحي الخصب الذي تزهر فيه الثقافة ويبدع فيه المبدعون.

و في متابعة لكتاباته وتصريحاته يبدو لنا أيضا أن الإبراهيمي كان من المؤيدين لفكرة أن الوحدة العربية يجب أن يكون منطلقها شعبيا وليس فئويا، تشارك فيها جميع شرائح المجتمعات العربية وطبقاتها ومختلف أطيافها، فضلا عن كل التيارات الفكرية والتنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الموجودة في كل قطر، والوسيلة في ذلك هي الجهد الثقافي الذي يتولى التوعية و تكوين رأي عام في اتجاه التوحيد .

**ج- لا وحدة عربية بلا تعريب للظاهر والباطن :**

إن تحقيق الوحدة العربية في نظر الشيخ الابراهيمي يستلزم بعض البديهيات التي لا مفر منها و لا يمكن تجاوزها بأي حال من الأحوال على جميع الأصعدة سواء لدى العامة أو لدى النخبة المثقفة أو لدى السلطة الحاكمة ،فإن عامل اللغة يعد بلا منازع المحرك الأول، باعتبار أنه عامل ربط ، ليس بين الدول العربية وحدها بل وبقية دول العام الإسلامي باعتبار أنها لغة القرآن التي يتم تداولها على مستوى العبادات الرئيسة في أصقاع العالم الإسلامي ، وإن تعريب كل مناحي الحياة في المجتمع العربي أصبح ضرورة لابد منها."نحن معشر العرب أصبحنا في حاجة ملحة للتعريب في كل علائقنا بالحياة،فنحن في حاجة إلى تعريب ألسنتنا وأفكارنا وعقولنا وأذهاننا وتصوراتنا ،وأكاد أقول ولباسنا ونعالنا وأساليب معاشنا،وهيئات أكلنا وشربنا ونومنا،وأثاث بيوتنا،فقد عم حياتنا كلها المسخ والقلب ورمانا الاستعمار بالناقرة وهي فساد الأخلاق فينا،فلم يبقى من صفات العرب شيئا"[14].

ويضيف الابراهيمي موضحا بان التعريب الشامل هو اكبر غايات كل من يعمل بإخلاص للعروبة، إذ لا يتم على وجهه المطلوب إلا بالعلم وحده، حتى وإن بلغنا فيه درجات متقدمة جدا، فلا فائدة من العلم وحده، إذا لم يتطعم في كل خطوة منه بتربية نفسية، على ما للعرب من شمائل وهمم وبطولات، ووفاء وصدق في القول وتفان في العمل، وتضحيات وإباء و إيثاروكرم وشجاعة. وهذه قيم التربية الحقيقية في الدين الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية.

وإن نجاح هذا التعريب بشقيه الجزئي والكلي يجعلنا:"نكون قد حصلنا على نتيجة عجز عنها من قبلنا من الدعاة المصلحين،وأدينا حق الله وحق العروبة على أكمل وجه ،وقمنا بالأمانة والعهد كما أمر الله،ومهدنا للقومية العربية الكاملة بإزاحة العقبات من سبيلها، وجمعنا ما فرقت السياسة والسياسيون منا و الأجانب وأنفهم راغم"[15]

**د- استقلال الأمة العربية يبدأ في فكرها وأدبها قبل اقتصادها :**

كان الشيخ البشير الإبراهيمي، خلال المؤتمرات الأدبية والمنتديات الفكرية واللقاءات العلمية،شديد الحرص إلى دعوة الأمة على ضرورة استقلالها أدبيا وفكريا ولغويا، أكثر من حرصه على الجوانب السياسية و الاقتصادية، التي لا تبرز على نحو كاف خصائص الأمم ومميزات الشعوب، لأن الذي يبرزها ويستعرضها أكثر أمام الأمم الأخرى، آدابها وأفكارها و لغاتها "[16].

ومنه نرى كيف أن الشيخ البشير الابراهيمي يصر على تفعيل كل الوسائل التي من شأنها تحقيق الوحدة العربية والتي من أبرزها حقل الأدب العربي "وقضية القومية العربية تستمد أقوى حججها من واقع الأدب العربي وسلطانه ،ووحدة الأمة العربية تتمثل في وحدة هذا الأدب بصورة عملية ... وقضية القومية العربية ليست ميدان سلاح أو حرب،وإنما هي ميدان عقل و فكر، والأديب في ميدان الفكر كالقائد بين يدي المعركة ،يوجهها بخبرته ويديرها بحكمته"[17]

وعلى ضوء ذلك، نستنتج أن الشيخ الإبراهيمي قد راهن كثيرا على دور الأدب والأديب العربيين في إحياء القومية العربية وتمتين أواصرها من جهة، وفي الدفع بمشروع الوحدة

العربية في مساره الصحيح من جهة أخرى إنطلاقا من مسلمة مفادها أنه إذا كان الأدب يمثل : "المرآة العاكسة التي تنعكس عليها حضارة الأمة بجميع مقوماتها النفسية والعقلية و الاجتماعية" فان الأديب هو الذي يتحمل مسؤولية الحفاظ على الصورة الخالدة لامته [18].

**هـ- الوحدة الشاملة علاج ناجع لكل الأمراض :**

إن أسوا ما يمكن أن يصيب أمة بعينها هو تمزقها إلى كيانات صغيرة وضعيفة ،تخدم أهواء داخلية لطالبي السلطة الضيقة والمصالح الفردية والأسرية كما هو الشأن لدى بعض الأنظمة العربية على حساب المصلحة القومية ،ولاشك أن هذا التجزؤ والتفتت هو من خدم المحتل عندما استفرد بهذا الوطن العربي عند تحوله إلى كيانات قطرية صغيرة وضعيفة يستقوى بعضها على البعض باستدعاء الاجنبي .

ولذلك لم تكن العروبة لدى الابراهيمي مجرد جنسية يحملها الفرد :"ففي كثير من الأحيان نجده يتجاوز مجرد التعبير الفطري عن الانتماء الشخصي والوطني والمغربي إلى العروبة مع التشديد على وحدة المشرق و المغرب،و ضرورة تضامن الأمة العربية في السراء والضراء و تناديها في الملمات وتجاوبها مع بعضها البعض في الظروف العصيبة... حيث يقول منوها بهذه الأخوة العربية:

**رعى الله من عرب المشارق أخوة تنادوا فدوى صوتها في المغارب**

**توافوا على داع من الحق مسمع ووفوا بنذر في ذمام الأعارب**

**هموا رأسمالي،لا نضار وفضة وهم ربح أعمالي ونجح مآربي**

**وهم موردي الأصفى المروى لغلتي  إذا كدرت(أم الخيار) مشاربي**[19]

و قد ظل الشيخ البشير الإبراهيمي من الداعين إلى نبذ الانقسام القاتل للعرب و المسلمين، و ضرورة استبداله بالوحدة الشاملة لجميع أباء الأمــة الواحدة، وفي هذا يتساءل كيف يتسنى ذلك، وقد افرز ذلك التقسيم أوضاعا جديــدة وممالكا وملوكا؟، فمن الصعب جدا تغيير الممالك، ومن الأصعب حرمان الملوك من لذة الملك ؟.

ثم يتعجب الشيخ الابراهيمي من عجز الأمة العربية عن التوحد و هي التي تملك الكثير من المقومات الحضارية والبشرية والاقتصادية والجغرافية،فيتساءل عن المانع من أن تكون دولة واحدة ؟، في وجود الأمة الواحدة التي لا تحتاج في غالبيتها إلى ما قام به اليهود من جمع لشتاتهم من مختلف أنحاء العالم المتباينة أعراقهم وأفكارهم و ميولاتهم، ولا تحتاج إلى وسيط محتل للتعمير، كلجوء الصهاينة إلى الاستعمار البريطاني، فمن الممكن جدا تحقيق الحلم في أقصر زمن، شريطة وجود قادة يتحلون بالإرادة والعزيمة اللازمين لذلك .

ثم نجده يجيب على تساؤله بالقول إن البداية تكون بما هو ميسر و متوفر، وهو توحيد التعليم ومناهجه والتجارة وشؤونها، وإزالة الحدود الفاصلة بين أجزاء الوطن الواحد، واعتبار المعتدي على جزء منها معتديا على كامل الأجزاء، وعدو الشعب العراقي هو عدو الشعب المغربي، وهكذا مع أخذ العبرة من ايطاليا في ضم أجزائها و ألمانيا، وفرنسا التي لم يهدأ لها بال في قضية " الألزاس و" اللورين" ، وأيضا من انجلترا الشبيهة بجزيرة العرب، والتي لو أن دولة اعتدت على جزء منها لتسارع الانجليز في كل مكان لاسترداده، فلما لا يفعل العرب مثل ذلك ؟

ومن المنطقي بالنسبة إليه أن يكون لهذا الوضع من التشرذم والتفرقة،آثار سيئة وعميقة على المجتمع،"حيث اتسعت الفجوة بين العالم العربي الإسلامي و بين العالم الغربي الذي أضحى رائدا في العلوم والتكنولوجيا ،بينما مازالت العروبة بين اثنين واحد لا تتجاوز لسانه و أخر يستحي من الانتساب لها مفضلا عنها جنسيات الغرب وأوطانه،وحتى العروبة كلغة باتت مهددة بالرطنات الأعجمية التي غمرتها ، واللهجات التي مزقتها و اللهجات الأجنبية التي نافستها عن طريق أبناءها من ضعفاء الهمم و العزائم."[20].

وهكذا دافع البشير الابراهيمي طيلة حياته المليئة بالجهاد والنضال،عن خيار الوحدة العربية باعتبار أن العصر الذي نعيشه عصر التكتلات والاتحاد ولا عيش فيه إلا للأمم القوية،وأن حتمية طرد الاستعمار لابد وأن تمر عبر توحيد الأمة لمواقفها وجهودها أمام هذه الهجمة الاستعمارية الصهيو –أوربية بعد الحرب العالمية الأولى، والصهيو- أمريكية بعد الحرب العالمية الثانية فهاهو يؤكد:"إذا كان الاستعمار على درجة كبيرة من القوة ،كما يتصور العرب فإنهم في الحقيقة إنما يزيدونه قوة بتخاذلهم وتفرقهم وتطاحن هيئاتهم،وإضاعة أوقاتهم في الجهل الفارغ...وهيهات أن يحي وطن أو يستقل بالهتافات المترددة من الحناجر ،بين يحيا فلان ويسقط فلان."[21]

## 5- خاتمة :

مما سبق لا نجد إلا أن نصف الابراهيمي بأنه كان من أكثر المثقفين والعلماء الجزائريين والعرب المنافحين والمدافعين عن العروبة الحقة ، كيف لا وهو القائل في مقال له تحت عنوان (فلسطين ،واجباتها على العرب مايلي :"كاتب هذه السطور عربي ،يعتز بعروبته إلى حد الغلو، ويعتد بها إلى حد التعصب، ويفخر بأبوة العرب له إلى حد الإنتخاء"[22]

كما يجدر بنا القول :"على أن التأكيد على اللحمة القومية ووحدة المصير بين المشرق والمغرب هي المحور الأساسي لكل كتابات الابراهيمي،إذ قل ما نجد مقالا من مقالاته لا يؤكد على هذه الناحية أو يشير إليها من قريب أو بعيد،سواء في كتاباته التي تتناول القضايا الجزائرية المحلية أو كتاباته التي تعالج الشؤون العربية بصورة عامة ،مما حدا ببعض المستشرقين الاستعماريين ومن يواليهم في نزعتهم أن يوجهون إليه تهمة الشعوبية والتعصب العرقي والتطرف الديني في محاولة لتشويه المقاصد النبيلة التي كرس لها قلمه وفكره وجهاده وهي تهمه دفعها الكاتب عن نفسه في قوله :"هذا القلم ليس شعوبي اللسان،ولا غمس شفاهه في منكر،و لا تحلبت ريقته منكر التفريق".[23]

غير أن ما يميز البشير الابراهيمي عن غيره في هذا المجال هو اعتباره أن الوحدة العربية والقومية العربية تختلف كثيرا عن القوميات العربية والوحدات التي شهدتها بعض الدول الأوربية مثل إيطاليا أو ألمانيا (1870-1871م) والتي قامت بالقوة وحد السيف، فإن الوحدة العربية يجب أن تتحقق بشكل أكثر حضارية عبر مجالات اللغة العربية والأدب العربي وبأيدي أبناء الأمة من طليعتها المثقفة الواعية التي يجب أن تقود الجماهير نحو الأمل الكبير بتوحد العرب والمسلمين.

ومن الواضح أن الابراهيمي يجعل من الوحدة الحل الأفضل لكل المشاكل والتحديات الكبرى التي تواجه الأمة العربية في عصره،بدأ بالاستعمار ومرورا بالجهل والتخلف ، حتى أنه أقسم أن الحل الانفرادي لا جدوى منه فقال :"أما والله لن نفلت من مخلب الاستعمار فرادى ولن نفلت منه إلا يوم نصبح أمة واحدة تلقى عدوها برأي واحد وقائد واحد وقلب واحد،فإن لم نفعل فلا نلم الاستعمار ولنلم أنفسنا."[24]

**المصادر والمراجع :**

1- عبد الله شريط ،تاريخ الثقافة في المشرق والمغرب،ط1،م و ك ، الجزائر ،1983.
2- محمد الابراهيمي،ميلاد الجمهورية العربة المتحدة،الأثار،ج5.
3- محمد البشير الابراهيمي ،اتحاد المغرب العربي الكبير،الأثار ،ج04.
4- محمد البشير الابراهيمي ،معنى العيد ،آثار محمد البشير الابراهيمي،جمع وتقديم ،أحمد طالب الابراهيمي،ط1،دار الغرب الاسلامي،بيروت،1997.
5- محمد البشير الابراهيمي، أخوة الاسلام"،الأثار،ج4،ص6
6- محمد البشير الابراهيمي،"تعارف المسلمين مدعاة لقوتهم وعزتهم"،الاثار،ج4.
7- محمد البشير الابراهيمي،الاستعمار والشيطان ،الاثار ،ج5،ص95.
8- محمد البشير الابراهيمي،تقارب العرب بشير إتحادهم،الأثار ،ج4.
9- محمد البشير الابراهيمي،حرية الأديب وحمايتها ،الآثار ،ج5.
10- محمد البشير الابراهيمي،مشكلة العروبة في الجزائر ،الأثار،ج5.
11- محمد البشير الابراهيمي،ميلاد الجمهورية العربة المتحدة،الأثار،ج5.
12- محمد البشيرابراهيمي، إلى مؤتمر التعريب بالرباط،الآثار،ج5.
13- محمد البشيرالابراهيمي، أخوة الاسلام"،الأثار،ج4.
14- محمد البشيرالابراهيمي، من أنا ، مجلة الثقافة ،عدد87،ماي-جوان1985.
15- محمد البشيرالابراهيمي،كلمة لمجلة الاذاعة المصرية ،الاثار،ج4.
16- محمد البشيرلابراهيمي ،فلسطين واجباتها على العرب ،الأثار،ج3.
17- محمد البشيرلابراهيمي،اتحاد المغرب العربي الكبير،الاثار،ج4.
18- محمد دراجي ،المشرق العربي،(مواقف الامام الابراهيمي)،عالم الافكار،الجزائر ،2009.

19- محي الدين صابر،محمد البشير الابراهيمي والدعوة القومية ، الثقافة ،عدد87 ،ماي-جوان1985.

## الهوامش:

[1]- للمزيد أنظر،الابراهيمي، من أنا ، مجلة الثقافة ،عدد87،ماي-جوان1985،ص11.

[2]- محمد البشير الابراهيمي ،معنى العيد ،آثار محمد البشير الابراهيمي،جمع وتقديم ،أحمد طالب الابراهيمي،ط1،دار الغرب الاسلامي،بيروت،1997،ص482

[3]- الابراهيمي ،اتحاد المغرب العربي الكبير،الأثار ،ج04 ،ص302.

[4]- محمد دراجي ،المشرق العربي،(مواقف الامام الابراهيمي)،عالم الافكار ،الجزائر ،2009 ،ص 104.

[5]-محمد دراجي ، نفسه،ص129.

[6]- الابراهيمي،"تعارف المسلمين مدعاة لقوتهم وعزتهم"،الاثار،ج4،ص97.

[7]-محمد دراجي ،مرجع سابق ،ص145.

[8]- الابراهيمي،ميلاد الجمهورية العربة المتحدة،الأثار،ج5،ص215.

[9]- الابراهيمي،تقارب العرب بشير إتحادهم،الأثار ،ج4،ص243.

[10]- ، الإبراهيمي ، تقارب العرب ، مصدر سابق.

[11]- الابراهيمي، أخوة الاسلام"،الأثار،ج4،ص60.

[12]- الابراهيمي،كلمة لمجلة الاذاعة المصرية ،الاثار،ج4،ص376

[13]- نفسه.

[14]- الابراهيمي، إلى مؤتمر التعريب بالرباط،الأثار،ج5،ص266.

[15]-نفسه.

[16]-مقدمة محمد الهادي الحسني للكتاب ،الاثار ،ج5،ص26.

[17]- الابراهيمي،حرية الأديب وحمايتها ،الآثار ،ج5،ص211.

[18]- عبد الله شريط ،تاريخ الثقافة في المشرق والمغرب،ط1،م و ك ،الجزائر،1983م،ص26.

[19]-محي الدين صابر،محمد البشير الابراهيمي والدعوة القومية ، الثقافة ،عدد87 ،ماي- جوان1985،ص112.

[20]- الابراهيمي،مشكلة العروبة في الجزائر ،الأثار،ج5،ص150.

[21]- الابراهيمي،اتحاد المغرب العربي الكبير،الاثار،ج4،ص302.

[22]- الابراهيمي ،فلسطين واجباتها على العرب ،الأثار،ج3،ص452.

[23]- محي الدين صابر،محمد البشير الابراهيمي والدعوة القومية ،مجلة الثقافة،عدد87،ماي-جوان 1985م ،ص113.

[24]-الابراهيمي،الاستعمار والشيطان ،الاثار ،ج5،ص95.

# أسس التعاون الاجتماعي ولوازمه في فكر محمد البشير الإبراهيمي

**د. أمين خروبي.**
المركز الجامعي بأفلو.
البريد الإلكتروني: cu-aflou@cu-aflou.dz

**الملخص:**

يهتم هذا البحث بالكشف عن جانب من الجهود التي قدمها العلامة الجزائري محمد البشير الإبراهيمي؛ وهو واحد من العلماء الذين حملوا هموم الإصلاح في الجزائر في عصر استحكمت فيه قبضة المحتل الفرنسي على الجزائريين؛ و سادت بينهم مظاهر الخرافة والدروشة والدجل؛ وضربت عليهم المسكنة والأمية والجهل؛ وماتت فيهم روح المقاومة والنضال؛ وصار مبلغ جهدهم المطالبة السياسية الخاضعة بالحقوق المسلوبة؛ فهبّ الإبراهيمي و من معه يحاربون بالدين الصحيح الخرافة والدجل؛ وينيرون العقول بنور العلم والمعرفة؛ ويشحذون الهمم نحو النهوض والعمل. وقد كان اهتمام الإبراهيمي منصبا على ثلاثة محاور أساسية: تصحيح المفاهيم الدينية تهذيب الإسلام وتنقيته مما شابه؛ والإعلاء من شأن اللغة العربية وإعادتها إلى مكانتها؛ ومواجهة المحتل الفرنسي وإفشال مخططاته الاستعمارية في الجزائر. و قد أكد الإبراهيمي أن هذا المشروع الإصلاحي لا يتم ولا تقوم له قائمة إلا بالإتحاد وتوحيد الكلمة ورصّ الصفوف والاجتماع حول الأهداف المشتركة؛ وبيّن أن هذا التعاون الاجتماعي لا يكون حيويا بنّاء ولا يؤتي ثماره إلا إذا قام على بعض المقومات أو اللوازم و هي: الدين والأخلاق والعلم والمال؛ وإن أي خلل يمس أحد هذه المقومات سيكون عقبة في طريق المشروع الإصلاحي؛ ومن هنا يتبين لنا أن جهود الإبراهيمي لم تكن مجرد إصلاح ديني بمعناه الضيق؛ ولا مجرد حركة تحررية بمعناها السياسي القريب؛ بل كانت مشروع نهضة نحو التحرر والتقدم والتحضر.

**الكلمات المفتاحية :** التعاون الاجتماعي, الدين, الأخلاق, العلم, العمل.

**Abstract:**

This research reveals one side of the efforts done by Al Bachir Al Ibrahimi, the great Algerian erudite. He was a reformer in a time of French colonization where myths and drouchha and quackery and illiteracy spread among Algerians, and the spirit of resistance was no more alive in their souls, and their big demand was the political claim for their stolen rights. Then, Al Ibrahimi and his coleagues rised with the righteous religion fighting myths and quack, and illuminating minds with knowledge and encouraging Algerians for rising and working hard. Al Ibrahimi's interest was focused on three main axes : correcting religious concepts and refining Islam, and th exaltation of Arabic language into its right position, and facing the French colonizer and failing his plans in Algeria. Al Ibrahimi confirmed that the reforming project will not succeed without unity around a shared goals, and he showed that this social cooperation will not be vital and until it is built upon some rectifiers which are : religion and morals and knowledge and money, and each defect in one of these rectifiers would be an obstacle in the way of this reform project. therefore, Al Ibrahimi efforts were noe only a religious reform in its narrow meaning, nor a liberation movement in its near plolitical meaning, but i twas a renaissance project towards progress and civilization.

**Key words** : social cooperation, religion, morals, knowledge, work.

**مقدمة:**

لا شك أن الظروف التي وُلدت فيها جمعية العلماء المسلمين كانت في غاية الضيق والقسوة، وأن التحديات التي واجهتهم كانت في غاية الصعوبة والشدة، فقد نشأت الجمعية في ظل احتلال غاشم يخنق الأنفاس، وفكر طُرقي خرافي اختار الخمول والعمالة للمحتل، وأمّية ضاربة بأطنابها في مختلف ربوع الوطن، وتخلف مقيت في ميادين العلوم والحضارة، وقد كان عليهم مواجهة ذلك كله وإصلاحه بوسائل مادية محدودة وإمكانيات مالية ضئيلة، غير أن إيمانهم بالله وتمسكهم بقضيتهم وحرصهم على نيل حقوقهم مكّنهم

من الثبات على مواقفهم، والصمودِ في وجه كل تلك الصعوبات والمعوّقات. لقد شكّل هذا الوضع المزري شعورًا حادًا لديهم بالأزمة التي تمر بها الجزائر، فانتفضوا لإنقاذ وطنهم، وهبّوا لنصرة قضيتهم والحفاظ على هويتهم متسلحين بالعلم النافع والوعي الرشيد، ومتحلّين بالإيثار والصدق والصبر الراسخ والعزيمة النافذة، فذهبوا يبثون روح النهضة في نفوس الجزائريين، وراحوا يعلمون الجاهل، ويرشدون الضال، ويضربون العدو المحتل في مقاتله ويهدّون معاقل الظلم والاستبداد التي كان يبنيها منذ قرن من الزمن.

ولا ريب عندنا أن إصلاح الجمعية قد تناول مجالات عديدة: دينية وسياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية...، غير أنها قد ركزت، كما هو معلوم، على ثلاثة محاور أساسية: الدين الإسلامي، واللغة العربية، وتحرير الوطن. فهذه المحاور الثلاثة هي التي كانت تدور حولها معظم الأعمال الإصلاحية للجمعية، وفي هذه المحاور ذاتها كان اهتمامهم منصبًا منذ البداية على تصحيح المفاهيم الدينية، وبعث اللغة العربية وإعادة الاعتبار لها، لأنهم كانوا يعتقدون اعتقادًا راسخًا أن المعركة بينهم وبين عدوهم، بالدرجة الأولى، هي معركة هوية، قبل أن تكون معركة أرض ووطن أو معركة مصالح اقتصادية وسياسية توسعية، لأن القضاء على الهوية الأصلية، أي العربية الإسلامية، يسهّل على المحتل الفرنسي استبدالها بالهوية الفرنسية، ويمكّن له تثبيت أقدامه في الجزائر وتحقيق مصالحه فيها، ويزيل من نفوس الجزائريين الدواعي التي تدفعهم إلى مقاومته ورفضه كأجنبي أو كمحتل، ولذلك كان الفرنسيون حريصين على ضرب اللغة العربية؛ لأن العربية هي لغة القومية وهي محضن الإسلام ووعاؤه، وكانوا حريصين على تشجيعِ الفكر الديني الخرافي الليّن البعيد عن الدين الصحيح؛ لأن الدين الصحيح إنما يدعوهم إلى الجهاد ورفض الظلم والاستبداد، وحريصين من ناحية أخرى على ترسيخ الأفكار العلمانية الشرسة الرافضة لكل دين له حضور قوي في حياة الناس.

ويجدر بنا أن نتحدث عن مسألة في غاية الأهمية، وهي سبب اختيار الجمعية سبيل الإصلاح أولا دون سبيل الثورة، أي لماذا اختاروا الإصلاح وهم الذين طالما أكدوا على أن ما أُخذ استلابًا لا يمكن استرداده إلا غِلابًا ؟ والجواب يكمن فيما قدمناه، أي في الظروف التي أحاطت بالجمعية من: احتلال متمكن، وطرق صوفية ضللت الناس وقعدت بهم عن الجهاد، وأمية ضاربة ورضًا مستكين خاضع بالوضع القائم[1]، كل ذلك لا يساعد على قيام ثورةٍ فضلًا عن نجاحها، وهو ما يفسر لنا لماذا توقفت في هذه الفترة الحركات الثورية، وبدأت تظهر الحركات السياسية[2] والإصلاحية ؟ والجواب الثاني أن الجمعية كانت تريد للثورة أن تقوم على مبادئ إسلامية صحيحة وثابتة، فكان لزامًا عليها أن تبدأ بالتوعية والإصلاح.

وهنا يبرز دور البشير الإبراهيمي ويبزغ نجمه في سماء الجزائر التي تلبدت فيها ظلمات الأمية والجهل والخرافة، وكبلتها قيود الاحتلال والقمع الفرنسي، وأحاطت بها أسوار التخلف والركود، لقد ظهر الإبراهيمي في زمن تغوّل فيه الاحتلال وأحكم سيطرته، وتحولت فيه ثورات المقاومة إلى مجرد مطالبات سلمية سياسية بالحقوق، فبعض التيارات كانت تطالب بالاندماج، وبعضها الآخر ارتد على عقبيه خانعًا مواليًا للفرنسيين. لقد كان الإبراهيمي ومن معه يراقبون ما يحدث ويتابعونه عن كثب، وكان يقينهم يزداد كل يوم بأن الحل الأمثل يكمن في الإصلاح أولا، ثم في المقاومة الثورية المبنية على الأسس المتينة لهذا الإصلاح ثانيًا. إن إحياء القلوب بالمبادئ الروحية النهضوية، وتنوير العقول بالعلم الصحيح والوعي القويم، وتعبئة النفوس برفض الظلم والاستعباد، هو السبيل الأقوم للثورة الناجحة، إذ لم يكن هم الإبراهيمي ومن معه تفجير ثورةٍ كيفما اتفق، وإنما كان همهم إنشاء ثورة تقوم على مبادئ نبيلة، وأسس صحيحة، وأهداف شريفة، لقد

كانت نظرتهم شاملة وبعيدة المدى تتناول أسس الثورة، وطبيعة الثورة، وما بعد الثورة أيضا.

إن هذا التفكير وتلك الأهداف هو ما جعل ابن باديس والإبراهيمي ومن معهما يؤسسون الصحف والجرائد، وينشئون المدارس، ويبنون المساجد، بل هو ما جعلهم يؤسسون جمعيتهم التي استقطبت النخب الجزائرية ووحدت جهودهم، وكانت منارة لنشر العلم وبث الوعي في نفوس الجزائريين؛ وما ظنك بجمعية سطر الإبراهيمي برامجها وحدد أهدافها ورسم لها نهجها، وهو نهج مستمد من روح الإسلام وتعاليمه أولا، ومما حباه الله به من ملكات فكرية فذة ثانيًا، ومما حصله من علوم وخبرات في حياته ثالثا.

ولقد كانت المشاريع الإصلاحية لدى الإبراهيمي، ومن معه من علماء الجمعية، معتمدة أساسا على روح التعاون والاجتماع، ونابعة في جوهرها من أصول ثقافتنا وأصالتنا، ومتجهة في حقيقتها إلى عمق مشاكلنا وأزماتنا، وباحثة بإخلاص عن حلول ومقترحات تناسبنا، ومن هنا نستطيع أن نصوغ الإشكالية التي سننطلق منها من خلال هذه الأسئلة: ما طبيعة الاجتماع وفوائده عند الإبراهيمي ؟ وما الأسس التي يقوم عليها الاجتماع البناء ؟ وما لوازم هذا الاجتماع ؟

**طبيعة الاجتماع عند الإبراهيمي:**

يؤكد الإبراهيمي أن المشاريع الكبرى للأمة لا يمكن أن تتم إلا بالتعاون الاجتماعي والجهود المتضافرة والمشتركة، بل إن العمل إنما تزداد قيمته وتعظم ثمرته كلما ازداد اتصاله بالبعد الاجتماعي، بل إن الإبراهيمي يقول في ذلك "ويلتقي الكل عند أشرف غاية في هذه الحياة وهي أداء الواجب الاجتماعي"[3]، فأداء الواجب الاجتماعي هو من أشرف الغايات في الحياة. والاجتماع الذي ينشده الإبراهيمي ليس هو الاجتماع بمعناه العام

المعروف والذي هو طبع وشرط أولي في الحياة الإنسانية، فليس ذلك مما نحتاج إلى الحديث عنه، وإنما "نحتاج في الدرجة الأولى إلى تكوين اجتماع حيوي منتج يتفق مع الحياة العامة في العموميات ويلتئم مع الحياة الخاصة في الخصوصيات"[4]، فهو اجتماع ذو طبيعة حيوية وغاية إنتاجية هدفها النهوض بالأمة الجزائرية والارتقاء بها إلى مصاف الأمم المتقدمة علميا وحضاريا، وعلى هذا الاجتماع أن يسعى أولًا إلى "توحيد المجموعة البشرية في مظاهر الحياة وخوافيها، في الميول والأهواء، في العواطف والمشارب، في النزعات والتأثرات"[5]، وإذًا هو ذلك الاجتماع الذي يرتكز على قاعدة صلبة من الاتحاد في المنطلقات والغايات، ويحث على العمل المنتج والجهد المثمر الذي يخدم الحياة العامة والخاصة. ويصرح الإبراهيمي بأن الأمة الجزائرية لا تملك مثل هذا النوع من الاجتماع المنتج والبناء، والذي امتلكته بعض المجتمعات الأخرى فحققت غايتها في النهوض والرقي.

ولكي يبعد الإبراهيمي الأوهام عن بعض الاتجاهات الحديثة التي وجهت الاجتماع إلى غايات شيوعية تُلغى فيها الحقوق الفردية الخاصة، ويفقد فيها الإنسان إنسانيته ليتحول إلى حيوان غريزي وآلة منتجة – يبيّن حقيقة هذا الاجتماع بقوله "إن إرادة الحي غير إرادة الحياة، فالحي بصفته فردا يريد أن يحتفظ لنفسه بحق الاستئثار بقسطه الخاص من الحياة، وبصفته فردا من الأمة يريد أن يحتفظ لنفسه بحق تكوين اجتماعه كما يريد، ونحن في اجتماعنا هذا أو في حديثنا هذا من هذا القبيل"[6]، فالإبراهيمي يوضح أن طبيعة الاجتماع الذي يدعو إليه تقوم على مراعاة الحقوق العامة والخاصة معًا.

إن في الإنسان نزوعًا اجتماعيًا يفرضه قصوره الذاتي عن تحقيق جميع ضرورياته واحتياجاته ومصالحه بمفرده، وفي الإنسان نزوع فردي يفرضه الاستئثار وحب التملك والحرص على المصلحة الذاتية، وهو العامل الفطري الذي يعطي الدفعة الضرورية

والأولية للفرد نحو العمل والحركة المنتجة، وبهذا يمكننا أن نقول إن النزوع الفردي هو المحرك الأولي والأساسي للنزوع الاجتماعي؛ والاجتماع هو الحل الضروري لتحقيق الاحتياجات والمصالح الخاصة والعامة، أي أن للإنسان حاجات ومصالح لا يستطيع الحصول عليها بمفرده لأجل قصوره عن ذلك، فيلجأ إلى الانضمام إلى أبناء جنسه والاشتراك معهم لتحقيق جميع احتياجاته المعنوية والمادية، ومن هنا ينشأ الاجتماع كضرورة إنسانية، ولهذا السبب قيل "إن الإنسان اجتماعي بطبعه"، وبقدر تطلع المجتمع إلى الرفاهية والعيش المريح والحياة الرغيدة، ينشأ لديه نزوع حضاري يتجه به نحو المدنية والحضارة، ولهذا السبب قيل "إن الإنسان مدني بطبعه".

إن طبيعة الاجتماع الإنساني الذي يرمي إليه الإبراهيمي إنما ينطلق من توحيد الرغبات والميول والمشارب والتأثرات، ويتجه نحو غايات الإنتاج والنهوض والرقي والتحضر. وعلى هذا الاجتماع أن يراعي الحقوق العامة بحكم الاشتراك الموضوعي بين أفراد المجتمع، وأن يراعي الحقوق الإنسانية الخاصة بحكم الحق الفردي في الاستئثار والتملك الذي يمثل العامل الأساسي والدافع الأولي للسعي والعمل. وإذا كان الاجتماع الإنساني وليد الاحتياجات والمصالح القريبة، فإن ضرورته تتأكد وتشتد في حال الأزمات والمشكلات التي تتعلق بهويته ومصيره ووجوده، ولذلك فإنه، بالنسبة للأمة الجزائرية، اجتماع مصيري يتجاوز الاجتماع بالمعنى العام، إلى كونه اجتماعًا من أجل الحفاظ على الهوية، ومن أجل التحرر من المحتل المغتصب، ومن أجل التخلص من التخلف والانطلاق في اتجاه التقدم والتحضر.

بهذا التحليل يضع الإبراهيمي الأساس النظري للمشروع النهضوي الاجتماعي الذي يحقق الرقي للأمة الجزائرية كمشروع قومي وحضاري يخرجنا من جميع الأزمات التي أحاطت بنا من كل جانب، وجعلتنا أرضًا مهيأةً للأغراض الاستعمارية، ومرتعًا خصبًا

لأطماع الأمم القوية. إن الشعورَ بالأزمة والوعيَ بالمشكلة هو أول خطوة للمبادرة إلى النهوض، وإن ترشيد النهوض والتخطيط له هو السبيل الأسلم للنجاح وتحقيق الأهداف، وإن العزيمة النافذة والعمل المخلص الجاد هو المسلك الأنجع للوصول إلى الغايات.

لقد كان الإبراهيمي بمنزلة المنبه الذي دق ناقوس الخطر ونبه الأذهان إلى تلك الأزمات والمشكلات، والمهماز الذي حث المجتمع الجزائري للتحرك نحو العلم النافع والعمل المثمر، والمرشد الذي رسم للأمة طريق الفلاح ونهج الارتقاء، لقد كان الإبراهيمي ينظر إلى أحوال الأمة بعقل مستنير ناضج، وخبرة فذة عميقة، كوّنتها دراساته الواعية واطلاعه الواسع على أحوال الأمم والحضارات القديمة والحديثة، وفوق كل ذلك إخلاصه الصادق وحرصه الوفي على تخليص الأمة الجزائرية من كل ما يقيّد حركتها ويقف في طريق نهضتها وازدهارها.

**لوازم الاجتماع عند الإبراهيمي:**

يرى الإبراهيمي أن الاجتماع البناء المنتج لا بد أن تنشأ عنه "نهضة منظمة في جميع لوازم حياتنا القومية الخاصة، وألزم هذه اللوازم أربعة: الدين والأخلاق والعلم والعمل"[7]. هكذا يجعل الإبراهيمي هذه اللوازم الأربعة أهم مقومات النهضة التي يدعو إليها، فهي الأركان التي ينبغي أن ينبني عليها التكوين الاجتماعي، ويجب أن نضعها نصب أعيننا في عملية تأسيس نهضتنا وحضارتنا، وكل محاولة نهضوية لا تركز على هذه الجوانب الأربعة ولا تراعيها في بنائها الحضاري وتكوينها الاجتماعي هي محاولة محكوم عليها بالفشل، وستذهب جهودها هدرا في غير طائل. فتأمل في أي حضارة شئت وانظر هل قامت وتأسست إلا على هذه الأركان التي ذكرها الإبراهيمي ؟ ولا شك أن علماء الجمعية ومنهم

الإبراهيمي قد صرفوا جلّ اهتمامهم إلى هذه اللوازم، وبذلوا معظم جهودهم الإصلاحية في سبيل ترسيخها وتثبيت دعائمها في المجتمع الجزائري.

ولا نعجب بعد هذا ولا نتساءل لماذا ركز الاستعمار الفرنسي على هذه الجوانب وكثف جهوده التخريبية من أجل محوها أو تعطيلها أو تشويهها ؟ لقد كان الاستعمار الفرنسي يعلم تمام العلم أن هذه الجوانب هي أساس كل يقظة ومبدأ كل نهضة، وأن الأمة التي تنهض على هذه الأركان، أي الدين والأخلاق والعلم والعمل، هي أمة لا يمكن أن تُستعمر أو تُستعبد.

لقد سعت فرنسا منذ دخولها الجزائر إلى تقويض هذه الأركان واجتثاث أصولها من نفوس الجزائريين؛ لتقتل فيهم جوهر قوتهم ومبعث نهضتهم، فكانت يد المستعمر الفرنسي تعبث بخبث في هذه الأركان، وتعمل بمكر وجرم لتحطيمها وعرقلتها؛ وتسعى بجد إلى طمسها وتشويه صورتها. ولِمَ العجب وفرنسا هي سليلة روما التي لم يسجل لها التاريخ شيئًا يُذكر إلا توسعاتها الاستعمارية في بلدان الشعوب المستضعفة والمقهورة[8]، ولم يعرف لها التاريخ شيئًا من التسامح أو التعايش العادل مع الأديان الأخرى إلا القمع والتسلط؟!!

**اللازم الأول: الدّين:**

إن الدّين هو أهم تلك اللوازم أو الأركان عند الإبراهيمي ومن معه من علماء الجمعية؛ لكونه المكون الروحي الذي تحيا به القلوب، وتتغير به النفوس، وتندفع به القوى الكامنة في الإنسان إلى البناء والتحضر[9]، ولذلك كان الدّين الإسلامي أبرز ركن اهتمت به جمعية العلماء المسلمين في مشروعها الإصلاحي، وأخذ منها جهدا عظيما في تصحيحه وتهذيبه مما التصق به عن طريق بعض الفرق الإسلامية التي ظهرت في تاريخ الملة الإسلامية من جهة،

وفي صيانته من مكر الاستعمار الفرنسي الذي حاول طمسه ومحو آثاره من نفوس الجزائريين من جهة أخرى.

وحقيقة الدين الإسلامي عند الإبراهيمي تكمن في الرجوع به "إلى بساطته الأولى، وأنه دين الفطرة، وأنه لا يرجع في أحكامه إلا إلى النص القطعي من كتاب محكم أو سنة قولية أو عملية متواترة، وأن كل ما أُلصق بالدين من المحدثات فهو بدعة يجب اعتبارها ليست من الدين، وإن تراءت أنها في صورة ما يقتضيه الدين"[10]. فنفهم من هذا الكلام أن الإبراهيمي كان يحاول تخليص الإسلام من التفصيلات والتفريعات المتكلفة التي اتسمت به بعض الدراسات الإسلامية التاريخية، والتي أدت إلى تعقيده مع أنه في طبيعته دين بسيط يتماشى مع الفطرة، ويتناغم مع جميع الملكات الإنسانية دون أن يُحدِث معها أو بينها أي صدام أو تعارض، ونفهم منه تخليص الدين من المحدثات والبدع التي التصقت بالدين الإسلامي وتسمّت باسمه وليست منه.

وكثيرًا ما نجد الإبراهيمي يردد هذه الدعوة، أي الرجوع إلى الدين على ما كان عليه في عصره الأول حيث كان صافيا نقيا من الشوائب والزيادات التي لحقت به دون أن يكون لها أي داعٍ، والتي زادت من تعقيده وخرجت به في كثير من الأحيان عن مساره الصحيح، أي عمّا تقتضيه النصوص المحكمة للقرآن الكريم والسنة النبوية المنقولة بالتواتر، ولذلك كان من الضروري عند الإبراهيمي وعند علماء الجمعية أن يعملوا على تصحيح المفاهيم الدينية وتهذيبها مما شابها وعكر صفوها عبر قرون من الزمن، وهو ما أدى إلى اصطدامهم مع بعض الطرق الصوفية التي حادت عن الطريق الإسلامي الصحيح، ومالت إلى الخرافة والدروشة والخمول، وما زاد الطين بلة أن هذه الطرق قد تقاعست عن

مقاومة المحتل الفرنسي، وربما والته وخضعت له مؤثرة السلامة والهدوء على الجهاد والنضال والمغالبة.

وبسبب دعوة جمعية العلماء السلفية وبسبب مواجهتهم التصوف الخرافي المنحرف - وصَفَهم خصومهم بأنهم وهابيون نقلوا الوهابية من أرض الحجاز إلى أرض الجزائر، ولكننا نبادر فنقول إنه على الرغم من التشابه بين الدعوة الوهابية ودعوة جمعية العلماء، فإن دعوة الجمعية كانت مختلفة في عدة جوانب عن الدعوة الوهابية ولاسيما في المعاملات السياسية، وفي طريقة فهمهم للنصوص الدينية، وفي نظرتهم إلى الفرق الإسلامية المخالفة وتعاملهم معها، وفي موقفهم من المستجدات ومقتضيات العصر، وقد لا يتسع لنا هذا المقام لنفصّل في هذه القضايا.

ومما حرص عليه الإبراهيمي أيضا تبسيط الدين وتقريب حقائقه "من أذهان الأمة على السنّة الأولى في نشره، وهي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة"[11]، وقد كانت هذه الطريقة في الدعوة باللين والتسامح والتواضع مع التبسيط والتوضيح - سببا في انتشار دعوتهم والتفاف الناس حولهم.

والدين عند الإبراهيمي قبل كل شيء هو "دين عملي لا تستغرق معرفة أحكامه هذه العشرات من السنين التي يبددها طلّاب العلم الديني منّا"[12]، فالإبراهيمي حريص على الجانب العملي من الدين، أي الجانب المتصل بحركة الحياة وواقع المسلم؛ حتى لا تضيع الأوقات الكثيرة في متاهات التفريعات النظرية العقدية والبدع المحدثة التي شغلت المسلمين دهرا طويلًا عن كثير من الأمور المهمة وبخاصة ما يتصل بأمور دنياهم، ولم تكن تلك التفريعات والمحدثات سببا في تضييع الأوقات والمهمات من الأمور وحسب، بل كانت سببا في تبديد جهود الأمة في الجدل العقيم وزرع بذور الشقاق والخلاف بين أبنائها أيضا،

فتحولت الأمة بسبب ذلك إلى فرق وطوائف يتبادلون تُهم الضلال والخروج من الدين، ولا يخفى على الباحث أن ذلك كان من أسباب ضعف الأمة الإسلامية وتدهور أوضاعها.

ثم يلفت الإبراهيمي نظرنا إلى قضايا في غاية الأهمية، يمكن أن تُتخذ منهجا في نظرتنا الكلية إلى الأقسام الكبرى التي يتكون منها الدين، أي ما يتصل بالعقائد والعبادات والمعاملات، ولندع الكلام للإبراهيمي حتى يتضح المقصود، قال: "يجب الرجوع في طريق الاستدلال على العقيدة إلى طريقة القرآن، وهي إلفات النفس وتوجيهها إلى الاستدلال بالمخلوقات على الخالق"[13]، فيحاول الإبراهيمي كما ترون هنا أن يعيد الاستدلال إلى الطريقة القرآنية بعيدًا عن الطريقة الكلامية والفلسفية وتفصيلاتها العقلية العويصة والمعقدة، فطريقة القرآن تعتمد على النظر في المخلوقات للاستلال بها على الخالق سبحانه؛ لما ارتكز في العقول أنه ما من صنعة إلا ولها صانع، وأن عظمة الصنعة وإتقانها ونظامها ودقتها... تدل على عظمة الصانع وقدرته وعلمه وحكمته...

ثم قال: "وأن هناك فرقا عظيما بين العقيدة والعبادة والمعاملة، وأنه لا مدخل لغير المعصوم في إثبات ما هو عقيدة أو ما هو عبادة، وأن المعاملة مبنية على مراعاة مصالح البشر ونظام اجتماعهم العمراني، ولذلك كانت أغلب أحكام المعاملات المأخوذة من القرآن كليةً قلّ أن نحصل فيها على التفصيل، وأن الأنسب لسماحة الدين وبقائه وصلاحيته لكل زمان ومكان أن يكون للزمان والمكان والعرف والعادة والبيئة مدخل في تكييف أحكام المعاملات وتطبيقها على الحوادث الجارية"[14].

فقد كان الإبراهيمي يسعى جاهدا إلى تضييق مجال الاجتهاد في العقيدة والعبادة بقصرها على النص المعصوم أو الوحي، منعًا للعقل عن الخوض في تفريعات عقدية ليست من شأنه ولا طائل من ورائها إلا الجدل العقيم وتفريق صفوف الأمة كما تقدم،

ومنعًا للزيادة (البدعة) في مقادير العبادات على المقدار المشروع؛ فيقع المسلم في البدع والمبالغات التي تنتهي به في كثير من الأحيان إلى الانزواء في الزوايا والتكايا والصوامع سالكًا طريق الرهبنة، ومنعزلًا عن المجتمع مهملًا واجباته إزاءه، والقرآن الكريم يقول: "فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ" (الجمعة: 10)، وحالة الانعزال والرياضات النفسية المجهدة قد تنشأ عنها ضروب من الخيالات والأوهام التي تترجمها تلك الشطحات والعبارات الغامضة، وربما تحولت تلك الحالة إلى دروشة وجذب وانغماس في روحانيات تتوزعها بعد ذلك طرق صوفية كثيرة، وقد يستغل بعض المرضى والفسقة هذا الوضع فيحترفون فيه الدجل والخرافة والشعوذة. وكل هذا هو من مظاهر التخلف أو ما بعد الحضارة حسب مالك بن نبي، حيث قال: "وحينما يكون الفكر الإسلامي في أفوله، كما هو شأنه اليوم، فإن المغالاة تدفعه إلى التصوف، والمبهم، والغامض، وعدم الدقة، والتقليد الأعمى، والافتتان بأشياء الغرب"[15].

هكذا كانت نظرة الإبراهيمي إلى التعامل مع الدين، إنها نظرة معتدلة توازن بين حاجات الروح التي تمثلها العقيدة والعبادة، وبين حاجات الإنسان في حياته ومعاشه وما يقتضيه ذلك من معاملات ونظم اجتماعية ومدنية. ولأن أنماط الحياة الإنسانية تتجدد وتطورها، كان التشريع في المعاملات أكثر مرونة وسعة حتى يواكب الدين الإسلامي جميع المستجدات التي تقتضيها التطورات الإنسانية. والسؤال الذي يطرح ههنا هو: من أين استنتج الإبراهيمي فكرة التوازن هذه ؟

والجواب هو: من النصوص الدينية الإسلامية التي ترمي إلى الوسطية فيما نأخذ وما نذر، وتدعو إلى التوازن في أمور الدنيا والآخرة، واسمع لقوله تعالى: "وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا" (القصص: 77). وكذلك من استقراء التاريخ والواقع؛ لقد كان الإبراهيمي واعيا وعيا عميقا بكل ما يحدث لأمته من هوان واستعمار

مفروض عليها بالقوة، وبكل ما يحيط بها من مظاهر التخلف والجمود، وكان يتساءل كما تساءل غيره من العلماء عن الأسباب التي أدت إلى ذلك، فراح ينقب في ثنايا التاريخ يقرأ سطوره وما بين سطوره لعله يجد جوابا، وأخذ ينظر في واقعه الكئيب الذي يراه ويعيشه صباح مساء لربما يجد فيه الجواب، فلاح له من خلال ذلك أن الأمة الإسلامية تتقلب في وجودها بين بعدين: بعد ديني تتجه به نحو السماء وتلبي به حاجات الروح، وآخر دنيوي تلبي به مقتضيات المعاش وحاجات الجسد، ولاحظ الإبراهيمي أن الخلل إنما يأتي من تغليب أحدهما على الآخر أو من تعطيل أحدهما وتضخيم الآخر، والواقع أن ما حدث في الأمة الإسلامية لم يكن مجرد تغليب أو تعطيل وحسب، بل كان تشويها وخروجا عن المسار الصحيح أيضا، ولذلك كان من الضروري أن تسعى الجمعية إلى توضيحِ حقيقة الدين الإسلامي، ودفعِ المسلمين، في الوقت نفسه، إلى الاهتمام بشؤون دنياهم ليحصل لهم ما يرجون من قوة ومجد ورقي. وقد لخص الإبراهيمي كل هذا في مقاله "جواب عن أسئلة ثلاثة" بقوله: "ليست جمعية العلماء حركة دينية محضة بالمعنى المفهوم من أمثالها في الشرق الإسلامي، وإنما هي حركة كلية لها طرفان: أحدهما الدين بعقائده وأخلاقه وفضائله وروحانيته، والثاني الدنيا بقوتها ومالها وعزتها وسيادتها وعلومها، ولا فاصل بين الطرفين، ولا وجود لأحدهما بدون الآخر"[16].

ويدعو الإبراهيمي في سياق حديثه عن لازم الدين إلى أمر آخر ملازم للدين، ألا وهو اللغة العربية، أي "السعي في نشر اللغة العربية التي هي لغة الدين ولغة الآداب القومية ولغة التاريخ القومي"[17]، ولا شك ولا ريب أن اللغة العربية كانت من أهم القضايا التي تركزت حولها جهود جمعية العلماء، وكانت محورًا مهما من المحاور التي تدور حولها أعمالهم الإصلاحية، ولذلك اهتموا بتعليمها والمحافظة عليها والارتقاء بها والعودة بها إلى سابق عهدها وبيان فضلها، ولو لم يكن للعربية من الفضل إلا أنها لغة القرآن ولسان

الوحي لكفاها ذلك، فكيف وقد جمعت إلى هذا الفضل فضائل أخرى جعلتها ترقى وتزهو على جميع لغات العالم، واقرأ معي ما يقوله الإبراهيمي عن اللغة العربية: "لغة العرب قطعة من وجود العرب، وميزة من مميزات العرب، ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة... كانت، في قت ما، لسان معارف البشر، وكانت، في زمن ما، ترجمان حضارتهم، وكانت، في وقت ما، ناقلة فلسفات الشرق وفنونه إلى الغرب، وكانت، في وقت ما، هادية العقل الغربي الضالّ إلى موارد الحكمة في الشرق، وكانت، في جميع الأوقات، مستودع آداب الشرق، وملتقى تياراته الفكرية، ومازالت صالحة لذلك"[18].

وليست العربية لسان الدين ولغة القومية وحسب، بل هي لغة المدنية والعلم والحضارة، وإن عدم مشاركة العربية في لغة العلوم والحضارة اليوم لا يعود إلى عجزها أو قصورها، وإنما يعود إلى قصور أهلها وتخلفهم عن ركب الحضارة، وما ذنب العربية إذا قعد بها أهلها فتأخرت وسبقتها في ميادين العلوم والتحضر لغات أخرى، وإنه لمن المؤكد أن اللغة العربية ما تزال تمتلك من السعة والمرونة والثراء ما يجعلها قادرة على أن تسع علوم الآخِرين كما وسعت من قبل علوم الأولين، يقول الإبراهيمي: " لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب الفرس والهند... لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم... قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونُظمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والآداب والاجتماع، وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة والحاضرة"[19].

فالحفاظ على العربية هو في جوهره حفاظ على الدين الإسلامي والتراث الثقافي واللسان القومي، ومن الدواعي الأساسية إلى المحافظة عليها في تلك الفترة، هو مواجهة

المدّ التغريبي والحملة الاستعمارية الشرسة التي كانت تسعى إلى طمس الهوية العربية الإسلامية في الجزائر وفي غيرها من البلدان العربية والإسلامية.

**اللازم الثاني: الأخلاق:**

موضوع الأخلاق هو من المواضيع التي شغلت العلماء والفلاسفة منذ القدم لأهميتها، وتكمن أهميتها بالنسبة للفرد في أنها ضوابط تحكم سلوكه وتهذب غرائزه، وهي بالنسبة للجماعة مجموعة من القيم التي تحكم مختلف العلاقات المتبادلة بين الناس وتصون المجتمع من الانحلال. وتحديد طبيعة الأخلاق في كل مجتمع يعود إلى مرجعياته الدينية والثقافية بما فيها من أعراف وتقاليد وتواضعات، وحينئذ تختلف طبيعة الأخلاق ومعاييرها من مجتمع لآخر باختلاف تلك المرجعيات. وذلك لا ينفي وجود قدر مشترك من الأخلاق تتفق عليه كافة المجتمعات.

يقول الإبراهيمي عن ركن الأخلاق: "فنحن أحوج ما نكون إليه في هذا الزمان الذي كثرت فيه المبادئ العاملة على هدم الأخلاق الخيرية، وكثرت فيه الأذواق المتطرفة التي تستمرئ الرذيلة على الفضيلة. وإذا كان عقلاء الأمم التي هي أرقى منا بكثير تشكو فساد الأخلاق في أممها، فمن نحن وأين نكون ؟ فالواجب على اجتماعنا الذي ننشد تكوينه أن يبذل مجهودات قوية لرفع درجة الأخلاق عندنا"[20].

فالأخلاق هي ركن من أهم الأركان في بناء المجتمعات، ولا نبالغ إذا قلنا إنها أهم عنصر في تحقيق رقي المجتمع وتماسكه، وإنها من أهم العوامل في نشوء الحضارة وصعودها، وإنها هي التي تحفظ المجتمعات والحضارات بعد نشوئها من الزوال والاندثار، "فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا"، يقول الإبراهيمي في ذلك: "النهضات الصادقة تبدأ من الأخلاق

وتنتهي إلى الأخلاق"[21]، فنحن أحوج ما نكون إلى إصلاح الأخلاق وترميمها بعدما ظهر فيها الفساد وعملت فيها عوامل أو معاول الهدم.

ويرى الإبراهيمي أن نشر الأخلاق ومعالجتها ليس بالأمر العسير بالنسبة للعالم الإسلامي، حيث لا يتطلب الأمر سوى إحيائها، قال الإبراهيمي: "ومن فكري الخاص أن هذه الناحية من أمراضنا هي أيسر معالجةً من جميع النواحي إذا أحسنّا تسيير الجهود الفردية في التربية المنزلية، لأن لنا أساسا نبني عليه ولا يعسر جدّ العسر إحياؤه، وهو الأخلاق الإسلامية المتوارثة في الجملة، والتي نجد معظمها في القرآن في أوضح عبارة وأوضح بيان، ثم الأخلاق العربية المأخوذة من آدابهم التي هي أنفس ما خلفوه لنا من التراث"[22].

فقضية الأخلاق ترجع، عند الإبراهيمي، إلى ما جاء به الدين الإسلامي وإلى الموروث العربي منها على اعتبار أن الإسلام جاء متمما للأخلاق العربية الكريمة، فقد جاء عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (الحاكم: 2/ 613، وأحمد: 2/ 318)، وانطلاقا من هذا نستطيع القول إن مهمة المصلح تقتصر على التنبيه أو التذكير بتلك الأخلاق، ومنه فنستطيع أن نستنتج بأن أصول الأخلاق، في نظر الإبراهيمي، محدّدة سلفا وأمرها محسوم لاستنادها إلى الكتاب المنزل من عند الله الذي يعلم ما كان وما يكون، وهو بهذا يخالف بعض الاتجاهات التي ترى أن الأخلاق غير ثابتة أو غير أزلية، وإنما يخضع أمرها لتغيرات الزمان والمكان، ولتبدّل الظروف والأحوال.

وقد يحتاج تثبيت الأخلاق في المجتمع إلى قانون يمنع التجاوزات الأخلاقية ويرد الخارجين عن قانون الأخلاق إلى حضيرة الآداب العامة، قال الإبراهيمي: "فإذا تمكنا بالتدريج من قمع هذه الجراثيم الأخلاقية التي أفسدت مجتمعنا، وتكوين أفق مجتمع

صالح، نكون قد جنينا من اجتماعنا شيئا هو ثمرة الثمرات وفائدة الفوائد"[23]. وقد قيل قديما "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"، ولكي يكون قانون الأخلاق فعّالًا ومجديا لا بد أن يؤسّس على أخلاق القانون أيضا، أي أن يحرص القائمون على القانون على تنفيذه بأمانة وشجاعة، وأن يتحلى الناس بروح اتباع القانون واحترامه، هكذا يتحقق مفهوم المجتمع الصالح الذي ينشده الإبراهيمي على أرض الواقع، إذ لا معنى لكون الأخلاق اجتماعية إلا إذا سادت في المجتمع كله، بحيث يصبح هذا المجتمع ينظر إلى من يخالف الأخلاق والآداب العامة على أنه شاذ وخارج عن المتعارف عليه، فضلا عن التبعات القانونية الرادعة المطبّقة بعدل وشمولية لا تفرق بين خاص وعام من الناس، وحينئذ سيضطر هؤلاء الشذاذ إلى الاستتار والتخفي خوفا من معاتبات المجتمع وملاحقات القانون، وعندئذ يمكننا الاطمئنان على الأجيال الناشئة التي ستنشأ في جو اجتماعي صحي غير موبوء، ونظيف غير ملوث، وستنمو في بيئة تغذي نفوسَهم بدوافع الخير، وعقولَهم بمسالك الحقيقة، وأذواقَهم بمدارك الجمال، وعندئذ يرجى أن ترقى تلك الأجيال في مراتب العلم والتحضر بما شاءت لها قدراتها العقلية ومؤهلاتها الفكرية.

وإذًا فحقيقة التعاون الاجتماعي في التربية الأخلاقية تكمن في ذلك الانسجام والتناغم التربوي بين البيت والمسجد والمدرسة والشارع والمؤسسات ووسائل الإعلام والأماكن العامة... إلخ، فينبغي أن يكون هذا التعاون بمنزلة شبكة أو منظومة تملأ على الناشئ جوانب حياته ونفسه، وتسدّ عليه منافذ الشر والفساد، فينشأ طيب النفس، كريم الطبع، مستقيم التوجه، محبا للخير والصلاح. ومن المستحسن أن يكون للتحفيز والردع مكان في التوجيه الأخلاقي، على أن يكون معتدلا وبقدرٍ غير مفسد للدوافع الداخلية المتوثّبة نحو الجدّ والبذل، ولا للمحصِّنات الذاتية ضد التميّع والجهل.

وهناك أمر مهم جدا في مسار التربية الأخلاقية ألا وهو القدوة الصالحة؛ فينبغي أن يجد الناشئ القدوة أمامه منذ اللحظات الأولى من وعيه، أي من البيت الذي يدرج فيه، يقول الإبراهيمي: "وإن صالحةً يأخذها الابن من أبيه بطريق القدوة خير من ألف نصيحة باللسان"[24]، وبعد البيت يجب أن يجد النشءُ القدوةَ في جميع المواطن التي يرتادها: المسجد والمدرسة والشارع...، يجدها في الجار الخلوق، والمعلم المربي، وإمام المسجد الورع، والصديق المخلص، والتاجر الصدوق، والعامل المتقن، والمسؤول الأمين، والشرطي الحفيظ...؛ إنه حين يرى مظاهر الرحمة والعدل والإحسان والأمانة والإتقان والصدق والورع... قائمةً في مجتمعه مجسّدةً أمامه، فإن هذه المعاني ستنغرس في نفسه وتتغلغل في لاوعيه حتى تصير خلقا وطبعا فيه.

والإبراهيمي دائم التقريع على الذين يركزون على مثالب تاريخنا وتراثنا، ويغضون الطرف عن محاسنه وفضائله، وتجدهم في المقابل يخلعون أوصاف العظمة والتبجيل والتهويل على التراث الغربي والإنجازات الغربية، فينمو في نفوس شبابنا نوعٌ من النفور وعدم الثقة من جميع ما يحمله تاريخنا ويحويه تراثنا[25]، ونوعٌ من الانبهار المفرط بالغرب الذي يؤدي، في كثير من الأحيان، إلى اندفاع غير واعٍ إلى التقليد الأعمى الذي يضر أكثر مما ينفع ويفسد أكثر مما يصلح، ولو اقتصر الأخذ من الغربيين على الجانب العلمي النافع لما كان هنالك بأس. وعلينا أن نبيّن أنّ المقصود بالعلم هنا هو الإنجاز الإنساني الموضوعي الذي لا يتقحّم حدود الخصوصيات الثقافية، ولا يتحيّز لناحية من منطلق ذاتي أو شخصي، والعلم بهذه الصفة هو علم ذو طابعٍ كونيّ حياديّ لا صلة له بخصوصية مّا على أيّ وجهٍ من الوجوه، وينبني على هذا أنَّ الاستفادة ممّا أنجزه غيرنا من العلوم لا تعني بالضرورة الانسلاخ من جلدنا لنذوب في غيرنا، وذلك إذا التزمنا بالمنجز الإنسانيّ ذي

الطابع الكونيّ الموضوعيّ، فإذا ما تجاوزنا هذا المنجز الإنساني، دخلنا في مجال الخصوصيات.

ومنه فإنّنا نؤكد أنّ الانفتاح على الأمم الأخرى لا بدّ أن يكون مصحوبًا بوعي يحرس الخصوصيات الثقافية، ويصونها من التهجين (المسخ) ومن الاندثار (الفسخ)، وإنّنا ننشد ذلك الانفتاح الذي ينتج عنه تلاقح بنّاء ومثمر، تلاقح يطوِّر دون أن يدمِّر، ولاسيما أنّ العصر الحديث بوسائل اتصاله المتطوّرة قد فرض علينا عملية التأثير والتأثر على مختلف الأصعدة، وهي عملية التبس فيها العلم بالثقافة، أي العامّ الكوني بالخاص الذاتي، فالضعيف علميًّا وحضاريًّا يستهلك حضارة القوي ممزوجةً بثقافته الخاصة، أي ثقافة القوي، وهذا النوع من الاستهلاك ينشأ غالبًا عن اعتقاد الضعيف أن تلك الحضارة المادّية القوية إنّما نشأت عن ثقافة صحيحة أدّت إليها أو صاحبتها في مسيرتها على الأقل، ولذا فإنّ اعتقاد تلازم الحضارة المادّية والثقافة الغربية في الوجود ينتج عنه تلازمٌ مثله، بالضرورة، في الاستهلاك والاتّباع أيضا. هذا ما صرّح به ابن خلدون في مقدمته[26].

ولقد نبّه مالك بن نبي إلى المرحلة الخطيرة التي يمرّ بها التطور الثقافي في العالم الإسلامي؛ إذ أصبحت معظم الأعمال العلمية تسير في اتجاه الثقافة الغربية، وتستهدي بها في كل خطوة من خطواتها، إن لم نقل تردّدها وتأخذها بتسليم، عن وعي أو غير وعي، كما هي، لقد أصبحت المصادر المعتمدة في البحوث الجامعية ترتكز أساسًا على ما يكتبه الغربيون إمّا لافتقار مكتباتنا أم لمجرد التجانس والقرابة العقلية.... ويزداد عجب ابن نبيّ حين يرى "كثيرًا من الشباب المسلم يتلقون اليوم عناصر ثقافة تتصل بمعتقداتهم الدينية، وأحيانًا بدوافعهم الروحية نفسها، من خلال كتابات المتخصصين الأوربيين"[27].

لقد خلق هذا الوضع أزمة ما تزال تتردّد وتتجدّد منذ أن بدأت في أوائل القرن العشرين إلى اليوم، والتي ظهرت في شكل معارك أدبية، ثم تطورت لتشمل مجالات كثيرة: السياسة والدين والثقافة... وجميع العلوم الإنسانية، وكان ظهورها واضحا في تضارب نزعتي التقليد والتجديد أو ما سُمي بالصراع بين المحافظين والمجددّين، ثمّ تفاقم ذلك إلى أزمة صدام بين ثقافتين مختلفتين، وإن شئت فقلْ بين حضارتين: غربية متفوّقة متقدّمة، وعربية تراجع دورها الحضاري. أمّا العلم الطبيعي التجريبي والعلم المنطقي الرياضي، فلا صلة لهما بهذا الصراع، إذ ما يزال كل منهما يسير في تقدّمه غير مبالٍ بما يحدث من حوله، إذ لا اعتراض عليه من حيث هو علم، وإنّما يقع الجدل حول آثاره في حياة الإنسان ومصيره، أي حول كيفيّة استعماله، وطرق توظيفه، وحدود مجالاته.

**اللازم الثالث: العلم:**

لقد بلغ من اهتمام الجمعية بالعلم أن اتخذته شعارا لها، وجعلته غاية من أهم غاياتها، وفي تسميتها بجمعية العلماء ملمحٌ يشير إلى أنها جمعية أُسّست لنشر العلم وبذله في أوساط المجتمع، والإبراهيمي يتناول العلم هنا بالمفهوم العام، ويقرّر أننا فيه ضعفاء متأخرون عن الأمم الأخرى، يقول الإبراهيمي: "وأما اللازم الثالث وهو العلم بمعناه العام فالحقيقة الواقعة أننا لا زلنا فيه في مؤخرة الأمم"[28]، وهذا أمر جلي لا يماري فيه عاقل، وإنما يقع الاختلاف بين المهتمين بنهضة الأمة الإسلامية، في طريق النهوض وسبيل التقدم، أي يختلفون في المنطلق لا في الغاية.

وحين نتحدث عن الجمعية في هذه القضية يجب أن نضعها في سياقها التاريخي، أي ظروفها السياسية والاجتماعية والثقافية التي أحاطت بها آنذاك، ونستطيع أن نوجز هذه الظروف فيما يلي: الاستعمار الفرنسي، وحالة تفاقم الأمّية والجهل، واقتصار التعليم على

الطرق التقليدية المعتمدة في الزوايا والمساجد والرباطات[29]، ويمكن إضافة أمر آخر، وهو الفقر والعوز الذي كان يعاني منه معظم الشعب الجزائري. كل هذه الظروف كانت تنادي بضرورة التعليم وتعميمه وتوسيع مجالاته وإصلاح طرقه وبرامجه، وقد جعل الإبراهيمي العلم مناط الحياة الكريمة وسبب العزة والمجد، فقال: "الأمة التي لا تبني المدارس تُبنى لها السجون، والأمة التي لا تصنع الحياة يُصنع لها الموت، والأمة التي لا تعمل لنفسها ما ينفعها ويسعدها، يعمل لها غيرها ما يضرها ويشقيها... والأمة التي لا تكرم شبابها بالعلم والتثقيف مضيعة لرأس مالها... والحياة بلا علم متاع مستعار، والوطن بلا علم عورة مكشوفة ونهب مقسم"[30].

ولذلك بادر علماء الجمعية إلى بناء المدارس في مختلف ولايات الجزائر بقدر ما تسمح به إمكانياتهم، وهي إمكانيات قليلة وبسيطة آنذاك، فقد كانوا بحاجة شديدة إلى المساعدات المالية لبناء المدارس وتجهيزها وتوفير الرواتب للمعلمين وإعداد المسكن والملبس والمأكل للطلبة المقيمين بها، كل ذلك يستدعي أموالا كثيرة ومستدامة، ولطالما اشتكى الإبراهيمي من قلة الأموال واستجدى الأغنياء والمتبرعين لدعمهم في هذه المهمة النبيلة، وقد كانت أموال الزكاة مصدرا مهما لدعم هذه المدارس[31]، بالإضافة إلى ما يربحونه من تجارتهم. وقد لجأ الإبراهيمي إلى طريقة تحقق فائدتين: تعليمية ومالية، وذلك بتعليم أصحاب الحِرف الكتابة والقراءة مقابل مبلغ مالي، فيستفيد الحرفيون التعلم، وتستفيد الجمعية دخلا ماليا لمدارسها.

ومن أبرز الأهداف التي سعت إليها الجمعية هي القضاء على الأمّية، والأمّية آفة خطيرة قاتلة تموت معها كثير من المواهب والخصائص الإنسانية، ولنترك الكلام للإبراهيمي يحدثنا عن الأمّية وأخطارها، قال: "لا تفشو (أي الأمّية) في أمة وتشيع بين أفرادها إلا

فتكت بها وألحقتها بأخسّ أنواع الحيوانات، ومكّنت فيها للجهل والسقوط والذلة والمهانة والاستعباد. الأمّية... مرض فتاك، ونقيصة مجتاحة، ورذيلة فاضحة، وشلل وزمانة في جسم الأمة التي تبتلى بها... لا تفشو الأمّية في أمة إلا أفقدتها معظم خصائص الحياة. وأكبر جناية تجنيها الأمّية على الأمم هي القضاء على التفكير. والتفكير هو المعيار الذي توزن به القيم العقلية في الأمة سموًا وإسفافًا، ومحال أن يسمو تفكير الأميّ لأن تفكيره في قفص من الأمّية"[32].

ولم يفت الإبراهيمي، وهو يتحدث عن الأمية، أن يشير إلى أهمية العلوم التجريبية الحديثة التي نهضت بالأمم الحية اليوم، وصعدت بها إلى قمم التحضر والرقي العلمي، وذلك لما امتازت به من الجدّ في التحصيل العلمي والبحث التجريبي الدؤوب، غير أن هذه الأمم لم تصل إلى ما وصلت إليه إلى بعد القضاء على الأمية والتمكين لسبل العلم والبحث. فيقول الإبراهيمي: "إن الأمم الحية في وقتنا هذا ما حييت إلى بالعلم الاختباري التجريبي، وأساس هذا العلم، وإن علا، القراءة والكتابة"[33]، ولذلك وقع تركيز الإبراهيمي في عملية التعليم على الكتابة والقراءة أولًا، نظرا إلى نسبة الأمية المرتفعة بين الجزائريين آنذاك، وجريا مع مقتضى سنن التدرج في الترقي في العلم.

وقد انتقد الإبراهيمي مناهج التعليم القائمة على التلقين المحض ولاسيما في العقائد والعلوم الشرعية، لأنها مناهج لا تحث على النظر والتمحيص والانتقاد، بل تحث على التسليم والتقليد، وتؤدي إلى الجمود وقتل ملكة التفكير، وانتقد الذين أوصدوا باب الاجتهاد وقصروه على طائفة من القدماء وحدهم. وشجع الإبراهيمي، في المقابل، النظرَ والاستدلال والاجتهاد. وقد أكّد الإبراهيمي أن الطرق الصوفية هي التي رسخت فكرة التسليم والتقليد، فقد شعارها "سلِّم تَسْلَم"[34].

وقد بذل الإبراهيمي جهودا ضخمة في سبيل نشر العلم في الجزائر، نذكر أهمها على الترتيب التاريخي ما أمكن ذلك:

- عقد الندوات لإلقاء الدروس العلمية الخاصة بالطلبة الملازمين، مع إلقاء المحاضرات والخطب على الحشود المجتمعة في ساحات المدن وفي المساجد يوم الجمعة[35].

- تأسيس مدرسة صغيرة بمدينة سطيف "لتنشئة طائفة من الشبان نشأة خاصة، وتمرينهم على الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير بعد تزويدهم بالغذاء الضروري من العلم"[36]، وكانت الجهود منصبة في هذه الفترة، أي قبل تأسيس الجمعية، على الجانب التوعوي والتربوي أكثر من الجانب التعليمي.

- تأسيس جمعية العلماء المسلمين مع إخوانه سنة 1931م، وكان ذلك في فترة الاحتفالات التي أقامها الفرنسيون بمناسبة مرور قرن على احتلال الجزائر، وكان الإبراهيمي قد وضع قانونا أساسيا مختصرا لهذه الجمعية يدور على قواعد من العلم والدين لا تثير شكا ولا تخيف الحكومة الفرنسية التي كانت تقمع كل محاولة لتوعية الشعب الجزائري وتقتلها في مهدها، ثم كان له شرف وضع قانونها العام الذي تكوّن من مائة وسبع وأربعين مادة، وافق عليها كلها المجلس الإداري للجمعية[37].

- إنشاء مدرسة دار الحديث بمدينة تلمسان سنة 1937م، وهي مدرسة تحتوي على مسجد، وقاعة محاضرات، وأقسام لطلبة العلم، وقد اختار الإبراهيمي مجموعة من المعلمين لتعليم الصغار، وتولى هو تعليم الكبار، وقد كان للإبراهيمي جهود تعليمية مكثفة في هذه الفترة، حيث كان يلقي عشرة دروس كل يوم، يبدؤها بدرس في الحديث بعد الصبح، ويختمها بدرس في التفسير بعد العشاء، ثم ينصرف بعد ذلك إلى أحد النوادي لإلقاء محاضرة في التاريخ الإسلامي. وفي فترة العطلة الصيفية ينطلق الإبراهيمي

متجولا في مدن مقاطعة وهران وقُراها لإلقاء الدروس والمواعظ، ولتفقد الشُعَب والمدارس التابعة للمقاطعة.

- بناء المدارس في مختلف ربوع الوطن الجزائري، والتي أربت على أربعمائة مدرسة، وتكوين لجنة تهتم بوضع المقررات وتعيين المعلمين والمفتشين وتحديد التنظيمات والقوانين وتنظيم الندوات واللقاءات، وقد كانت الأموال التي بُنيت بها هذه المدارس كلها من أموال الشعب الجزائري، أي من تبرعاتهم التي جادت بها نفوسهم.

- إنشاء معهد للتعليم الثانوي بقسنطينة سنة 1947م يتسع لألف طالب أو يزيدون، سماه الإبراهيمي باسم رفيقه عبد الحميد بن باديس، وهو أول مدرسة ثانوية معرّبة في الجزائر. وأنشئت مع المعهد دارٌ لإيواء الطلبة الوافدين تتسع لسبعمائة طالب، وقد كان برنامج المعهد مقسما بين فترتين: صباحية ومسائية، أما الصباحية فتدرَّس فيها العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية والمنطق، وأما المسائية فتدرّس فيها علوم الرياضيات والطبيعيات والجغرافيا والتاريخ والصحة.

- إرسال البعثات العلمية الطلابية إلى بعض الدول العربية بعد إنهاء الدراسة في معهد قسنطينة، وقد بدأت البعثات بالدولتين القريبتين: تونس والمغرب، حيث بلغ عدد الطلاب فيهما ألفا ومائتي طالب، ثم انتقلت إلى بلدان المشرق أيضا كمصر وسوريا والعراق والكويت، وقد كان للفضيل الورتيلاني دور كبير في بعثات المشرق لصيته الذائع ومكانته هناك[38].

**الملازم الرابع: المال:**

لم ينس الإبراهيمي أن ينبه إلى دور المال كمقوم من أهم مقومات الحياة، وكأحد الركائز التي تستند إليها المجتمعات في نهضتها، فضلًا عن كونه عاملا محفزا للعمل ومحركا دافعا للنشاط الذي يزدهر به الاقتصاد، ويذكر الإبراهيمي في هذا الصدد أن صلتنا بالمال لم تنقطع، إذ إن الثروة ما تزال موجودة لدى الأفراد الذين يجتهدون بجدّ في جمعها، وموجودة كمالٍ موروث عن السابقين. ولكن وجود المال كثروة غير نامية وغير مستثمرة لا يكفي، ولذلك يقترح الإبراهيمي أن يتحمل أصحاب المال واجبين اثنين: "واجب الاحتفاظ بما هو موجود، وواجب استثمار الموجود حتى ينمو، وإذا أردنا القيام بالواجبين فلا بد لنا من اعتبار الأصول المرعية في كلٍّ من الاحتفاظ والاستثمار، وكلنا يعتقد أن الثروات التي نمت بين أيدينا إنما نمت بعد اطّراح أساليب التنمية العتيقة واستعمال الأساليب الجديدة"[39].

فبالإضافة إلى الاحتفاظ والاستثمار نجد الإبراهيمي يدعو إلى تطوير أساليب الاستثمار وطرقه، وعدم الاكتفاء بالأساليب القديمة، لأنها أساليب تقليدية لا تفي بغرض النهضة، ولا تتلاءم مع مرامي التطور الاقتصادي الحديث الذي ينشده الإبراهيمي، والذي سبقتنا إليه دول حديثة وقطعت فيه أشواطا بعيدة، وذلك عن طريق تطوير سبل التنمية الاقتصادية في بلدانها، فاحتلت مكانة مرموقة بين الدول المتقدمة، وهذا يدل على اطلاع الإبراهيمي على التنظيمات الجديدة في الاقتصاد وإدارة المال، ويدل على وعيه بما يحدث في عصرنا من تحولات هائلة وتغيرات سريعة لا تكاد تستقر على حال.

والإبراهيمي حريص جدا على بث روح التعاون والاجتماع في مختلف ميادين النهضة والتنمية، بل هو يؤكد أن النجاح في تلك الميادين مرهون بالتعاون وضم الجهود بعضها إلى البعض ولاسيما عند اشتداد الأزمات وتراكم المصائب، ولذلك يدعو الإبراهيمي ضمن

هذا الاقتراح أو المشروع إلى التمسك بمبدأ التعاون الاجتماعي، دون الانتقاص من قيمة العمل الفردي، لأن المجموع لا يتشكل إلى من الفرد، غير أن العمل الفردي إنما يكون نفعه فرديا في الأساس، أي أن الربح الأكبر يرتد إلى صاحبه في النهاية، ولذلك يحث الإبراهيمي على التعاون والاجتماع الذي يوحد الجهود ويجعلها أكثر قوة وإنتاجا، وأشد صمودا وثباتا في وجه الصعوبات والتحديات التي تفرضها المنافسة والمزاحمة في تحصيل المال وإنماء الثروة وتطوير الإنتاج كمًّا ونوعًا، إذ من عادة المزاحمة أن يُسحق فيها الضعيف تحت أقدام الأقوياء.

ويتساءل الإبراهيمي عن أسباب عدم خوضنا تجارب الاستثمار المبنية على مبدأ التعاون المالي، ويجيب عن هذا التساؤل بقوله: "المانع فيما أرى أنه لم تزل فينا بقية من التلفّت لماضينا المالي وما يصحبه من الراحة، وبقية من الخمول المميت، وبقية من الجبن، وبقية من الميل إلى العلم النظري، وبقية من التقليد في السطحيات، وبقية من العاطفة الجافة، عاطفةِ الالتذاذ بأحاديث ما قال الناس وما فعل الناس – هذه البواقي تظاهرها عقيدة القناعة والكفاف هي التي جلبت لنا هذا الشلل، أضيفوا إلى الكلّ تلك الخلّة المشؤومة التي ما زلنا نشكو إلى الله منها وهي عدم ثقة بعضنا ببعض. أفلا يتكوّن من هذا المجموع آفة مهلكة هي السبب في كل ما نشكوه من موت عاطفة التعاون المالي فينا ؟"[40]. هكذا يسرد الإبراهيمي الآفات والأمراض التي سببت الشلل والركود الاقتصادي في استثمار المال وتنميته في المجتمع الجزائري، إنه، في نظره، مجتمع ألِف الراحة والخمول والتقليد السطحي، وتهيّب جبنًا خوضَ غمار التجارب الاستثمارية، واتبع أحاديث القيل والقال، ورضي بالقناعة والكفاف، بالإضافة إلى فقدان الثقة بين بعضهم وبعض. وهذه آفات نفسية واجتماعية تتعلق بالإنسان نفسه، ولذلك كانت من أكبر المعوّقات والعراقيل في طريق التنمية الاقتصادية.

وبعدما بيّن الإبراهيمي ضرورة المحافظة على المال واستثماره، وأهمية والتعاون والاجتماع – قدّم اقتراحا تعاونيا وجّهه إلى الفلاحين والتجار خاصة، فقال الإبراهيمي: "والذي تقتضيه الحكمة الهادئة لنحفظ أنفسنا من هذه المزاحمة المريعة هو تأسيس شركات التعاون بين الفلاحين وشركات التعاون بين التجار لتقي الصغار من الجانبين شر تحكم الأجانب في أملاكهم ومجهوداتهم، ثم تأسيس مصارف مالية صغيرة تكون واسطة بين الجميع، وتكون مع ذلك مستودعا للأموال المخزونة المعطلة، ومرجعا لصناديق التوفير والاحتياط التي يجب أن تصحب هذه الحركة"[41].

ودعوة الإبراهيمي إلى إنشاء تعاونيات بين الفلاحين وبين التجار، وإلى تأسيس بنوك للتمويل والاستيداع - هي دعوة مبكرة بالنسبة إلى زمنها، وبالنسبة إلى ظروف البلد التي يتحكم فيها الاستعمار الفرنسي الذي فرض سيطرته على جميع المجالات، ويمكننا أن نجمل فوائد الاقتراح الذي قدمه الإبراهيمي في عدة نقاط:

- التمكن من إنشاء شركات محلية مستقلة تزاحم الشركات الأجنبية المحتكرة للسلع والمسيطرة على موارد التجارة.

- حماية صغار الفلاحين والتجار من هيمنة الأجانب على أملاكهم وتحكمهم في أعمالهم وجهودهم.

- تأسيس بنوك لتوفير الأموال وتمويل المشاريع الفلاحية والتجارية.

- فتح الباب أمام الاستثمار والتعاون الاجتماعي المالي في ميادين أخرى غير الفلاحة والتجارة.

**خاتمة:**

لقد كان الإبراهيمي سيلًا متدفقًا من العطاء والبذل، وسوطًا مسلطًا على الخرافة والدجل، وحربًا لا تعرف الهوادة على المحتل الفرنسي وأعوانه، وقدوة رفيعة في التضحية والصبر والنبل، ومثلا عاليا في التنظيم الإصلاحي والقيادة الرشيدة. لقد صنع لنا الإبراهيمي نموذجا من نماذج النهضات الناجحة التي بعثت المجتمع الجزائري وأيقظته من سباته، وحركة من الحركات الإصلاحية التي صححت المفاهيم وأنارت العقول ودعت إلى التحرر من المحتل الغاشم. لقد بيّن لنا الإبراهيمي بالواقع العملي كيف تتحول الآمال إلى حقائق، والمبادئ إلى مواقف، والأفكار إلى أفعال، والمشاريع النظرية إلى منجزات واقعية.

لقد كانت كتابات الإبراهيمي وخُطبه تهز نفوس الجزائريين وتوقظها، وتنير عقولهم وترشدها، وتحرك أفكارهم وتزعجها، وكانت في المقابل شهبًا تحرق الدجل وتفضحه، وأشواكًا تقض مضاجع الظلم وتدحره، لقد امتلك الإبراهيمي كل ما يلزم الرجل المصلح من عدّة عقلية وعلمية، وكلّ ما يلزم الرجل المناضل من صفات خلقية: شجاعة وعزيمة وصبر وإباء...، وكل ما يلزم الرجل القيادي من رؤيا وتخطيط وتنظيم وحزم.

والملاحظ بعد قراءتنا للإبراهيمي أنه كان يسير وفق منهج تُرتَّب فيه الأوليات، وتُراعى فيه المصالح العامة قبل الخاصة والبعيدة قبل القريبة، فلذلك كان من أولى الأولويات لديه ترسيخ العقائد الإسلامية الصحيحة بعد اطّراح ما شابها وشوهها من جدل عقيم وأباطيل محدَثة، وتحلية النفوس بالأخلاق الحميدة والقيم الرفيعة والمبادئ السامية بعد تخليتها من أمراض الرذائل والشهوات المنحطة، وتنوير العقول بالعلم بعد تحريرها من الجهل والخرافة والدجل، مع الاستعانة بإنشاء موارد مالية لدعم المشاريع الإصلاحية، وكل ذلك لا يتم ولا يؤتي ثماره، في نظر الإبراهيمي، إلا بتوحيد الجهود والمشارب والغايات، وإلا بالتعاون الاجتماعي والثقة المتبادلة، وكل عمل ينشد الإصلاح ويبتغي النهضة في

مجتمع ما ولا يكون له مساندون وأنصار، ولا يندرج ضمن تطلعات المجتمع وحاجاته، فإن مصيره الفشل.

لقد كان الإبراهيمي يهيئ جيل المستقبل الذي سيحرر البلد بنبل وشرف، ويقود الأمة الجزائرية بإخلاص وصدق، ويعيد المجد الضائع السليب باستحقاق وجدارة، ويبني الدولة التي تقام دعائمها على الرحمة والعدل والحق، وانظر إلى مقالته "الشباب الجزائري كما تمثله لي الخواطر" فإنك سترى خواطر قد تمثلت شبابًا طلائعيا نوعيا راقيا، شبابا يحمل جميع المزايا والمواهب: الروحية والعقلية والأخلاقية والعلمية والعملية... شبابا يتطلع بشغف إلى النهوض والتقدم والرقي... شبابا لا يعرف الولاء إلا لدينه وهويته ووطنه وأمته، ولم ينس الإبراهيمي، مع ما تشغله من قضايا وطنه وأمته، الاهتمام بالقضايا الإنسانية العامة التي تهم البشرية جمعاء، وما يتعلق بالتعاون فيما بينها في الأمور التي تخدم البشرية، وتلبي حاجاتها ومطالبها، وتحقق معاني السلم والتعايش والصلح والتسامح... التي تخلق جوا من الأخوة الإنسانية العامة، وقد جسد الإبراهيمي ذلك في مقاله: "الإنسان أخو الإنسان" وفي بعض مقالاته الأخرى.

**الهوامش:**

[1] هذا ما يسميه مالك بن نبي بالقابلية للاستعمار.
[2] مثل الحركات السياسية التي قادها الأمير خالد ومصالي الحاج والحزب الشيوعي... وغيرهم.
[3] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 1/ 51.
[4] المرجع نفسه، 1/ 51.
[5] المرجع نفسه، 1/ 51.
[6] المرجع نفسه، 1/ 51.
[7] المرجع نفسه، 1/ 51.
[8] ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 148.
[9] هذا ما أكده مالك بن نبي في بعض كتبه، انظر: شروط النهضة، ص:61.
[10] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 1/ 51.

[11] المرجع نفسه، 1/ 52.
[12] المرجع نفسه، 1/ 52.
[13] المرجع نفسه، 1/ 52.
[14] المرجع نفسه، 1/ 52.
[15] مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص: 24.
[16] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 4/ 88.
[17] المرجع نفسه، 1/ 52.
[18] المرجع نفسه، 3/ 281.
[19] المرجع نفسه، 1/ 376.
[20] المرجع نفسه، 1/ 52.
[21] المرجع نفسه، 4/ 222.
[22] المرجع نفسه، 1/ 52.
[23] المرجع نفسه، 1/ 53.
[24] المرجع نفسه، 4/ 222.
[25] المرجع نفسه، 4/ 222.
[26] ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة بن خلدون، طبع سنة 1429هـ-2008م، دار الكتاب العربي، بيروت، ص: 146.
[27] مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص: 54.
[28] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 1/ 53.
[29] من الأنصاف والحقيقة التاريخية أن نقول إن هذه المؤسسات التقليدية قد كان لها دور كبير في الحفاظ على القرآن وعلوم الشريعة واللغة العربية في زمن الاستعمار.
[30] البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 2/ 430.
[31] المرجع نفسه، 2/ 240.
[32] المرجع نفسه، 1/ 202.
[33] المرجع نفسه، 1/ 203.
[34] المرجع نفسه، 1/ 147. وعبد المالك مرتاض، الموسوعة التاريخية للشباب، محمد البسير الإبراهيمي، ص: 29.
[35] المرجع نفسه، 5/ 279.
[36] المرجع نفسه، 5/ 279.
[37] المرجع نفسه، 5/ 280-281.
[38] المرجع نفسه، 2/ 23.
[39] المرجع نفسه، 1/ 54.
[40] المرجع نفسه، 1/ 55.
[41] المرجع نفسه، 1/ 55.

## قائمة المصادر والمراجع:

- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة بن خلدون، طبع سنة 1429هـ-2008م، دار الكتاب العربي، بيروت.

- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتحقيق أحمد طالب الإبراهيمي، الطبعة الأولى 1997م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- مالك بن نبي، شروط النهضة، تحقيق عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق.
- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تحقيق بسام بركة وأحمد شعبو، الطبعة الثانية 1423هـ-2002م، دار الفكر المعاصر، بيروت.
- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تحقيق عبد الصبور شاهين، الطبعة الخامسة 1420هـ-2000م، دار الفكر، دمشق.
- عبد المالك مرتاض، الموسوعة التاريخية للشباب، محمد البشير الإبراهيمي، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث: الجزائر.

# المنهج التغيير في أدب محمد البشير الإبراهيمي

**Methodology of change in the literature of Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi**

**الأستاذ الدكتور : زرارقة الوكال D:zerarka louakal**

echihabe@yahoo.fr

**المركز الجامعي بأفلو. الجزائر.**

**ملخص :**

يعد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي كنزا جهاديا وفكريا وأدبيا ثمينا ، خلف آثارا فكرية وأدبية تلخص معالم جهاده ونضاله في سبيل النهضة بأمته وتخليصها من تخلفها وتأخرها ، وتحريرها من عدوها الّدّاخلي والخارجي ، فقد عايش واقع أمته الضرير المتسم بالتمزيق ، والتجهيل والتفقير فعمل على البحث عن سبل الخلاص من هذا الواقع من تراثه الديني والفكري مادام المرض معروفا وأسبابه معلومة .

**الكلمات المفتاحية**: منهج، تغيير، أمة، دين، أخلاق، اجتماع.

**Abstract**

Sheikh Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi is considered a precious jihad, intellectual and literary treasure, behind intellectual and literary traces that summarize the features of his jihad and struggle for the sake of the renaissance of his nation, ridding it of its backwardness and its delay, and liberating it from its internal and external enemy

**Key words:** approach, change, nation, religion, ethics, meeting.

يعد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رجلا عظيما وعالما جليلا ومجاهدا كبيرا وكنزا جهاديا وفكريا وأدبيا ثمينا ، خلف آثارا فكرية وأدبية تلخص معالم جهاده ونضاله في سبيل النهضة بأمته وتخليصها من تخلفها وتأخرها ، وتحريرها من محتلها الّدّاخلي قبل تحريرها من محتلها الخارجي ، فقد عايش واقع أمته الضرير ، ومأساتها الأليمة ، وأحداثها المريرة ، وما صنعه أعداؤها بها من تنكيل وتمزيق وإذلال ، وتجهيل وتفقير فغدت مشتتة ذليلة مهانة يتداعى عليها الأعداء كما تتداعى الوحوش على فريستها ، و سلبها أعداؤها كل أسباب النهضة حتى تبقى أسيرة تخلفها وتأخرها. إلاّ أنّ رحم هذه الأمة لم يعقم من إنجاب رجال لم يستسلموا للواقع الذي فرضه الأعداء عليهم ، فراحوا يبحثون عن سبل الخلاص من القيود والأغلال التي سلطت على أمتهم ،وتسخير كل الوسائل المادية والمعنوية في سبيل إخراجها من محنتها ومأساتها ، ولم يكن الأمر سهلا ، فالمرض عضال ، وما قام به الأعداء من تطبيق سياسات جائرة وممارسات ظالمة ، وإجراءات باغية ، تجذرت وتعمقت في واقع الأمة ، فصعُب على المصلحين استئصاله ، إلاّ أنهم لم ييئسوا مادام العلاج موجودا في صيدلية تراثهم الديني والفكري ومادام المرض معروفا وأسبابه معلومة .

والشيخ محمد البشير الإبراهيمي هو أحد هؤلاء الرجال المصلحين الذين صنعوا بسيرهم العظيمة مجد وطنهم وشعبهم وأمتهم بإصلاحهم وعلمهم وفكرهم ومواقفهم ، فكان بحق العالم العامل والمصلح المخلص الصادق والمجاهد المرابط . ومقالتنا ستتناول

قبسا من نور أعماله الجليلة لسعتها ، وقد اخترنا بالإحصاء والدراسة والتحليل الجهود الأدبية والفكرية لهذا العالم المصلح والأديب الجاد في مجلة "الشهاب" التي تعد قلعة إعلامية إصلاحية كبيرة كان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أحد جنودها وأقطابها ، وقد أسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس عام 1925م فصدر العدد الأول منها يوم الخميس 25 ربيع الثاني 1344هـ الموافق 12 نوفمبر 1925م بقسنطينة وظلت تصدر أسبوعيا زهاء أربع سنوات ، ثم بدأت تصدر شهريا ابتداء من سنة 1929م في صورة مجلة إلى سبتمبر سنة 1939م ، وكان آخر عدد لها في شعبان 1358هـ سبتمبر 1939م.، وتعد هذه المجلة الرائدة مصدرا رئيسيا لإنتاج الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلا أننا لا نكاد نظفر فيها إلا على القليل من إنتاجه الأدبي إذا ما قارنا ذلك بإنتاجه في جريدة البصائر الثانية " وهو المصدر الغني الخصب الذي لا تكاد تتصفح عددا من أعداد السنين الأولى أي قبل أن يرتحل الإبراهيمي إلى المشرق حتى تجد الإبراهيمي قد كتب فيه"(1)

ونجد إنتاج الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في أغلب أعداد هذه الدورية يبدأ من السنة الخامسة من صدورها ، ويتمثل هذا الإنتاج الأدبي في مجموعة خطب وملخصات لها ومقالات وهي على النحو الآتي مرتبة ترتيبا زمنيا :

1- خطبة ألقاها في حفلة تأبين فقيد العلم المرحوم الأستاذ ابن شنب عدد ماي 1929م

2- محاضرة ألقاها في رمضان 1347هـ بنادي الترقي ونشرت مجزءة في أعداد جوان وجويلية وأوت من سنة 1929م.

3- مقالة بعنوان الإنسان أخو الإنسان عدد سبتمبر 1929م

4- مقالة بعنوان الإنسانية آلامها واستغاثتها عدد فيفري 1930.

5- خطبة جمعية في جامع قرية رأس الوادي عدد مارس 1930م.

6- مقتطف من خطاب حول الخطابة والتمثيل عدد أفريل 1930م

7- تقرير عن الجلسة التمهيدية لجمعية العلماء المسلمين عدد ماي 1931م.

8- خطاب الجمعية دعوتها وغايتها عدد أوت 1933.

9- خطاب ألقاه في نادي الترقي أمام مجلس إدارة جمعية العلماء نشر بتلخيصه عدد أوت1934.

10- مقال بعنوان " آثار اعتقال الأستاذ العقبي في الأمة الجزائرية ونتيجته للدعوة الإصلاحية" عدد أكتوبر 1936م.

11- تمهيد وكلمة تصدير لعدد جويلية 1938م لمجلة " الشهاب" ومقالة بعنوان " كلمة في الاحتفالات ".

12- خطبة في ختم حفلة تكريم الأستاذ ابن باديس في كلية الشعب عدد جويلية 1938م.

13- خطبة بعنوان " العربية فضلها على العلم والمدنية ، وأثرها في الأمم غير العربية " عدد فيفري 1939م.

فهذا الإنتاج للشيخ محمد البشير الإبراهيمي والذي نشرته له مجلة " الشهاب " وإن كان قليلا مقارنة بإنتاجه في جريدة البصائر الثانية خاصة ، فإنّه يحمل ثقلا جهاديا عظيما ، وفكرا متبصرا جليلا ، ووعيا حضاريا متقدما ، وتصورا فكريا صحيحا لمعضلات الأمة وأمراضها وسبل علاجها وإخراجها من تخلفها وجهلها وفقرها وضعفها وذُلها والبلاء الذي فُرض عليها ، فكان ذلك مجسدا حقيقيا لمقاومة رجال الإصلاح وعلى رأسهم الشيخان ابن باديس والإبراهيمي. ، ولقد كانت هذه المقاومة في حقيقتها شاملة انصبت على تغيير الإنسان انطلاقا من قوله سبحانه وتعالى " إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" فيتحرر من الجهل والتخلف والفقر لينطلق بعد ذلك في تحرير الأرض وتخليص نفسه من الاستبداد والاستعباد فيعيش حرا كما أراد له الله ذلك ويحافظ على حريته وسيادته ، واستخدموا من أجل هذه العملية التغييرية الوسائل المتوفرة لديهم من مدرسة ومسجد وصحيفة فكانت بمثابة أسلحة لمقاومتهم.

وبتصفح وتفحص لإنتاج الإبراهيمي الأدبي المنشور في مجلة "الشهاب" نستطيع اكتشاف كثيرا من معالم فكره التغييري و جهاده ومقاومته للواقع الكارثي الذي كان يعيشه شعبه وأمته وتصوره الصحيح للمخرج منه ، وأول هذه المعالم التي يراها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مخرجا للأمّة هو **الاجتماع** أي الوحدة لما لذلك من فوائد وثمار

فالأمة المتفرقة المتخاذلة لا تصنع نهضة ولا تحقق وجودا " **ومن ثمرات الاجتماع ما تقرأونه في التاريخ من تغلب جماعات قليلة العدد قليلة المال على جماعات هي أكثر منها عددا وأوفى مالا- نعم إن فوائد الاجتماع لا تحتاج إلى بيان – فالاجتماع يحدث عن نفسه باللسان الفصيح – وآثار الاجتماع هي الحقائق العريانة – والشواهد الناطقة . فلئن تحدثنا في فوائد الاجتماع فإنما ذلك من باب التذكير والتنبيه ، ولم يزل التذكير في كل أطوار الإنسانية مددا روحانيا يثير الخامل إلى العمل ويحث العامل على مواصلة العمل.**"(2)

ويرى أنّ الاجتماع الحقيقي للأمة هو الاجتماع المنتج الذي يجب أن تسعى إلى تحقيقه وإيجاده على أن يلائم حياتها العامة في عمومياتها وحياتها الخاصة في خصوصياتها فلا تفتحا مفرطا ولا تعصبا قاتلا " **نحن لا نحتاج إلى بيان فوائد الاجتماع فقد أصبحت من البديهيات المسلمة ، وإنما نحتاج في الدرجة الأولى إلى تكوين اجتماع حيوي منتج يتفق مع الحياة العامة في العموميات ، ويلتئم مع حياتنا الخاصة في الخصوصيات.**"(3)

وهذا الأمر يحيلنا إلى حقيقة فهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي للمحافظة والتعامل مع الآخر فلكل أمة خصوصياتها التي هي أس حياتها وجوهر بقائها. ووجدنا هذه الحقيقة في خطبته التي أبّن من خلالها محمد بن أبي شنب " **ذلك أن الرجل محافظ ،**

**والمحافظة ألزم ما يكون لنهضة كنهضتنا لم تزل في طور الاختمار تتجاذبها العوامل الخارجية أكثر مما تكيفها الضرورات الداخلية فنحن أحوج ما نكون في هذا الموقف إلى محافظة مهذبة تسايرنا في أطوار الانتقال وتكون لنا قنطرة نعبر عليها من قديمنا إلى الصالح الذي ننشده ، وتقينا شر الذبذبة التي هي وليدة الفطرة."**(4)

وتتجسد حقيقة المحافظة في فكر الإبراهيمي من خلال شخص ابن شنب الذي يراه أنموذجا حيا في ذلك " **الرجل كان محافظا حقا ولكنه محافظ بالمعنى المعقول محافظ البصير الناقد الذي يرى أنّ مشخصات الأمم منها جوهر ومنها عرض وأنّ الجوهر منها هو الصالح للبقاء وأنّه لا بد للفرد ولا للجماعة في تكييفه كما يشاء أو كما تشاء وأن تطوره موكول إلى تدبير الاجتماع لا إلى تدبير الجماعات- وأن العرض منها هو محل التبديل والتغيير يصلح لزمن فيرخذ ولا يصلح لآخر فينبذ, فالمحافظة على جوهر المقومات ليست محافظة وإنما هي حفظ للقومية من الاندغام والتداخل وعماد لها أن تتداعى وتسقط. وأمّا الأعراض فهي قشور تتحول وتزول فهي كأوراق الخريف توجد وتعدم والشجرة شجرة."**(5)

وهو لا يرى في واقع أمته وجود اجتماع منتج لأن الأمة أصبحت تابعة لحياة عامة فرقتها شعوبا وقبائل ولن تستطيع هذه الحياة العامة أن توحد المجموعة البشرية في مظاهر حياتها في ميولها وأهوائها وعواطفها ومشاربها ونزعاتها لأن إرادة الحي كما يرى الإبراهيمي غير إرادة الحياة"**فالحي بصفته فردا يريد أن يحتفظ لنفسه بحق الاستئثار**

**بقسطه الخاص من الحياة – وبصفته فردا من أمة يريد أن يحتفظ لنفسه بحق تكوين اجتماعه كما يريد."**(6)

فحاجة الأمة في رأي الشيخ الإبراهيمي هو أن تسعى إلى تكوين اجتماع خاص تنتج عنه نهضة في جميع لوازم حياتها القومية وبحصر هذه اللوازم في أربع: الدين – الأخلاق – العلم – المال فإذا استطاعت ذلك حق لها أن تتفق مع الحياة العامة فتنجو من التبعية ، وتلتئم مع حياتها الخاصة في الخصوصيات فتحقق وجودها الخاص بها وتحافظ على أصالة كيانها المميز لها.

وأول لازم من تحويل الأمة من التخلف إلى النهضة ومن التشتت إلى الوحدة والاجتماع هو **الدين** الذي يشكل ركنا أساسيا من أركان النهضة العربية الإسلامية لكن أي دين يقصده الإبراهيمي؟ **"إنه دين الفطرة وأنّه لا يرجع في أحكامه إلاّ إلى النص القطعي من كتاب محكم أو سنة عملية متواترة وأنّ كلّ ما ألصق بالدين من المحدثات فهو بدعة يجب اعتبارها ليست من الدين وإن تراءت في صورة ما يقتضبه الدين."**(7)

ولذلك وجدناه في حديثه عن دعوة جمعية العلماء المسلمين وغايتها يركز على هذا اللازم الذي عدّه غاية شريفة على الجمعية أن تحققها إلى جانب غاية إحياء مجد اللغة العربية " **فأمّا إحياء مجد الدين الإسلامي فإقامته كما أمر الله أن يقام بتصحيح أركانه الأربعة العقيدة والعبادة والمعاملة والخلق فكلكم يعلم أنّ هذه الأركان قد**

**أصبحت مختلة وأنّ اختلالها أوقعنا فيما ترون من مصائب وبلايا وآفات."**(8) ويرى بأن هذا اللازم لا يمكن إقامته إلاّ بتطهير العقيدة مما شابها من خرافات وبدع ومعتقدات باطلة وتعزيز النفوس وإغنائها بالآثار الجميلة التي هي الباعث الأكبر على الكمال الروحي والعودة إلى تحكيم أحكام الدين والالتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه. ويرى أنّ البعد عن الاحتكام إلى الدين أدّى إلى اختلال عام على المستوى الفردي والجماعي فانفرط عقد المجتمع وتشتت" **فانتهكت الحرمات واستبيحت المحرمات وتفككت روابط الأسرة الإسلامية وقطعت الأرحام وتعادى المسلمون وتباغضوا وتنكر الأخ لأخيه – وضعف الوازع الديني الذي يهيء النفوس للانطباع بطابع واحد فأصبحت مستعدة للتكييف بما يقبح وما يحسن- ثم غلب ما يقبح على ما يحسن فخرجت الفضيلة الإسلامية من عقل المسلم ومن نفسه وحلت محلها الرذيلة."**(9) ويرى الشيخ أنّ ما زاد هذا الاختلال حدّة وتعفنا التواجد الأجنبي في مجتمعنا بما جاء به من عادات وأخلاق خاصة به ، فسهل عليه بسط سياسته ونفوذه لأنّ أجواء الأمة كانت مهيئة لذلك ووجدت عاداته وأخلاقه " **السبيل ممهدا ووجدت نفوس المسلمين عورات بلا مدافع ولا محام فتمكنت فيها ومكنت لغيرها والشر يعدي وكان من نتائج ذلك ما ترون من انحلال وتفكك."**(10)

ولأهمية لازم إقامة الدين في الأمة يدعوا الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلى:

1- تقريب حقائق الدين من أذهان الأمة على السنة الأولى في نشره وهي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

2- إقناع الأمة بأنّ هذا الدين هو دين عملي.

3- وجوب الرجوع في طريق الاستدلال على العقيدة إلى طريقة القرآن.

4- التعامل في الدين بناء على مراعاة مصالح البشر ونظام اجتماعهم العمراني " **وأنّ الأنسب لسماحة الدين وبقائه وصلاحيته لكل زمان ومكان أن يكون للزمان والمكان والعرف والعادة وللبيئة مدخل في تكييف أحكام المعاملات وتطبيقها على الحوادث الجارية. وأنّ التاريخ شهد بأنّ أسلافنا كانوا يراعون هذا المعنى في إدارتهم الإسلامية وفي سياستهم للشعوب الأخرى.**"(11)

ويرى بأن تحقيق لازم الدين في اجتماع الأمة ونهضتها ملازم ومرتبط بسعي الأمة في نشر لغتها العربية التي هي لغة الدين ولغة الآداب القومية ولغة التاريخ القومي وكذلك نشر التاريخ الإسلامي الصحيح بلغته المتضمن للثقافة العربية الإسلامية. وقد أخذ موضوع اللغة العربية اهتماما واسعا في السياسة الإصلاحية للشيخ محمد البشير الإبراهيمي من خلال خطبه ومقالاته المنشورة في مجلة " الشهاب" فهو يجعلها غاية شريفة بعد غاية الدين في أهداف جمعية العلماء المسلمين التي تعمل جاهدة على إحياء لسانها لأنّه " **لسان هذا الدين والمترجم عن أسراره ومكنوناته – لأنه لسان القرآن**

**الذي هو مستودع الهداية الإلهية العامة للبشر كلهم – لأنه لسان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم صفوة الله في خلقه والمثل الأعلى لهذا النوع الإنساني الذي هو أشرف مخلوقات الله – ولأنّه لسان تاريخ هذا الدين ومجلي مواقع العبر منه، ولأنه قبل ذلك وبعد ذلك لسان أمة شغلت حيزا من التاريخ بفطرتها وأدابها وأخلاقها وحكمها وأطوارها وتصاريفها في الحياة ودولها في الدول وخيالها اللامع الخاطف الذي هو أساس فنها."**(12)

ولخطورة اللغة في الاجتماع البشري وما ينتج عن إهمالها من أبنائها وما يخلفه ذلك من آثار خطيرة على وجود الأمة ، فإنّ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يرى في إضاعتها إضاعة للدين الذي هو اللازم الأساس للاجتماع والنهضة وكذلك إضاعة للتراث والتاريخ ، لأنّ اللغة كما يرى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي " **هي المقوم الأكبر من مقومات الاجتماع البشري وما من أمة أضاعت لغتها إلاّ وأضاعت وجودها واستتبع ضياع اللغة ضياع المقومات الأخرى."**(13) فإحياء اللغة العربية والاهتمام بها لازمة لإحياء الدين ومن ثمة إحياء الفضيلة في النفوس والتمتع بالحياة كما أراد الله.

وفي ذات الموضوع نشر للشيخ البشير الإبراهيمي خطبة موسومة بـ : **"العربية فضلها على العلم والمدنية وأثرها في الأمم غير العربية"** فصّل فيها فضل اللغة العربية على العرب والمسلمين والعالم بما قدمته للعلم والمدنية من خدمات جليلة وفضائل عظيمة متبعا في ذلك مسارها التاريخي والعلمي ومما توصل إليه هو أنّ العربية " **لم**

**تخدم مدنية خاصة بأمّة ، وإنّما خدمت المدنية الإنسانية العامة مدنية الخير العام والنفع العام ولم تخدم علما خاصا بأمة وإنّما خدمت العلم المشاع بين البشر بجميع فروعه النافعة ومن يستقرئ خاصة هذه اللغة لعلم الطب وحده يتبين مقدار ما فاءت هذه اللغة على البشرية من خير ونفع."**(14) وقصد الخطيب من وراء ذلك إلى :

1- الإشادة بفضل هذه اللغة والوفاء ببعض حقها .

2- تحفيز همم أبنائها في عدم التهاون في خدمتها أو التقصير في حقها.

3- إعلان المعنى الذي قامت جمعية العلماء بتحقيقه وهو إحياء هذه اللغة وإحياء الدين الذي ترجمت محاسنه واضطلعت بحمل أسراره.

فإحياء اللغة العربية في فكر الإبراهيمي لا ينحصر في خدمة قومية بعينها وإنما يتعدى ذلك لخدمة المجتمع البشري والحضارة الإنسانية ، وتاريخ هذه اللغة وأفضالها على البشرية دليل صريح على ذلك.

أمّا اللازم الثاني بعد لازم الدين في بناء اجتماع الأمة ونهضتها فهو **الأخلاق**، وقد استمد الإبراهيمي هذا اللازم من دينه الإسلامي بدلائله وأصوله " **وهي أنّ الأمم لا تقوم ولا تحفظ وجودها إلاّ برسوخ الأخلاق الفاضلة في نفوس أفرادها."**(15) فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ودعا الأمة إلى القيام بهما لأنّه دين اجتماع وعمران وحياة وبقاء. وتركيز الإبراهيمي على هذا اللازم لأنه لصيق بلازم الدين فهي شعب الإيمان وكذلك لما رآه من

انتشار المبادئ العاملة على هدم الأخلاق الفاضلة الخيرية وكثرة الأذواق المتطرفة التي تستمرئ الرذيلة على الفضيلة، ولما رآه من اختلال في الخلق لدى الأمة وما جرّه عليها من بلاء مبين.

ولعلاج اختلال الأخلاق في الأمة لتصبح صحيحة أخلاقيا وتكون قادرة على بناء الاجتماع والنهضة يرى محمد البشير الإبراهيمي " **أنّ هذه الناحية من أمراضنا أيسر معالجة من جميع النواحي إذا أحسنا تسيير الجهود الفردية في التربية المنزلية لأنّ لنا أساسا نبني عليه ولا يعسر جد العسر أحياؤه وهو الأخلاق الإسلامية المتوارثة في الجملة والتي معظمها في القرآن في أوضح عبارة وأوضح بيان ثم الأخلاق العربية المأخوذة من آدابهم التي هي أنفس ما خلفوه لنا من التراث.**

**فإذا تمكن بالتدريج من قمع هذه الجراثيم الأخلاقية التي أفسدت مجتمعنا وتكوين أفق أخلاقي صالح نكون قد جنينا من اجتماعنا شيئا هو ثمرة الثمرات وفائدة الفوائد."**(16)

أمّا اللازم الثالث في خطة الإبراهيمي التغييرية في المجتمع والأمة لتحقيق اجتماعها ونهضتها فهو **العلم** ، فلا نهضة ولا اجتماع بدونه ولذلك سعت الحركة الإصلاحية في عمليتها التغييرية على ترسيخه في أرض الواقع وتجسيده بما يحقق للأمة مبتغاها ، ويوصلها إلى أملها من مسعاها، وبدأ ذلك يتجسد في الناشئة الذين كانوا بمثابة تباشير صبح النهضة الجديدة الذين فتحت لهم الحركة الإصلاحية فرص التعلم لأنها رأت أن

البقاء في هذا المعترك الحياتي الدنيوي هو للأنسب ولا يكون هذا الأنسب إلاّ بالعلم ، ويرجع الإبراهيمي أن تأخر الأمة هو بعدها عنه ، فحقيقة وواقع الأمة خير شاهد على ذلك فهي في مِؤخرة الأمم ، وبدلا أن تكون متبوعة فهي تابعة . ويكبر أمل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في تحول الأقوال إلى أفعال والآمال إلى أعمال فيما رآه يتجسد في جمعية العلماء المسلمين في اهتمامها بهذا اللازم وإقامته **" أيها الإخوان الكرام : إنني لم أر مثلا أضربه لجمعيتكم هذه وهي لم تزل في المهد إلاّ شيئا نسميه تباشير الصبح – هو تلك اللمع المتفرقة من النور في الشرق قبل أن ينشق عمود الفجر – يرتاح لها الساري في ظلمات الليل لأنه يرى فيها العنوان الصادق على قرب الخروج من المعاسف والخبط في مضلات السبل. ويرتاح لها المهموم الساهر الذي يبيت يراعي النجوم لأنه يرى فيها متنفسا وسببا لسلواه وإن لم تكن حدّا لبلواه، ويرتاح لها المقرور الشاتي لأنّه يرى فيها مخايل من آية النهار. ويرتاح لها الناسك لأنّه يسمع فيها الدّاعي المثوب بعبادة ربه ، ويرتاح لها الشاعر لأنّه يرى فيها مسرحا لخياله وأفقا لروحانيته ، ويرتاح لها العامل الملتذ بعمله لأنّه يرى فيها ألأمارة المؤذنة بقرب وقت العمل ."**(17)

فهذا الخطاب يكشف ما للعلم من أهمية في حياة الأمة الدينية والدنيوية ، كما يكشف لنا الواقع الذي تعيشه الأمة من عتمة الجهل ودياجير التخلف والضلال وأسر

الهموم ومخالب البطالة والانكسار وهذه الأمراض والأسقام لا علاج لها إلا إذا انتهجت الأمة سبيل العلم.

لكنّ العلم في نظر محمد البشير الإبراهيمي لا يمكن للأمة أن تحققه في واقع حياتها إلاّ عن طريق **المال** الذي هو اللازم الرابع الذي وضعه الإبراهيمي لاجتماع الأمة ونهضتها " **وغاية ما نبني عليه الأساس في هذا الباب هو هذا الشعور الذي نشاهده في جميع طبقاتنا وأوساطنا بلزوم العلم وهذه الرغبة المتأججة في صدور الناشئين منا للعلم ودوننا في الوصول إلى القدر الصالح من عقبات أكبرها فقدان المال فلو اجتمعنا وتظاهرنا وملأنا الدنيا أقوالا لما أفدنا ذلك من العلم قليلا ولا كثيرا بدون مال.**"(18) فالعلم في نظر الإبراهيمي قرين المال وأخوه في تكوين الحضارة الوقتية تفيد المزاحمة فيه ولا تضر وللوصول إليه لا بد للأمة أن تتخذ الأسباب المؤدية إليه بالاحتفاظ والاستثمار، واتباع كل ما يؤدي إلى نموه وإكثاره ، فلا قيمة للأمة بين الأمم الغنية المعتزة بغناها إذا لم يكن لها قيمة مالية في السوق العالمية الكبرى.

هذه بعض معالم وملامح الخطة التغييرية الإصلاحية التي دعا إليها محمد البشير الإبراهيمي وعمل على ترسيخها وتجسيدها في واقع أمته ، وسعى من خلالها إلى مقاومة ما كانت الأمة تتعرض إليه من تجهيل وتفقير وتخلف وإبعاد وتهميش ، والعمل على إرجاعها إلى طبيعتها الريادية كما أراد الله لها ذلك تحمل شعار الخيرية للعالمين .

وستبقى لهذه الأسلحة الإبراهيمية جدواها في نهضة الأمة ووحدتها والتحاقها بركب الكبار لأنّ واقع الأمة اليوم هو ذاته واقع الأمة بالأمس فمازالت هذه الأمة تتخبط في جهل وتخلف وفقر وتبعية. والواقع والدراسات والإحصاءات والأرقام خير دليل على ذلك.

لقد وقف محمد البشير الإبراهيمي على واقع الأمة فشخص المرض وحدد السبب ووصف العلاج المتمثل في :

1- الرجوع إلى الدين الصحيح ، دين السلف الصالح المستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.
2- الجوع إلى الأخلاق الفاضلة الطاهرة .
3- السعي الجاد والصادق في طلب العلم والانقطاع والإخلاص له والصبر عليه لأنّه ضرورة للنهضة والعزّة والبقاء.
4- العمل والإنتاج لتحقيق الكرامة والسيادة وعدم الرضوخ للغير.

كما أن الإنتاج الأدبي للشيخ محمد البشير الإبراهيمي المنشور في مجلة "الشهاب" بين لنا البعد الإنساني الشامل في فكر هذا العالم الجليل وتصوره الصحيح للانفتاح على الآخر والتعاون معه في إطار الأخوة الإنسانية مع الفهم الصحيح للمحافظة على القيم والأخلاق القومية. وكل هذا الفهم الصحيح والثاقب تشربه من دينه الإسلامي الصحيح .

## الهوامش:

1- عبد الملك مرتاض ، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط2، 1983م ، ص123.

2- محمد البشير الإبراهيمي ، في الشهاب ، ج5م5 ، جوان 1929، ص213.

3- المصدر نفسه.

4- المصدر نفسه ، ص158.

5- المصدر نفسه.

6- المصدر نفسه ، ص214.

7- المصدر نفسه.

8- محمد البشير الإبراهيمي ، في الشهاب ج9م9 ، أوت 1933م ، ص391.

9- المصدر نفسه، ص392.

10- المصدر نفسه.

11- محمد البشير الإبراهيمي ، في الشهاب ، ج6 م5 ،جويلية 1929 ، ص272.

12- محمد البشير الإبراهيمي ، في الشهاب ، ج9 م9 ، أوت 1933م ، ص393.

13- الصدر نفسه ، ص394.

14- محمد البشير الإبراهيمي ، في الشهاب ، ج1 م10، فيفري 1939م ، ص19.

15- محمد البشير الإبراهيمي ، في الشهاب ، ج9 م9 ،ص392.

16- محمد البشير الإبراهيمي ، في الشهاب ، ج6 م5 ، جويلية 1929م ، ص273.

17- محمد البشير الإبراهيمي ، في الشهاب ، ج9 م9 ، أ,ت 1933م ، ص396.

18- محمد البشير الإبراهيمي ، في الشهاب ، ج6 م5 ، جويلية 1929م، ص275-276.

# آفاق البعد اللغوي وآليات تجسيده عند العلامة محمد البشير الإبراهيمي

# The horizons of the linguistic dimension and the mechanisms of its embodiment according to the scholar Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi

بن زينة صفية Benzina safia
قسم اللغة العربية كلية الآداب والفنون جامعة الشلف
Safou_nour@hotmail.com

**الملخص:**

تسعى هذه الدراسة إلى إبراز بعض النماذج التي استخدمت فيها اللغة العربية وبيان أثرها عند محمد البشير الإبراهيمي وأهميتها في حثّ الجزائريين على مجابهة المستدمر، بواسطة أساليب رفيعة ،وألفاظ متناسقة، فاللغة سلاح من لا سلاح له خاصة في تلك الظروف التي عاشها الشعب الجزائري إبن الاستعمار، حيث سعى الإبراهيمي جاهدا بخطبه وحتى بشعره وحركته الإصلاحية إلى توحيد صفوف الشعب الجزائري، فإلى أي مدى أثرت النبرة الخطابية الإبراهيمية في نفوس الجزائريين ؟ ذلك ما سنبيّنه في هذه الورقة البحثية.

**الكلمات المفتاحية:** الدراسة، البشير الإبراهيمي، الخطاب.

**Summary**:

This study seeks to highlight some of the examples in which the Arabic language was used and its impact on Muhammad al-Bashir al-Brahimi and its importance in urging Algerians to confront the perpetual, by means of superior methods and consistent expressions. Language is a weapon of those without weapons, especially in those conditions that the Algerian people lived through, the son of colonialism Where Brahimi strived hard with his speeches, and even with his poetry and reform movement, to unify the Algerian people, so to what extent did the Abrahamic rhetorical tone affect the Algerians? That is what we will show in this paper.

**Key words**: study, ElBashir El IBrahimi, speech.

**.مقدمة:**

يعدّ العلامة محمد البشير الإبراهيمي ملك اللغة العربية والبيان؛ هذا البليغ الفصيح الذي تتجلى من خلال المتصفح لأعماله مدى حذقه ومرانه في ميدانه بعباراته العميقة وألفاظه الدقيقة المعاني ، و كلامه اللطيف بالسجع، هذه الشخصية المتأصلة في هُويتها، المتجذرة في بيئتها، المدركة لما تقوم به ، التواقة للحرية ، متمكن من استعماله للغة العربية بامتياز . حيث يتعقبها تعقبا فيدقق حسن اختياره للكلمات ويميل إلى التمثيل والتوسيع في إيراد المعنى، فهو بحق يعد صاحب البيان فقد ملك اللغة وأصبح حافظا وأديبا ولغويا بامتياز، وفي هذا الصدد قال عنه أبو القاسم سعد الله "... مليئة بقوة البيان وبلاغة الأسلوب، وهو أمر قامت عليه شهرة الشيخ الإبراهيمي أيضا كحافظ وأديب ولغوي"[1]، فهو خطيب مفوه لا يشق له غبار، فنجده ينسج الألفاظ على قدر المعاني عملا بمقولة القدماء بأن الكلام البليغ ما كان لفظه فحلا ومعناه بكرا. " فأراه يغوص في درر اللغة وفي عمق الألفاظ، فيعود حاملا سجعها، وينحت العناوين ويولي شطرها الحروف لتتكامل في أمواج اللغة، وتتعاضد انحلالا وارتحالا ونضالا واقتتالان فكلماته كبريت محترق إذا أومض اشتعل، وهي حروف تجر الفعل الماضي بحكم الحب الذي أعطاه للعربية، فكانت إضافاته لطيفة في اشتياقها ومذاقها وانعتاقها وطباقها وعناقها وتلاقيها وسياقها"[2].

ولقد " وُهب الشيخ سجايا خطابية: لسان فصيح وشجاعة أدبية وزاد ديني كبير ومحفوظ وفير، فانماز عن أقرانه بحمل بلاغي مميز، وبصراحة نقدية، كما نقرأ عن لغته بأنه يراعي المستويات، من حال، ومقام ومتحدث إليه، فيجمع بين اللفظ الغريب المقعوس، واللفظ المأنوس، في خرجة أسلوبية يصبح الغريب مأنوسا، والمأنوس مطلوبا، فهو بلغ القمة، ولم يُبالغ في تقعر اللغة... وتنزل منه البلاغة نزولا لا إنزالا، وتحس كأنه يدفعها عنه، وهي تندفع إليه، فيقع التكامل في البنى ويتلاقى المعنى في المبنى"[3]

ويقول عنه عبد الملك مرتاض: إنه أكبر أديب عرفته الجزائر طوال القرن العشرين...إلى أن يصفه بالعملاق[4]" ويقول في مقام آخر:" إنه أمير البيان، ومفخرة الجزائر عبر الزمان"[5].

وهو( البشير الإبراهيمي) الذي يقول: "اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة، بل هي في دارها، وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواصر مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل[6]".ويقول شعرا في هذا المقام:

نغار عن أحسابنا أن تُمْتَهن والحر عن مجد الجدود مُؤتمن

ولغة العرب لسان ممتحن إن لم يذد أبناؤه عنه، فمن؟

هذا الخطيب المفوه باللفظ الجميل والمعنى الجليل، سعى جاهدا بخطبه وحتى بشعره وحركته الإصلاحية إلى توحيد صفوف الشعب الجزائري رافق النهضة الجزائرية في جميع مراحلها وعلى اختلاف أطوارها،وتنوع نواحيها من خلال الأثر الكبير الذي شكلته المقاطع الشعرية التي نظمها في حق الأمة الجزائرية إبان الثورة .

لذلك ارتأيت أن يكون المقال موسوما بـ " **آفاق البعد اللغوي وآليات تجسيده عند العلامة محمد البشير الإبراهيمي** " منطلقة من الإشكالية الآتية : إلى أي مدى أثرت النبرة الخطابية الإبراهيمية في نفوس الجزائريين ؟ وكيف تمكن العلامة محمد البشير الإبراهيمي من الدفاع عن مبادئ الجمعية بلسانه وقوة بيانه؟

**2.البشير الإبراهيمي -نبذة عن حياته -:**

هو محمد بن البشير بن عمر الإبراهيمي، ولد في قبيلة ريغة الشهيرة بأولاد إبراهيم بقرية رأس الوادي بولاية سطيف؛ و رأس الوادي هذه -حاليا – دائرة تابعة لولاية برج بوعريريج...

وقد سجل بقلمه ترجمة لسيرته قائلا ":أنا محمد البشير الإبراهيمي ولدت يوم الخميس عند طلوع الشمس في الثالث عشر من شهر شوال سنة ست و ثلاثمائة و ألف، و يوافق الرابع عشر من يونيو سنة 1889 م...قبيلتنا تعرف بأولاد إبراهيم بن يحي بن مساهل، و يرجع نسبها إلى إدريس بن عبد الله بن الحسين المثنى بن الحسن بن على بن أبي طالب[7]". وعُرفت السنة التي ولد فيها بـ" سنة العباقرة"

فقد ولد فيها أكثر الأدباء الذين اشتهرت بهم النهضة الحديثة أمثال: ابن باديس، و عبد الرحمان الرافعي مؤسس الحركة الوطنية بمصر، و طه حسين عميد الأدب العربي، و عباس محمود العقاد الكاتب العبقري، وإيليا أبو ماضي الشاعر اللبناني الكبير[8]. حفظ القرآن الكريم وهو في سن الثالثة، سافر الإبراهيمي إلى مصر وأقام بها ثلاثة أشهر التقى فيها بالعلماء المشهورين والشعراء، وواصل دراسته في المدينة المنورة لدى علمائها المعروفين في الفكر الديني. وفي عام 1917 شد الرحال إلى إلى دمشق التي أقام فيها أربع سنوات ، قاده بعض أصدقائه إلى وظيفة أستاذ الأدبيات العربية،و تاريخ اللغة بالمدرسة السلطانية، و تخرج على يديه كثير من الطلبة[9].

عاد إلى الجزائر و اتصل بابن باديس، و شارك في التعليم في" رأس الوادي "مسقط إبراهيمي، وشارك في تحرير المقالات التي كانت تنشر في جرائد الحركة الإصلاحية في 10 أفريل 1940، نفي الشيخ البشير الإبراهيمي إلى منطقة" آفلو "النائية بالأغواط...وبعد بضعة أيام من نفيه تلقى خبر وفاة أخيه الإمام عبد الحميد بن باديس يوم 16 أفريل 1940م[10].

و بعد أيام تلقى خبر انتخابه كرئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين خلفا للشيخ الراحل ابن باديس ،وفي سنة 1952 م قرر أعضاء الجمعية إرسال الشيخ الإبراهيمي إلى الشرق سفيرا لها لتوفير الظروف الملائمة للبعثات الطلابية، بعد إنشاء معهد ابن باديس سنة 1947 م. و عاد إلى الجزائر -بعيد الاستقلال ...-و كان الإبراهيمي أول من أم الناس في جامع كتشاوة بعد- الاستقلال -غداة استعادته إلى وزارة الأوقاف.

و في مترله بحي حيدرة بالعاصمة توفي الإبراهيمي يوم الخميس 19 محرم سنة 1385 هـ،الموافق 20 مايو عام 1965 م، عن عمر يناهز السادسة و السبعين عاما .و دفن في مقبرة "سيدي محمد "بحي" بيلكور "بالعاصمة ...يوم الجمعة 21 ماي 1965 م[11].

وتعد عيون البصائر- كتاب - من أعماله الفكرية المطبوعة التي طبعت في حياته بعد الاستقلال وكانت الطبعة بالقاهرة سنة 1963 ، وطبع مرة أخرى في الجزائر سنة 1971 ، في مجلد من طرف الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، وهو يضم مجموعة من المقالات

السياسية والاجتماعية والدينية والفكرية. فقد خاطب الكتاب بقوله :أعلم أن جريدتكم مدرسة فاجعلوا من الكتابة فيها وسيلة لترقية ملكاتكم الكتابية، كأن جريدتكم مظهر للبيان العربي فلا تتركوا منزلتها[12].

**3.الدراسة التطبيقية:**

قال العلامة محمد البشير الإبراهيمي – رحمه الله-

سكت فقالوا: هدنة مسالم وقلت فقالوا: ثورة من محارب
وبين اختلاف النطق والسكْت للنُّهى مجال ظنون واشتباه مسارب
وما أنا إلا البحر يلقاك ساكنا ويلقاك جيّاشا مهولَ الغوارب
وما في سكون البحر منجاة راسب ولا في ارتجاج البحر عصمت سارب
ولي قلم آليت ألا أمده بفتل موار أو بختل موارب
جرى سابقا في الحق ضمآن عائفا لأمواهَ دنياه الثّرار الزغارب
يسدده عقل رسا فوق ربوة من العمر رواها معين التجارب
إذا ما اليراع الحر صر صريره نجا الباطل الهاري بمهجة هارب
ومن سيئات(...) أحلاف فتنة وجودهمو إحدى الرزايا الكوارب
ومن قلمي انهلّت سحائب نقمة عليهم بودق من سمام العقارب
فيا نفس لا يقعد بك العجز وانهضي بنصرة إخوان، وغوث أقارب
حرام قعود الحر عن ذود معتد رمى كل ذود في البلاد بخارب
وبَسْل سكوت الحر عن عسف ظالم رمى كل جنب للعباد بضارب
بسمّن ذئب السوء قومي سفاهة بما جب منهم من سنام وغارب
وما كان جند الله أضعف ناصرا ولا سيفه الماضي كليل المضارب
ومن جنده ما حط أسوار ( مارد) وما صنع الفار المهين بمارب
ومن جنده الأخلاق تسمو بأمة إلى أفق السعد للسماك مقارب
وتنحط في قوم فيهوون مثل ما ترى العين مهوى النجوم الغوارب
ينال العلا شعب يقاد على العلى بنشوان من نهر المجرة شارب

رعى الله من عرب المشارقة أخوة تنادوا فدوى صوتهم في المغارب
توافوا على داع من الحق مُسمع ووفوا بنذر في ذمام الأعارب
هموا رأس مالي لا نضار وفضة وهم ربح أعمالي ونُجح مآربي
وهم موردي الأصفى المروي لغلتي إذا ما كدرت أم الخيار مشاربي

نشرت في العدد 150 من جريدة «البصائر؟»، 9 أفريل سنة 1951.

- جمع زغرب: وهو الماء الكثير المستبحر.
- بسل حرام.

**3. 1.التشكيل اللغوي للقصيدة:**

نحاول في قراءتنا للنص الشعري المعنون بـ" سكت وقلت" أن نمتلك في توجهنا إليه وسيلة للغوص في مكنوناته ودهاليزه و عتمته، ولملامسة مستوياته و طبقاته الدلالية، و في قراءتنا هدف، وهو تفكيك الدال واستنطاق دلالاته و علاقاته الشبكية، و يتمّ بذلك التفاعل بين النص والقارئ من خلال إنتاج جديد يؤكّد شعريته.و" للغة الشعر سحر يحاكي سحر شياطين الشعر ، تفعل فينا ما لا تفعله اللغة حين تكون تواصلا محضا أو حين تكون الكلمات مفردة لها دلالات معجمية محددة ، لأن اللغة هوية مجردة وإن الاستعمالات هي التي تشكل الحقيقة اللسانية الوحيدة و الواقعية"[13]. وعليه فإن تحليل القصيدة الشعرية يستدعي إمكانات خاصة في سبر أغوار النص، لأن تكثيف اللغة أو الإيقاع، أو الصور البيانية من خصوصيات الشعر، مع مراعاة خاصية الانسجام ، ومن تلك العناصر: طبيعة النص، وبنائه الفكري، وبنائه الفني، والأسلوب المعتمد في الأداء، والقيم البيانية والصوتية الموظفة ووظيفة كل عنصر منها، ودرجة فعالية الأدوات لتحقيق الأثر المرتجى من جماليات النص.

وإذا كانت الألفاظ علامات فإنّ القارئ ينفذ إلى الخطاب الشعري عبر مناطقه الرخوة التي تشكّل هذه الكلمات ، فالعلامة اللغوية وحدة أساسية في بنية الخطاب، ولذلك فإنّ المقاربات النقدية المعاصرة ترتكن في فضّ دلالة النصوص والوصول إلى بنيتها التحتية ،

لمسّ المعاني التي يمكن أن تقود إليها و كيف وظفها الشاعر في النص، و بذلك الوقوف على مواطن الجمال في التعبير . " فاللفظ جسم، روحه المعنى و ارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعه ، و يقوى بقوّته ، فإذا سلم المعنى و اختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر ، و هجنة عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام ممن العرج ( .... ) وكذلك أن ضعف المعنى و اختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظٍ ، كالذي تعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح"[14].

ويقوم الشعر باستعمال الكلمات في نسق خاص يعيد بناء اللغة على نحو نستطيع من خلاله أن نترجم الكلمات إلى إيحاءات و دلالات تثير الانفعال وتضيء السبل وتكبح جموح الآلام .لأن" الكلمات في النص الشعري غيرها في أي نص آخر تتجاوز حدودها المعجمية المألوفة ، فلا تكون مجرد أصوات تعبر عن مسميات أو تحاكي أشياء ، بل إنها تغدو جزءا من الكلمات نفسها تفجر تعريفاتها و حدودها النغمية و البنائية و دلالاتها العميقة بما يكشف عن إمكانيات في الكلمة غير متوقعة وحقائق مجهولة داخل اللغة"[15].

استند النص الشعري ( **سكت وقلت** ) إلى دوالٍ مولّدة لمدلولات جديدة تحقّق المغايرة في سياقات منسجمة تسهم الأنماط البلاغية في تحقيق قدرتها على التأثير وتحويل الحقائق عبر التعبير الشعري إلى صور، " و مع ذلك يمكن القول إن البناء الصرفي يوجه المتلقي إلى تفهم النشاط اللغوي في اعتبارات بعيدة وراء الصفات الموضوعية أو الدلالات الموجهة ، و يعمل في إدراك مواقع المكونات الصرفية على الوجدان ، و الموقع متميز تماما من طبيعة المكونات الصرفية في ذاتها و إن يكن يتصل بها "[16].

**3. 2. قيمة العنوان في النص الشعري:**

يضيء عنوان القصيدة جانبا مهما من بنائها ، ولما كان الأصل في العنوان هو" منح النص اسمه وهويته ومظهرا قصدية المؤلف وخلق أفق التوقع عند المتلقي[17]". فإن عنوان (سكت وقلت) يعد نقطة مركزية، تحيل على هوية النص الناص ، لتمنحه دلالة توحي بمدى تريث الشاعر البشير الإبراهيمي وتعقله قبل القول ؛ فهي مرحلة التركيز ملخصة في عملية السكوت لتليها مرحلة القول أو التلفظ فيجعل القاريء يتمتع من خلال الغوص في

دراسة النص محاولا الوقوف عند أهمية استنطاقه و معرفة مجموعة الشفرات و الإشارات والعلامات اللغوية التي تشكّل بنيته تشكيلاً جديداً ومن خلال سياق يشحن الألفاظ بعدد من الدلالات السياقية التي يتفرّد بها النص الشعري، و هي التي تشكّل حقوله الدلالية التي تُعدّ البنى الصغرى لبنية النص الكبرى." فكانت العرب إنما تحلي ألفاظها تدبجها و تشيها ، وتزخرفها ، عناية بالمعاني التي وراءها ، و توصّلا بها إلى إدراك مطالبها ... ذلك أن الألفاظ خدم للمعاني ، والمخدوم – لاشك – أشرف من الخادم"[18]. كما ان النص هو إبداع ونظم شعري ، ليس ببعيد عن (الشعرية) التي هي عاطفية تخييلية بطبيعتها. ولما كانت كذلك، فإننا سنبحث عن عمق الدلالة، في النص، وتطورات ملفوظه ومعناه " لأن لغة الشعر خاصة محملة بقصدية دائما ، و المقصود ليس أن تقول هذه اللغة الأشياء فحسب ، و لكن لكي تنتج كل كلمة داخل النص الشعري انطباعا جماليا وشعريا جذابا وفاعلا"[19].

**3. 3. التشكيل الجمالي للنص الشعري:**

تعدّ مقاربة التشكيل الجمالي للنص الشعري الموسوم بـ ( سكت وقلت) لما تكتنزه من خصوصيات فنية للغة والأسلوب، فقد تميزت كتابة البشير الإبراهيمي بالصور البيانية والبديعية ، والظواهر الصوتية كالتوازي، والتكرار، وكل ما من شأنه إحداث التأثيرات الجمالية، فالبشير الإبراهيمي وظف أساليب ممتعة ومفيدة لتأدية المعنى العميق، ورفع القيمة الجمالية، كما تلعب اللغة دور المترجم للجمال في النص الأدبي ، لما تقوم به من وظائف و التي حددها منذر عياشي في ست:

الوظيفة الأولى : و تتجلى في أنها تعطي للأشياء أسماءها و دلالاتها.

الوظيفة الثانية : و تتجلى في رسم موقف المتكلم من الأشياء التي يتكلم عنها...

الوظيفة الثالثة : و تتجلى في قدرة اللغة على خلق الأشياء التي لم تكن...

الوظيفة الرابعة : و تتجلى في إعطاء الأشياء معانيها و معاني إضافية إلى معانيها...

الوظيفة الخامسة : و تتجلى في قدرة اللغة على إعطاء المعاني معاني ليست من مسميات أشيائها.

الوظيفة السادسة : تتجلى في رسم موقف إنساني يدخل في دائرة معرفة الإنسان بنفسه ولكن اللغة تجعله خلقا آخر ليخبر به عن مكنونه في صورة جمالية [20]" . لأن اللغة بتضافرها مع عناصر النص الأدبي تشكل إدراك القارئ و ترشده إلى مواطن الجمال فيه.

**3. 4 . التضاد :** يعد التضاد نوعا من الأساليب الفنية المحققة للمفارقة، وقد تميز أسلوب البشير الإبراهيمي باعتماد صيغ التضاد كما تتجلى في قوله: **( سكت/ قلت ) ( مسالم / محارب ) ( النطق / السكت ) ( الحق / الباطل ) ( المشارق/ المغارب )** وللطباق أثر في القصيدة وهو توضيح المعنى وتقويته. أما المقابلة، فقد تمثلت في قوله: **( هدنة مسالم / ثورة من محارب )** فهذه الصيغ القائمة على التضاد غرضها قوة البيان، والتشديد على التبيين، إذ الأمور بأضدادها تتضح فيتحقق الهدف بما تثيره من انتباه للسمع والعقل معا. ولذلك استخدم الشاعر هذه الخاصية لأن" هذه الحقيقة تؤكد أن الكلمة هي نشاط الروح وبواسطتها تتجلى الأفكار و المشاعر و تصبح بنية فاعلة"[21].

**3. 5. العبارات والجمل الفعلية :**

تثبت القراءة الإحصائية هيمنة الاسم على الفعل ، كما تهيمن الأفعال المضارعة والماضية هيمنة تامة (ليس في النص الشعري أفعال أمر) وذلك ليؤكّد الشاعر أنّ التجربة يقينية ، و أن مصيره حتمي، فهو واثق بحتمية التغيير، وهو يراه قادماً، " و الصحيح أن البناء الصرفي (نشاط ) بمعنى أوسع . فهو في هذا المنحى يعنى بالتقسيمات و الارتباطات المباشرة لكي يحدد فاعليتها و نقاط قوتها ، وبهذا المنحى يكون النشاط الصرفي عنصرا فعالا في خلق المعنى "[22].

نتفحص ضمن هذا المنظور أنماط التراكيب النحوية للتعبير في النص الشعري فإذا بنا أمام تشكل أولي بارز يعلنه تميز الصيغ الفعلية ؛ كما وظف البشير الإبراهيمي عبارات عذبة المعاني، ونجد الشاعر قد نوع في استعماله بين صيغ فعل الماضي والفعل المضارع ؛

فنجد من أمثلة **الماضي ( سكت، قلت ، قالوا ، جرى، آليت، رسا، صرّ، نجا، انهلت، رمى، حطّ، صنع، رعى)** . ومن أمثلة المضارع **( يسدده، يلقاك، يقعد، تسمو، تنحط، ترى، ينال، يقاد)** . حيث نلحظ أن صيغة المضارعة تتميز في القصيدة بسمة مخالفة للماضي فتقيم بينهما علاقة انسجام و تكامل، فهاتان السمتان النحويتان رغم اختلافهما زمنيا إلا أنهما متقاربتان دلاليا ، كما يتميز التركيب النحوي بخاصيات دقيقة، لما فيه من ثراء وغموض و تعقيد وأثره في إعطاء مفهوم خاص للشعر على أنه طريقة في تأليف الكلمات و ربطها وتنظيمها. ولذلك أخذت مسألة التنظيم أهمية بالغة في جماليات النشاط التصويري و في توضيح عمود الشعر العربي على الإجمال و" لاحظ بعض النقاد أن المعنى في الشعر لا يستطيع أن يظفر باستقلال واضح و أنه يرتبط بفكرة التنظيمات الداخلية للألفاظ المستعملة في تشكله أو تكوينه .أي أن التنظيم يعطي له غنى و مادة جديدة هذه المسألة أثارت الناقد القديم ووجهته إلى مسائل جدية تدور حول تركيب الشعر و لغته و معناه و جعله مفتونا بفكرة الترابط المعقد أو ( النظم)" [23]. هذه الفكرة التي تؤلف ، وفقا له ، كل خصائص العبارة الشعرية ، و تستوعب كل معاني التراكيب في الشعر ومن ثم ينبغي أن نقف عندها .

**3. 6 . الصور البيانية :**

في القصيدة صور بيانية بهدف الفصح عن المعنى المراد والدلالة عليه؛ إذ تساهم في إدراك الحقائق ، حيث تؤدي وظيفة إخراج المجرد إخراجا حسيا، كما تساهم في قوة التخييل، لأن الحس دائما أقوى في التأثير، من التجريد، ومن الصور البيانية وظفت الاستعارة كما في قوله: **(ومن قلمي انهل سحائب نقمة... عليهم بودق من سمام العقارب)**، وفي مثال آخر: **(فيا نفس لا يقعد بك العجز وانهضي بنصرة إخوان، وغوث أقارب)**. وفي قوله: **( ومن جنده الأخلاق تسمو بأمة... إلى أفق سعد للسّماك مقارب )** كما نجد التشبيه في قوله: **( وما أنا إلا البحر يلقاك ساكنا ... ويلقاك جياشا مهول المغارب)**.

**3. 7. الظواهر الصوتية :**

وظيفتها استنفار القوة السمعية لإثارة الانتباه، لمغزى القول ومنها:

**التكرار** :فقد بني أسلوب الإبراهيمي من حيث التراكيب على هذا الإيقاع الجميل الناجم عن التكرير المحبب إلى النفس كما في قوله:" **ومن جنده** ما حط أسوار مارد، **ومن جنده** الأخلاق تسمو بأمة " وكذلك التكرار في قوله: " **فقالوا**: هدنة مسالم، **فقالوا**: ثورة من محارب) . " قعود **الحر** عن ذود معتد ، سكوت **الحر** عن عسف ظالم) (وما أنا إلا البحر **يلقاك** ساكنا،**ويلقاك** جيّاشا مهولَ الغوارب) (وما أنا إلا **البحر** يلقاك ساكنا، وما في سكون **البحر** منجاة ).

**الجناس** :كما في قوله: (**محارب، مسارب) و( سارب ، هارب) ( المضارب، المغارب ).**

**المشاكلة** :كما في قوله: ( **وما في سكون البحر منجاة راسب ولا في ارتجاج البحر عصمت سارب** )راسب ، سارب. وفي مثال آخر: (**وإذا ما اليراع الحر صرّ صريره نجا الباطل الهاري بمهجة هارب**) صرّ، صريره. الهاري ، هارب.

وفي قوله:( **حرام قعود الحر عن ذود معتد رمى كل ذود في البلاد بخارب)** ذود ، ذود.

ويقول: ( **وتنحط في قوم فيهوون مثل ما ترى العين مهوى النجوم الغوارب** ) يهوون، مهوى.

وفي المثال التالي: (**ولي قلم آليت ألا أمده بفتل موار أو بختل موارب** ) موار ، موارب

**التوازي:** يستخدم البشير الإبراهيمي في الإيقاع الداخلي خاصية "التوازي"حيث يكمن أثره في ما يحمله من خصائص صوتية وبلاغية قد أثرى التعبير بنغمات نفسية أخاذة، وإيقاع يعطي النفس متعة فنية مؤثرة تبعث في الفؤاد السكينة والطمأنينة و يزيد النص الشعري قيمة فنية ، كما نجد القافية تؤدي دورين؛ تعين نهاية المعنى، وتحدد الانسجام الصوتي، كما في قوله ( **هموا رأس مالي لا نظار وفضة وهم ربح أعمالي ونجح مآربي** ) مالي ، أعمالي، مآربي.

ويتسرع من يقول إن لغة الشعر عند العلامة محمد البشير الإبراهيمي معجمية، و إن العلاقة بين الدال والمدلول تقليدية، و أن الدال في شعره لا ينتج مدلولاً جديداً بل ينتج

مدلولاً مألوفاً ولو صح ذلك لكان من الممكن القول إن شعر البشير الإبراهيمي بلا (صورة)!، لأن الصورة تركيبة لغوية قبل كل شيء ، و هي تنتج من العلاقة بين الكلمات ." إن من الضروري أن ندرس البناء الصرفي بطريقة جمالية ، و معنى ذلك أن نكون على استعداد لإلغاء الدلالات المباشرة المتعلقة بالبناء الصرفي ، أو وضعها في حالة أقرب إلى الكمون و الغموض ، أي أن من واجبنا أن نحتفظ بفكرة المعنى المتعدد ، و ثراء الاحتمالات الممكنة ، فنبحث دائما عن تيارات جديدة ، و نغير المعنى عندما نجد هذه التيارات "[24].

**4 . خاتمة:**

تمكّن العلامة محمد البشير الإبراهيمي من خلال لغته تبليغ رسالته، ببلاغة في التعبير وحسن في التأليف وجمال في الصياغة وجودة في التصوير الفني، فقد أتقن اختيار الألفاظ التي تعبر عن مضامين كامنة في نفسه من خلال ما تحمله من قوة للمعاني، والتي بلغت مراده فكان استخدامه للمحسنات البديعية متقنا وليس من باب الزخرفة اللفظية أو التطريزية والتكلف وإنما استعملها ليجسد مدى إبداعه الفني ، لذلك نجدها قد تنوعت بين الطباق والمقابلة والتي تحقق ارتباطا وثيقا بالمعنى، مما يعكس غزارة فكره و قدرته للولوج في عمق الدلالة باستخدامه لجملة من الأدوات والوسائل التي مكنته من توصيل الرسالة التي يسعى إلى تبليغها من خلال اعتماده على أسلوب لغوي ساهم في خدمة اللغة بثروة لغوية هائلة، مما يمنحه فرصة الاختيار والانتقاء بما يتناسب والمقام .فمختلف الطرائق التعبيرية والإيحائية التي وُظّفَتْ، غرضها الزيادة في قوة القول ونفاذه، من أجل أن يبلغ الهدف المنشود.

**5. قائمة المصادر والمراجع:**

1- أحمد شوقي الرفاعي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، دار الشهاب، الجزائر، ط1، 1984.

2-أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشر الإبراهيمي الجزء الخامس ( 1954-1964) ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،ط1، 1997.

3-بشير كاشة الفرحي: محمد البشير الإبراهيمي شيخ العلماء و فارس البيان، سلسلة أعلام بلادي ، دار الآفاق ، 2004 ، الجزائر.

4-بيير جيرو: الأسلوب و الأسلوبية ، ترجمة: منذر عياشي ،مركز الإنماء الحضاري، حلي، 1994.

5-تامر سلوم : نظرية اللغة و الجمال في النقد العربي، دار الحوار للنشر و التوزيع سورية ، ط 1 ، 1983 ،

6-تركي رابح: جهاد الشيخ البشير الإبراهيمي عن اللغة العربية و الإسلام في الجزائر، مجلة الفيصل ، العدد 71، 1983.

7- ابن جني : الخصائص ، تحقيق : محمد علي النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ط 3 ،1988 .

8- جون كوهين: بناء لغة الشعر، ترجمة أحمد درويش ضمن النظرية الشعرية دار غريب للنشر 2000م.

9- ابن رشيق القيرواني :العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق : النبوي عبد الواحد شعلان ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط 1، 2000 .

10-صالح بلعيد: محاضرات في التربويات والإسلاميات ، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، 2015.

11-عبد الملك مرتاض: محمد البشير الإبراهيمي ، أمير البيان كرائم اللغة فصاحة اللسان ، مقال متاح على الأنترنيت بتاريخ 10/29/ 2019 على الموقع: https://binbadis.net/archives/296

12-محمد الصالح صديق: يفنى الرجال و تبقى الأعمال، مجلة الثقافة عدد خاص للذكرى العشرين لوفاة الإبراهيمي، العدد87، 1985.

13-محمد عباس: البشير الإبراهيمي أديبا، رسالة ماجستير منشورة، دار الفجر، وهران، الجزائر، جامعة بغداد، 1983.

14-محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية،دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ، 1985 ، ص49 .
15-منذر عياشي : الأسلوبية و تحليل الخطاب . مركز الإنماء العربي ، سوريا ، ط1 ،2002 .
16-هادي نهر : دراسات في الأدب و النقد ، ثمار التجربة ، عالم الكتب الحديث الأردن ، ط1 ، 2011.

## الهوامش:

[1]أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشر الإبراهيمي الجزء الخامس ( 1954- 1964) ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،ط1، 1997،ص 8.

[2]صالح بلعيد: محاضرات في التربويات والإسلاميات ، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، 2015، ص 177.

[3]صالح بلعيد: محاضرات في التربويات والإسلاميات، ص 182.

[4]عبد الملك مرتاض: محمد البشير الإبراهيمي ، أمير البيان كرائم اللغة فصاحة اللسان ، مقال متاح على الأنترنيت بتاريخ 10/29/ 2019 على الموقع: https://binbadis.net/archives/296

[5]عبد الملك مرتاض: محمد البشير الإبراهيمي ، أمير البيان كرائم اللغة فصاحة اللسان ، مقال متاح على الأنترنيت.

[6]محمد البشير الإبراهيمي: البصائر، د. الخطيب، جمعية العلماء المسلمين ، ص 155.

[7]محمد عباس: البشير الإبراهيمي أديبا، رسالة ماجستير منشورة، دار الفجر، وهران، الجزائر، جامعة بغداد، 1983، ص 31.

[8] ينظر: محمد الصالح صديق: يفنى الرجال و تبقى الأعمال، مجلة الثقافة عدد خاص للذكرى العشرين لوفاة الإبراهيمي، العدد87، 1985، ص 363.

[9]ينظر: بشير كاشة الفرحي: محمد البشير الإبراهيمي شيخ العلماء و فارس البيان، سلسلة أعلام بلادي ، دار الآفاق ، 2004 ، الجزائر، ص25.

[10]أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام البشير الإبراهيمي، الجزء الثاني ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1997، ص 13.

[11]تركي رابح: جهاد الشيخ البشير الإبراهيمي عن اللغة العربية و الإسلام في الجزائر، مجلة الفيصل ، العدد 71، 1983، ص 70.

[12]محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية،دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ، 1985 ، ص 49.

[13] - بيير جيرو: الأسلوب و الأسلوبية ، ترجمة: منذر عياشي ،مركز الإنماء الحضاري، حلي، 1994،ص 81.

[14] - ابن رشيق القيرواني :العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق : النبوي عبد الواحد شعلان ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط 1، 2000 ، ج 1 ، ص200.

[15] - هادي نهر: دراسات في الأدب و النقد ، ثمار التجربة ، عالم الكتب الحديث الأردن ، ط1 ، 2011 ، ص 191.

[16] - تامر سلوم : نظرية اللغة و الجمال في النقد العربي ، ص 99.

[17]جون كوهين: بناء لغة الشعر، ترجمة أحمد درويش ضمن النظرية الشعرية دار غريب للنشر 2000م، ص 191.

[18] - ابن جني : الخصائص ، تحقيق : محمد علي النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ط 3 ،1988 ، ج 1 ، ص 218 .

[19] - بيير جيرو : الأسلوب و الأسلوبية ، ص 191 .

[20]منذر عياشي : الأسلوبية و تحليل الخطاب . مركز الإنماء العربي ، سوريا ، ط1 ،2002 ، ص 60 .

[21] - تشيتشيرين ،د . ف : الأفكار و الأسلوب ،ص 44 .

[22] - تامر سلوم : نظرية اللغة و الجمال في النقد العربي، دار الحوار للنشر و التوزيع سورية ، ط 1 ، 1983 ، ص 98.

[23] - تامر سلوم : نظرية اللغة و الجمال في النقد العربي ، ص 112 .

[24] - تامر سلوم : نظرية اللغة و الجمال في النقد العربي ، ص 99 .

# البعد الوطني و القومي في خطاب الشيخ البشير الإبراهيمي

**الباحثة : فاطنة غوبرق** Fatna Ghouireg
جامعة: عمار ثليجي الأغــواط، كلية الآداب و اللغات قسم: اللغة و الأدب العربي
مخبر: التداولية و تحليل الخطاب جامعة الأغواط
الإيميل: ghouiregfatima@gmail.com

**الملخص:**

يعد الشيخ البشير الإبراهيمي رمز من رموز النهضة الفكرية، و الإصلاحية و الثقافية الجزائرية، الذي نافح بقلمه ولسانه ضد مظاهر التخلف والانحطاط، التي نخرت المجتمع الجزائري، إبان الاستدمار الفرنسي، الذي لم يدخر جهدا للقضاء على مقومات الهوية الوطنية و طمسها، و في هذه الورقة البحثية حاولنا الإجابة على الإشكالية الآتية: كيف تجلى البعد القومي و الوطني في خطاب الإبراهيمي؟ ماهي القضايا التي شغلت فكره و أرقته و ترجمتها خطاباته ؟ ماهي آلياته الخطابية و الإقناعية للتأثير على المتلقي؟

والهدف من هذه الورقة اكتشاف مزايا الخطاب الإبراهيمي و خصائصه و القضايا التي عالجها، و خلصنا في نهاية البحث إلى أن البشير الإبراهيمي كان أديبا حصيفا، اتسم خطابه بأسلوب فريد من نوعه، جمع بين الأصالة والمعاصرة، و كان فكره ذا بعد و طني و قومي و إنساني، وتجلى ذلك من خلال طرحه لقضايا الاستعمار الذي طال الكثير من البلدان الشقيقة و الصديقة ودمرها.

**الكلمات مفتاحية: خطاب . اللغة العربية . الوطن . البشير الإبراهيمي . القومية .**

**Abstract** :

Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi is considered a symbol of the Algerian intellectual, reformist and cultural renaissance, who fought with his pen and tongue against the manifestations of backwardness and decadence that ravaged Algerian society during the French colonialism, who spared no effort to eliminate and obliterate the foundations of

national identity, and in this paper The research we tried to answer the following problem: How was the national dimension manifested in Al-Ibrahimi's speech? What are the issues that occupied his mind, lulled him and translated them into his speeches? What are his rhetorical and persuasive mechanisms to influence the recipient?

Key words: speech _ Al-Ibrahimi _ _ country _ patriotism _ Arabic

**تمهيد:**

الشيخ البشير الإبراهيمي علم من أعلام الفكر و الأدب في الجزائر و الوطن العربي، ورمز من رموز الحركة الإصلاحية الجزائرية، و أحد أعمدة جمعية العلماء المسلمين، إذ كان رفيقا للعلامة عبد الحميد بن باديس في كفاحه من أجل تحرير وطنه المستعمر، و محاربة مظاهر التخلف و الجهل و الانحطاط التي عانى منها الشعب الجزائري جراء السياسية الاستعمارية المنتهجة للقضاء على معالم الهوية الجزائرية وطمس مقوماتها، إذ عملت بشتى الطرق و الأساليب و ما هيئ لها من قوة و جبروت على تجهيل الشعب الجزائري، و نشر الأمية و المعتقدات الزائفة والخرافات، كما حاربت الدين الإسلامي وذلك بدعمها لحملات التبشير و تحويلها المساجد إلى كنائس، وحاربت لغته و لسان حاله اللغة العربية، وسعت إلى تفقير شعبه و حرمانه من خيرات بلاده، لكي لا يكون له هما سوى السعي وراء لقمة العيش ولا يتطلع إلى أمور أخرى يراها بعيدة المنال.

في ظل هذا الوضع المتأزم كان لزاما على أبناء هذا الوطن الجريح الانتفاضة ضد هذا العدو اللدود، و كان في طليعة هؤلاء الأبناء البررة الغيورين على وطنهم وشعبهم ثلة من المثقفين ورجال الدين الذين أذكوا الروح الوطنية و أضرموا نيرانها في نفوس جزائريين، و نشروا الوعي بضرورة المقاومة ونبذ سياسة المستعمر ومحاربتها، و دعم الثورة التحريرية و تعبئة الشعب بواجب الجهاد و الكفاح، و كان البشير الإبراهيمي أحد هؤلاء الذين كرسوا حياتهم للعمل من أجل إصلاح وضع الأمة الجزائرية آن ذاك، و تجلى ذلك في ما قدمه من نشاطات وإسهامات عظيمة في نشر التربية الدينية و اللغة العربية، و في ما سيأتي سنناقش

بعض القضايا الي لها علاقة وطيدة بالبعد القومي و الوطني في خطابات الإبراهيمي، التي نشرت في مجلات الحركة الإصلاحية كجريدة الشهاب و جريدة البصائر.

و تأسيا بشعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين القائل: الإسلام ديننا و العربية لغتنا و الجزائر وطننا، سنبدأ بقضية الدين الإسلامي.

**1. البعد الديني في خطاب الإبراهيمي:**

الإسلام هو أحد مقومات الشخصية الجزائرية، وقد سعت السلطة الاستعمارية للقضاء عليه بشتى الطرق، لأنها رأت فيه خلاص الأمة الجزائرية، فهو دين حق و سلام و حرية وعدل، هذه الأمور التي حرم منها الشعب الجزائري و سلبت منه، ومن المفارقات العجيبة أن شعار الثورة الفرنسية الذي كانت تنادي به و تناضل من أجل تحقيقه وهـو :الإخـاء و المساواة و الحرية، و الذي يتفق مع مبادئنا الإسلامية، قد نسفته نسفا في الجزائر وضربته عرض الحائط، وكأن الجزائريين ليسوا بشرا وليس من حقهم أن يعيشوا أحرارا في أرضهم، كباقي الأمم والشعوب الحرة، في ظل السلم والمؤاخـاة والمسـاواة في الحقـوق و الواجبات، إن الدين الإسلامي متجذر في نفوس الجزائريين، و كل ما بذلته فرنسا لتنحيته كانت نتيجته عكسية وكان هباء منثورا، و ما زاد الجزائريين إلا تشبثا و تمسكا به، يقول الشيخ الإبراهيمي: «الأمة الجزائرية هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين، وهي ثلة من المجموعة العربية من حيث اللغة التي هي لسان ذلك الدين»[1]، و يرى أن الإسلام مفخرة للأمم المسلمة على اختلاف أجناسها و لغاتها، و هذه المفخرة نابعة من حقيقته الأصلية، و هي كونه مجمع للفضائل الإنسانية، و يتفاخر باللسان العربي لأنه ترجمان هذا الدين، و هذا ما وحد بين الأمم الإسلامية و جعلها وحدة متماسكة الأجزاء لا يأبى لها دينها التفرقة(2). وفرنسا لما احتلت الجزائر أرادت ان تجعلها فرنسية لغة و دينا و ثقافة وقطعة تابعة لها، وكان القضاء على الإسلام من أولوياتها يقول الإبراهيمي في هذا الشأن: « جاء الاستعمار الدنس الجزائر يحمل السيف و الصليب ذاك للتمكين وهذا للتمكين، فملك الأرض و استعبد الرقاب، و فرض الجزى و سخر العقول والأبدان ولو وقف عند حدود الدنيويات لقنا: تلك هي طبيعة الاستعمار الجائع تدفعه الشهوات إلى اللذات....

و لكن كان الاستعمار دينيا مسيحيا عاريا، وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم و انتهك حرماته من أول يوم فابتز أمواله الموقوفة، و تصرف في معابده بالتحويل و بالهدم... و تدخل في شعائره بالتضييق و التشديد، كل ذلك بروح مسيحية رومانية تشع بالحقد و تفور بالانتقام»(3)، يرى الإبراهيمي أن ابتعاد الجزائريين عن تعاليم دينهم و انسياقهم وراء الأمور الدنيوية هو سبب تخلفهم، فدين الإسلام لا تقوم له قائمة إلا بإقامته كما أمر الله أن يقام، بتصحيح أركانه الأربعة: العقيدة و العبادة و المعاملة و الخلق(4)، وقد سعت جمعية العلماء المسلمين بكل ما أوتيت من قوة و عزيمة، تحت قيادة الشيخ ابن باديس و نائبه البشير الإبراهيمي، ومن كان في فلكهم للدعوة إلى الرجوع إلى المنابع الأصلية للإسلام كتاب الله و السنة و التمسك بهما و تطبيق التعاليم الإسلامية السمحاء، و تجلى ذلك من خلال خطاباتهم و محاضراتهم و مقالاتهم التي كانت تنشر لتوعية الناس بدينهم.

**1.1. محاربـــة الطرقيــة:**

ومن بين القضايا الخطيرة التي تصدى لها الإبراهيمي محاربة الطرقية، حيث كان المجتمع أيام المستعمر الفرنسي يعيش في جهالة جهلاء يخيم عليه الركود و الجمود، وسكنت الخرافات و الخزعبلات عقول الأغلبية الدهماء من الجزائريين، و تغلغلت فيها و سيطرت على تفكيرهم، وهذا بدعم من المستعمر الفرنسي الذي ساهم في نشر الطرق الصوفية المنحرفة، يقول الإبراهيمي« كان من نتائج الدراسات المتكررة للمجتمع الجزائري بيني و بين ابن باديس منذ اجتماعنا بالمدينة المنورة ( 1331 هـ_1913م)، أن البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه من استعمارين مشتركين يمتصان دمه، و يتعرقــان لحمه و يفسدان عليه دينه ودنياه :1ـ استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي يعتمد على الحديد والنار 2 ـ استعمار روحاني يمثله مشايخ الطرق المؤثرون في الشعب المتّجرون بالدين المتعاونون مع الاستعمار عن رضى و طواعية، وكان من سداد الرأي... محاربة الاستعمار الثاني»(5)، كانت مهمة الابراهيمي و رفاقه مهمة صعبة و شاقة لأنها تخاطب الأفكار و تنير العقول، ومن أصعب المهام تغيير الذهنيات و الأفكار، فذلك يتطلب تخطيطا و استراتيجية مدروسة ومحكمة، و امتلاك لغة مؤثرة و حجة دامغة و لسان مبين

وشديد اللهجة، و هذا ما توافر في خطابات الإبراهيمي، في دعوته لإصلاح ما يمكن إصلاحه من آثار الطرق الصوفية التي ساهمت بقسط كبير في تجهيل الشعب الجزائري، حيث كثر عديد الأدعياء الجهلاء الذين يتنقلون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمائم و التعاويذ و السبحات، و يوهمون الناس بالباطل و الشبهات ويرغبونهم في الحج إلى قبور الأولياء الصالحين، و يزينون لهم التماس الشفاعة من دفناء القبور، و غابت عنهم فضائل الإسلام، فصاروا يأتون المنكرات ما ظهر منها و ما بطن دون خوف ولا استحياء(6)، يقول الشيخ في هذا السياق: «إن أعظم مصيبة أصابت المسلمين هي جفاؤهم للقرآن و حرمانهم من هديه و آدابه، منشؤها من الطرق، التي غشت المسلمين لأول ما طاف بهم طائفها، وغشيتهم بهذه الروح الخبيثة روح التزهيد في القرآن»(7)، فلما هجرت الأمة الإسلامية القرآن و العمل بأحكامه و التدبر في آياته، هوت في دركات الهوان والذل، و ما السبيل إلى الرجوع إلى ما كانت عليه أيام عزها وتفوقها الحضاري إلا بالعودة إليه.

**2 .1 ـ الإسلام الدين الأصلح لتسيير العالم الإتساني:**

إن أصلح نظام لتسيير العالم الإنساني هو الإسلام في نظر الإبراهيمي، و هوما دعا إليه طيلة حياته وحث المجتمع الجزائري و العربي على التشبث به وتطبيق تعاليمه، يقول في هذا الشأن: « تولى الإسلام في أول مراحله قيادة العالم الإنساني العامر للأقاليم المعتدلة، فقاده إلى السعادة و الخير بأصلين من أصوله و هما القوة و الرحمة، و بوسيلتين من وسائله في القيادة و هما العدل و الإحسان، و بأحكامه المحققة لحكمة الله في عمارة الأرض»(8)، ويقول أيضا: « ساس الإسلام الأرض بقانون السماء، فأشاع إشراقه في غسقها و أدخل نسقه في الإحكام على نسقها، وقيد الحيوانية العارمة في الإنسان بقيود الأوامر والنواهي الإلاهية.... و بذلك نقل الأمم التي دانت من حال إلى حال، نقلها من الفوضى إلى النظام، ومن التنابذ إلى التآخي، ومن الخوف إلى الأمن و من الاضطراب إلى الاستقرار... و نقل الأمم المتبدية إلى حال وسط من الحضارة المتأنية المقتصدة »(9)، نستشف من كلام الشيخ مكانة الإسلام عنده وإلحاحه في جل كتاباته على ضرورة استفاقة الشعوب العربية من سباتها العميق، ووقوعها بين براثن الجهل والتخلف، الذي لن تقوم لها قائمة ما دامت غافلة عن

دينها و العمل بهدي القرآن الكريـــم و السنة النبوية الشريفة. والتاريخ يشهد بأن الأمة العربية آلت لها سيادة و التفوق في في شتى العلوم و انتشرت الحضارة الإسلامية في أصقاع العالم، و نهلت الأمم الأخرى من معينها الذي لا ينضب و أدركت أن سر تقدمها هو تمسكها بدينها، هكذا كان حال الأمة الإسلامية، عندما كانت عقيدتها سليمة لم تخالطها الأباطيل، و كان أبناؤها متحدين على كلمة الإسلام، ولم تتسرب إليهم أيادي خارجية و دست فيهم البغضاء و الشحناء وفرقت صفوهم.

**1 . 3 مكانة اللغة العربية عند الشيخ الإبراهيمي:**

عانت اللغة العربية في الجزائر من الاحتلال الفرنسي الذي أراد لها أن تكون لغة غريبة في عقر دارها، وذلك بمحاولة القضاء عليها و إحلال اللغة الفرنسية مكانها في التعليم، و في الإدارات العمومية و الوسائل الإعلامية، و تضييق الخناق عليها و الحد من تعليمها، يرى محمد عمارة أنه ليتحقق لهذا الاستعمار الاستيطاني للمستعمرين الفرنسيين بالجزائر العربية، كان السعي الحثيث لسحق قومية الجزائريين ونزع هويتهم المتميـــزة، و هي العروبـــة و الإسلام، ولطالما كان هذا الإسلام محافظا على عروبتهم و مغايرتهم للفرنسيين فسعوا إلى فرنسة الجزائر لغويا بإحلال الفرنسية محل العربية(10)، حيث جاء في أحد تقاريـــر التي كتبوها سنة 1947: «أن الجزائر لن تصبح فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا لغة قومية فيها، و العمل الجبار الذي يتحتم علينا إنجازه هو السعي وراء جعل الفرنسية اللغة الدارجة بين الأهالي إلى أن تقوم مقام العربية، وهذا هو السبيل لاستمالتهم إلينا و إدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين» (11).

و قد صدق مصطفى الرافعي عنـــدما قال:« ما ذلت لغة شعب إلا ذل، و لا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار ومن هذا يفرض المستعمر لغته فرضا على الأمة المستعمرة، و يربكهم بها ويشعرهم عظمته فيها... فيحكم عليهم أحكاما ثلاثة في عمل واحد، أما الأول فحبس لغتهم في لغته سجنا مؤبدا، وأما الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محوا و نسيانا و أما الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمره من بعدها لأمره تبع»(12)، و هذا بالفعل ما آل إليه وضع اللغة العربية أيام الاحتلال وبعده و مازالت آثاره

إلى يومنا هذا، يقول تركي بن رابح عن منع تعليم العربية عن أبناء الجزائريين: « بالرغم من أن المرسوم 13 فبراير1883 قد نص على تعليم " الفرنسية والعربيــة' في المدارس الخاصة بالجزائريين، إلا أن السلطات الفرنسية في الجزائر، التي كانت تتواطأ مع المستوطنين الأوربيين المتعصبين ضد الجزائريين، بذلت كل ما في وسعها لمنع تعليم العربية للجزائريين بدعوى عدم وفرة المدرسين باللغة العربية، وبذلك حالت دون دخول اللغة العربية إلى برامج المدارس الخاصة بالجزائريين»(13)، ومن سياسة فرنسا في تضييق على اللغة العربية إصدارها قانونا سنة 1904 يحظر على أي جزائري أن يفتح أو يتولى إدارة مدرسة عربية، أو كُتّاب لتعليم القرآن الكريم، إلا بترخيص خاص من عامل العمالة، وينذر هذا القانون كل فرد أو جماعة تقوم بفتح مدرسة عربية بدون ترخيص مسبق من إدارة الاحتلال، إما بالحبس، أو الغرامة، أو بالعقوبتين مجتمعتين(14)، وكانت هذه الرخص تمنح وفق شروط تعجيزية منها(15):

. اقتصار التعليم في المدرسة أو الكتاب على حفظ القرآن وحده.

. عدم التعرض بأية صورة من الصور إلى تفسير الآيات القرآنية و خاصة التي تحض على الجهاد و تندد بالظلم و الاستبداد.

. استبعاد دراسة التاريخ الجزائري بصفة خاصة و العربي بصفة عامة.

. استبعاد تدريس الأدب العربي بجميع فنونــه.

. عدم تدريــس المــواد الرياضية و العلميــة.

وهذا ضرب من الظلم و التعسف، فما جدوى أن تحفظ الناشئة القرآن ولا تتعرض لتفسيره، وما الغرض من عدم تدريس تاريخ الجزائر؟ و تدريس الأدب العربي؟ و منع المواد العلمية والرياضية؟ إن الغرض واضح وجلي وهو محو تاريخ الأمة الجزائرية وطمسه، و تجهيل الأمة الجزائرية وعدم تمكنها من المواد العلمية و الرياضية لتبقى تتخبط في غياهب الانحطاط و التخلف، و تبقى أسيرة للتبعية الاقتصادية و الصناعية الغربيـة، ضف إلى ذلك المجالات الأخرى التي تهم المجتمع الجزائري كالطب و الصيدلة وغيرها. وعن هـذا يقـول الشيخ الإبراهيمي مخاطبا الحكومة الفرنسية: « إن تعطيل المدارس العربية بالأوامر الإدارية

يعد عقوبة للأطفال الصغار الذين لم يرتكبوا ذنبا و لو أنها عقوبة لهم في الأبدان لقنا : جرح و يندمل و لكنها عقوبة لهم في دينهم وشواعرهم و عقولهم، إننا نريدهم أناسي و أشياء نافعة للمجتمع و لأنفسهم، و أنت تريدينهم لصوصا و حيوانات ضارة ، وبلاء على أنفسهم و على الأمة»(16).

ولكن هيهات أن يتحقق مبتغى المستعمر مادام في الجزائر نخبة مثقفة غيورة على لغتها ودينها أمثال شيخنا الإبراهيمي، و رفقائه الذين بذلوا مجهودات جبارة للحفاظ عليها، و تعليمها لأبناء وطنهم وحثهم على التمسك والاعتزاز بها، وكانت من أولويات جمعية العلماء المسلمين إذ وضعت لها برنامجا دراسيا محكما وفق مستويات محددة، و اعتمدت اللغة العربية في تدريس جميع المواد، وهذا ما أحيى اللغة العربية في المجتمع الجزائري بعدما كادت تنقرض من الوجود(17).

تعد اللغة العربية من أهم مقومات القومية العربية، فهي العامل المشترك بين الشعوب العربية ورمز من رموز وحدتها، وقد شغلت فكر الإبراهيمي، فأحبها وفتن بها، فتعلمها بشغف و تبحر في علوما، وفقه أسرارها، فكان فارسا من فرسان الفصاحة و البيان، و قد أدرك مكانتها الجليلة في نفوس الجزائريين لأنها في المقام الأول لغة الدين، و رأى أنها لغة أصيلة في المجتمع الجزائري و ليست غريبة و لا دخيلة بل هي في دارها وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين(18)، يقول الشيخ الإبراهيمي: « إن العربي الفاتح لهذا الوطن جاء بالإسلام ومعه العدل و جاء بالعربية و معها العلم، فالعدل هو الذي أخضع البربر للعرب..... والعلم هو الذي طوع البربر للعربية »(19).

لقد عمل الإبراهيمي على تعليم اللغة العربية وإحياء مجدها بكل ما أوتي من تفان و قوة عزيمة، لأنها لسان الدين و المترجم عن أسراره و مكنوناته، فهي لسان الهداية الإلاهية العامة للبشرية جمعاء، و هي المقوم الأكبر من مقومات المجتمع، و ما من أمة أضاعت لغتها إلا وضاع وجودها(20).

وعن السياسة التي انتهجت فرنسا للقضاء على اللغة العربية و تشجيع التحدث بالأمازيغية في الإذاعة، وهي الوسيلة الإعلامية الأكثر انتشارا في منازل الجزائريين، و وسيلتهم الأولى للتثقيف آن ذاك، من خلالها ينفتحون على العالم الخارجي، حيث تقرر إذاعة الأخبار بالأمازيغية وبث الأغاني الأمازيغية(القبائلية)، يعتقد الإبراهيمي أن هذا ليس من قبيل الإنصاف للغة الأمازيغية، و إكراما لأهلها و حقها في الحياة، و أصالتها في هذا الوطن، وإنما هو تدجيل سياسي على طائفة من هذه الأمة، ومكر سياسي بطائفة أخرى، و تفرقة شنيعة بينهما(21) ويرى «أن القبائل مسلمون عرب، كتابهم القرآن يقرؤونه بالعربية، و لا يرضون بدينهم ولغتهم بديلا ولكن الظالمين لا يعقلون»(22).

يتحدث الإبراهيمي في أحد خطاباته عن فضل اللغة العربية على العلم و المدنية، ويرى أنه: « لو لم تكـن اللغة العربية لغة مدنية و عمران، و لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات و التراكيب لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إلى علوم اليونان و آداب فارس و الهند، و لألزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم لتعليم تلك اللغات، و لو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية، و لو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته»(23). ويعتقد أن كثيرا من العلوم التي بنيت عليها الحضارة الغربية لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفضل اللغة العربية، و هذا باتفاق الباحثين من العرب و من الغـرب، و إن المنصفين منهم ليعترفون للغة العربية بهذا الفضل على العلم والمدنية ويوفونها حقها من التمجيد والاحترام(24).

**2 . البعد الوطني عند الإبراهيمـــي:**

لقد كان حب الوطن يسري في عروق الإبراهيمي، فعاش لوطنه وناضل و كافح من أجل حريته، و ضحى بالنفس و النفيس لنصرة أمته، والعمل على تنوير وتوعية عقول شبابه بضرورة الكفاح لنيل الاستقلال وطرد المستعمر من هذه الأرض الشريفة، ومن مظاهر الوطنية عند الشيخ الإبراهيمي عمله الدؤوب على نشر التعليم بين أبناء و طنه و محاربة الأمية هذه الأخيرة التي يرى أنها مرض فتاك و نقيصة مجتاحة ورذيلة فاضحة، و شلل في جسم الأمة التي تبتلى بها، وأكبر جناية تجنيها الأمية على الأمم هي القضاء على التفكير، و

التفكير هو المعيار الذي توزن به القيم في الأمة، ومن المستحيل أن يسمو تفكير الأمي لأن فكره أسير أميته(25)، ويقول في معرض حديثه عن الأمية: « إني أظن أن أول هيئة اجتماعية فكرت في محاربة الأمية بصورة منظمة في هذا الوطن هي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأن أول رجل فكر في مقاومة الأمية بصورة جدية هو رئيسها المحترم... فبما أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي أول هيئة علمية منظمة بهذا القطر و عليها لا على غيرها يكون التعويل والاعتماد في هذه المسائل الكبيرة»(26).

**2 . 1 ـ إرسال البعثات العلمية:**

وعن ضرورة طلب العلم ونشره في المجتمع الجزائري يقول ابن باديس: « إننا في وقت يجب فيه علينا ان نطلب العلم و المعرفة لذاتهما و لمشاركة العناصر الحية في الحياة، و أن نمرن النفوس عللا حب التضحية، و البذل و التعاون في سبيل تثقيف فلذات الأكباد، وهذا من أوطد الواجبات الآن، ومن شاء الشهرة في الوطنية و القومية، فليدخل إليها من باب ترقية أفكار الناشئة و دعوة الآباء إلى ما يوجبه عليه الإسلام وتفرضه تعاليمه السامية»(26)، ولقد كان لشيخ نفس الرؤية و المنطلق فقد عمل على إرسال بعثات علمية من الشباب الجزائري إلى الشرق العربي بغرض الدراسة في مختلف مدارسه و معاهـده و جامعاته(27)، ليقينه التام بأن التعليم هو أساس التطور و الرقي، ولن تنهض الجزائر إلا به.

ونظرا لقلة المداخيل والأزمة المالية الخانقة التي كانت تمر بها جمعية العلماء اضطر الإبراهيمي لطلب العون و المساعدة من الأشقاء العرب و المسلمين، كي تستطيع مواصلة رسالتها في ميدان التعليم العربي، و المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، التي واجهت محاولات كثيرة لهدمها من طرف الاستعمار الفرنسي ورجال التبشير المسيحي(28).

يقول الإبراهيمي في هذا الصدد: « في عام 1951 ميلادية رحلت إلى الشرق بتكليف من جمعيتي وكان الباعث على هذه الرحلة أمران: الأول : السعي لدى الحكومات العربية لتقبل لنا بعثات من أبناء الجزائر، مخاطبة حكومات العرب و المسلمين في إعانتنا ماليا كي تستطيع الجمعية أن تواصل أعمالها بقوة لأن الميدان اتسع أمامها و الشعب الجزائري

محدود القوة المالية... و يمكننا أن نضيف أمرا ثالثا لم نتناوله في النص المذكور مع أنه لا يقل أهمية عنها هو الدعاية للقضية الجزائرية »(29). وقد نجح الإبراهيمي في مهمته النبيلة في التعريف بالقضية الجزائريــة في الشرق العربي أيما نجاح و ساعده في ذلك عوامل عدة: غـزارة علمه وبلاغة قلمه، وقوة حجته و فصاحة لسانه، و لباقته في الحديث إلى مستمعيه واستمالتهم، مهما كانت درجاتهم الثقافية و الاجتماعية، و لعل العامل الأهم هو موهبته الخطابية الفذة فقد كان خطيبا بارعا يهز المنابر هزا(30)، فيستولي على ألباب و عواطف مستمعيه، فيقنعهم بقضية شعبه وحقه في تقرير مصيره.

في كلمة وجهها الإبراهيمي إلى الطلبة المهاجرين في سبيل العلم، وهو من ساهم في بعثهم كما أشرنا سابقا، يستنهض هممهم و يشعرهم بعظمة المهمة التي كلفوا بها قائلا:« إنكم يا أبناءنا أنتم مناط آمالنا، ومستودع أمانينا نعدّكم لحمل الأمانة وهي ثقيلة، ولاستحقاق الإرث وهو ذو تكاليف، وننتظر منكم ما ينتظر المدلج في الظلام من تباشير الصبح، وإنكم يا أبناءنا فارقتم الأهل وفيهم الآباء والأمهات وفارقتم الوطن، الذي له على كل حر كريم دين! وفـاؤه الحب و كفاؤه النفع والجميل»(31)، و يقول أيضا:« يا أبناءنا إن الحياة قسمان: حياة علمية وحياة عملية ، وإن الثانية منهما تنبني على الأولى قوة وضعفا، وإنتاجا و عقما، و إنكم لا تكونون أقوياء في العمل إلا إذا كنتم أقوياء في العلم، و تكونون أقوياء في العلم إلا إذا انقطعتم له ووقفتم الوقت عليه كله، إن العلم لا يعطي القياد إلا لمن مهره السهاد، و صرف إليه أعنة الاجتهاد»(32)، يؤكد الشيخ على العلم و وتسخيره في العمل، فلا عمل بدون علم، ولا علم بدون عمل، فالمعرفة و العلم هما أساس الرقي و سبيل تقدم الأمم.

**2 . 2 ـ دعوة المعلمين لتكريس الأخلاق الفاضلة**

وفي كلمة وجهها إلى المعلمين حيث قال فيها:« ها أنتم تربعتم من مدارسكم عروش ممالك، رعاياها الأمة و أفلاذ الأكباد تديرون نفوسهم على الدين و حقائقه، و ألسنتهم على اللسان العربي ودقائقه وتسكبون في آذانهم نغمات العربية و في أذهانهم سر العربية، و تديرون أرواحهم بالفضيلة و الخلق المتين و تروضونهم على الحياة الشريفة، بعد أن تجتثوا من نفوسهم بقايا آثار المنزل الجاهل، و الأب الغافل، و تقــودونهم بزمام التربية إلى مواقع

العبر من تاريخهم.... و احرصوا كل الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم»(33)، ويرى أن سبب بلاء و تخلف الأجيال لم يكن نتيجة نقص في العلم، وإنما نتيجة نقص في الأخلاق و القيم ويقول مبينا ذلك: « إن هذا الجيل الذي أنتم منه لم يؤت في خيبته في الحياة من نقص في العلـم، و إنما خاب من نقص في الأخلاق فمنها كانت الخيبة والإخفاق»(34)، ويحضرني في هذا المقام بيتان لأحمد شوقي :

إنمـــا الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبـــوا

و إذا أصيب القوم في أخلاقهـــم فأقـــم عليم مأتـــما و عويـــلا

إن الأخلاق القويمة هي أساس صلاح الفرد، وبصلاحه يصلح المجتمع، والشيخ الإبراهيمي يؤكد عليها في خطاباتها و يوصي بالتحلي بها، ويرى أنها الأرضية الخصبة للعلم.

**3 . البعد القومي في خطاب الإبراهيمي:**

شغلت قضايا الأمم العربية فكر الابراهيمي، فلم يقتصر نضاله داخل الرقعة الجغرافية لوطنه، بل امتد صداه إلى الأقطار العربية الأخرى، و كان له حضور قوي وفعال في نشر الوعي القومي بين أبناء الأمة العربية، وقد كتب مقالات مطولة عالج فيها هذه القضايا، كالقضية الفلسطينية، و قضايا المشرق العربي، وليبيا...الخ وكان ساخطا على أوضاع الأمة الإسلامية وما تكابده من ظلم وقهر، و استبداد تحت نير الاستعمار، وما تعانيه من مظاهر تخلف و انحطاط، لقد كان هذا الواقع المرير يحز في نفسه و يؤلمه، وترجم ذلك بقلمه و مواقفه الشجاعة، إذ يعتبر الجزائر جزء لا يتجزأ من هذا الوطن العربي المترامي الأطراف، تربطه أواصر الأخوة و المحبة، ويوحده الإسلام واللغة العربية، والمصير المشترك.

القضية الفلسطينة من أهم القضايا التي شغلت الأمة العربية، و مازالت إلى أن يخرج المحتل الصهيوني من فلسطين، و تستعيد أرضها ومقدساتها، وقد عالجها الإبراهيمي في كتاباته، أذ تعد من أرقى ما كتب فيها، و هي في نظره تشكل جرحا عميقا في نفوس الجزائريين لا يندمل إلا بتحررها، إذ يقول: « يا فلسطين إن في قلب كل مسلم جزائري من قضيتك جروحا دامية، و في جفن كل مسلم جزائري من محنتك عبرات هامية، وعلى كل لسان كل مسلم جزائري في حقك كلمة مترددة، هي فلسطين قطعة من وطني الإسلامي الكبير، قبل

أن تكون من وطني العربي الصغير»(35). وعن وجوب إعانة فلسطين يقول: « إعانة فلسطين فريضة مؤكدة على كل عربي، و على كل مسلم، فمن قـام بها أدى ما عليه من حق لعروبتـه وإسلاميته، ومن لم يؤدها فهي دين في ذمته لا يبرأ منه إلا بأدائه»(36).

يرى الإبراهيمي أن قضية فلسطين هي قضية الجزائر وأن الجزائريين لم ولن ينسوها، بحكم الأخوة التي تربطهم بها و الدين الذي يجمعهم، و اللسان العربي الذي يوحد بينهم، يقول: « أيظن الظانون أن الجزائر بعراقتها في الإسلام والعروبة تنسى فلسطين أو تضعها في غير منزلتها التي وضعها الإسلام في نفسها. لا والله ولا يأبى لها ذلك شرف الإسلام، ومجد العروبة ووشائج القربى»(37)، لقد ساهم البشير الإبراهيمي بما كتبه عن القضية الفلسطينية بالدعاية لها في وطنه وتوعية شعبه بواجب نصرة إخوانه الفلسطينيين.

ولم يغفل عن ليبيا التي عانت بدورها و يلات الاستعمار يقول مخاطبا إخوانه الليبيين: « ولإخواننا الليبيين علينا حق الدين، وحق اللغة، و حق الجنس و الجوار، و حق الاشتراك في الآلام والمحن،...و إن هؤلاء الإخوان اليوم في طور امتحان عسير معقد تتخلله المطامع، ويحيط به الكيد و التعنيت من كل جانب، و إن نجاحهم فيه يتوقف على جمع الكلمة وتسوية الصف، وتوحيد الرأي»(38)، ويرى أن سبب استعمارها يرجع إلى موقعها الاستراتيجي الهام، الذي أسال لعاب الطامعين في خيراتها، وقد ساعدهم في ذلك فريق من أبنائها ذوي النفوس الضعيفة الذين أغراهم المال فباعوا وطنهم يقول في هذا الصدد: « ومن أبناء الوطن فريق من أعوان التفريق، و أعواد التحريق، و هنا أصل البلاء و العلة و هنا جرثومة الطاعون، و هنا العدو الحقيقي فاحذروه»(39). ويرى أن من واجبه ومن حق الليبيين عليه أن يساعدهم و لو بقول معروف من نصيحة خالصة أو دعاية نافعة، وتذكير منبه(40)، والقضية المصرية هي الأخرى لها نصيب من اهتمام الإبراهيمي، وقد أيدها في جهادها ضد الإنجليز، يقول: «إن جمعية العلماء المسلمين المعبرة عن إحساس الشعب الجزائري كله، تعلن تأييدها للشعب المصـــري و تضامنها معه في موقفه الحازم، و لا تصدها عن أداء واجبات الأخوة هذه الحدود الوهمية، التي حطها الاستعمار بين الأجزاء الوطن الواحد»(41)، إلى جانب قضايا أخرى كقضايا المغرب العربي ووحدته، و الشمال الإفريقي.

**4 ـ مظاهر أسلوبية في خطاب الإبراهيمي:**

تميز الإبراهيمي عن غيره من معاصريه، بسمو أسلوبه، وفصاحة لسانه، وثراء رصيده اللغوي وغزارته، ودقة انتقائه للألفاظ و انسجام عباراته وعمق أفكاره، وعنايته بالصنعة اللفظية وهذا راجع لتكوينه و تتلمذه على أساتذة المشرق العربي، واطلاعه على الدراسات اللغوية العربية القديمة، و ثقافته الدينية الإسلامية، لهذا لا نعجب عندما يأسرنا أسلوبه ويأخذ بألبابنا، يقول الدكتور الركيبي: « إنك تقرأ له المقال فيسيطر عليك بلغته و أسلوبه و حضور بديهته، وقدرته على تصريف الكلام»(42)، و عن أسلوبه في أمور العقيدة يرى محمد مصايف أنه يكتب بأسلوب عصري يعتني بالفكرة قبل العبارة، و يورد الموقف جليا غير مبال بما يقال حول أسلوبه و موقفه(43)، ويرى د. عبد الرزاق قسوم أن الإبراهيمي مدرسة ذات أسلوبية قل مثيلها في منهجية الخطاب العربي المرسل، فهي تضرب في جذورها في أعماق التراث العربي القديم، في الوقت الذي تبسط فيه أغصانها على فروع المعرفة الحديثة، وهي نسيج في الأدب، جزائرية العزيمة في التصدي للاستعمار، مغاربية الالتزام في الدفاع عن الحرية و عروبية الانتماء في التأصيل الحضاري وإسلامية المنهج(44).

ومن آليات الإبراهيمي الخطابية و استراتيجياته الإقناعية في التأثير على من يخاطبه اعتماده على مايلي(45):

**توظيف الرمز القرآني**: في مقدمة الرموز التي يحيل إليها الابراهيمي في خطابه الآية القرآنية التي يدمجها ببراعة وسط عباراته، و يوظفها توظيفا رائعا في الدفاع عن آرائه ووجهات نظره.

**الإبداع البياني**: الذي طبع خطاباته إذ كان يأخذ من النحو العربي شروحه، ومن المجاز البلاغي وضوحه، و من الفكر الديني طروحه، ليدمج ذلك كله في سمو الإشارة ودقة العبارة.

**العمق العرفاني**: سعة اطلاع الإبراهيمي على علوم اللغة، وعلوم الدين من فقه وأصول وفلسفة إسلامية، وإلمامه بمسائل التصوف، والفكر السياسي الجزائري، انعكست على كتاباته وانصهرت فيها لتكسبها قوة حجة وإفحام لخصمه و إقناعه بوجهة نظره، ومن يقرأ آثاره يلتمس ذلك وينبهر بتوظيفه الدقيق لمعارفه، إلى جانب تحليه بالحكمة و الرأي السديد.

في الختام نخلص إلى أن الإبراهيمي من طلائع الأدباء و المفكرين العرب، الذين كرسوا حياتهم من أجل إصلاح أوضاع بلدانهم المتأزمة، و الدعوة إلى النهوض بها بنشر العلم و العمل على محاربة مظاهر التخلف والجمود والدجل، وكانت خطاباته تترجم ما يحمله في ضميره من حب وغيرة على هذا الوطن الغالي، و على رموز هويته اللغة العربية و الدين الإسلامي، حقا إن الإبراهيمي نموذج ينبغي على أبنائنا أن يقتدوا به، و أن يسيروا على دربه ويطلعوا على مؤلفاته وينهلوا من أفكاره النيرة.

**هوامش البحث:**

[1] . محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1997،ج1 ،107.

[2] نفسه، ن ص.

[3] محمد البشير الإبراهيمي ، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي ، ج3، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1997، ص80 .

[4] . ينظر: آثار البشير الإبراهيمي ج1.ص133 .

[5] أسامة شحاتة، رموز الإصلاح . العلامة محمد البشير الإبراهيمي، 2013/01/03, 00: 12 الموقع الانترنيت Htpps://ar.islamway.net,le 24 /10/2019.17h 53m.

[6 ]. ينظر: لبنى دلندة، الفنون النثرية في آثار البشير الإبراهيمي، مخطوط دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري الحديث، جامعة باتنة، 2016/2015، ص121.

[7] . أثار الإمام ، ج 1 ، ص 168.

[8] . أثار الإمام الإبراهيمي، ج4،ص65.

[9] . نفسه،ص 67.

[10]. علي ديدونة، المنظومة التربوية في الجزائر، دار نوريد، الجزائر،2006، ص170.

[11] نفسه، ن ص.

[12] عابد محمد بوهادي، تحديات اللغة العربية في المجتمع الجزائري، دار اليازوري، عمان، الأردن، 2014،ص119.

[13]. علي ديدونة، المنظومة التربوية في الجزائر، دار نوريد، الجزائر،2006، ص197.

[14]. نفسه،ن ص.

[15]. نفسه، ص198.

[16] . آثار البشير الإبراهيمي،عيون البصائر،ج 3 ،ص .221 .

[17] . علي ديدونة، المنظومة التربوية في الجزائر، ص221.

[18]. آثار البشير الإبراهيمي،عيون البصائر، ص 206.

[19]. نفسه ص207.

[20]. ينظر آثار الإمام الإبراهيمي، ج1،ص134.

[21]. آثار البشير الإبراهيمي،عيون البصائر،ج 3 ،ص 207.

[22] . نفسه ن ص.

[23]. آثار الإمام الإبراهيمي، ج1،ص376.

[24] . ينظر: نفسه، ص 277.

[25] . ينظر: نفسه، ص 202.

[26] . ينظر: نفسه، ص ص 204 ،205.

[27]. عبد الحميد بن باديس . أثار الإمام عبد الحميد بن باديس،مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط1، ج4 ،1985 ،ص21.

[28]. ينظر: تركي بن رابح، البشير الإبراهيمي في المشرق، مجلة الأصالة ،وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، العدد8، جوان1972 ص256.

[29]. ينظر: نفسه، ن ص.

[30]. . نفسه ن ص.

[31]. نفسه ص259

[32] آثار الشيخ الإبراهيمي،ج 3،ص 201.

[33]. نفسه، ص264.

[34]. نفسه ،ن ص.

[35] . نفسه ص435

[36] . آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص206.

[37] . آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج3،ص 403.

[39]. نفسه ص 435.

[40]. نفسه ص404.

[41]. نفسه، ن ص.

[42]. نفسه، ص492.

[43]. محمد مصايف، النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983 ،ص 137.

[44]. ينظر : نفسه ص115.

[45]. ينظر: آثار الأمام الابراهيمي، ج3 ،ص5..

[46]. نفسه، ص ص ص 6. 8 . 11.

**قائمة المراجع:**

. عابد محمد بوهادي، تحديات اللغة العربية في المجتمع الجزائري، دار اليازوري، عمان، الأردن، الجزائر،2006. . عبد الحميد بن باديس . أثار الإمام عبد الحميد بن باديس،مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط1،ج،1985.

. علي ديدونة، المنظومة التربوية في الجزائر، دار نوريد، الجزائر،2006.

. محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1997،ج1.

. محمد البشير الإبراهيمي ، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي ج3، دار الغرب الإسلامي ، بيروت،1997.

. محمد مصايف، النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1983.

**الرسائل:**

. لبنى دلندة، الفنون النثرية في آثار البشير الإبراهيمي، مخطوط دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري الحديث، جامعة باتنة، 2016/2015.

**المقالات:**

. تركي بن رابح، البشير الإبراهيمي في المشرق، مجلة الأصالة ،وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، العدد8، 19.

**مواقع الانترنيت:**

أسامة شحاتة، رموز الإصلاح . العلامة محمد البشير الإبراهيمي، 2013/01/03, 00: 12

Htpps://ar.islamway.net,le 24 /10/2019.17h 53m

# البشير الإبراهيمي معلم وطني وأثر قومي.

# The title of the intervention: Al-Bashir Al-Ibrahimi is a National Landmark

**غنية بروبي، ghaniyya Berroubi**
جامعة عمار ثليجي الأغواط،
ghaniyya03@gmail.com

**الملخص:**

تميز البشير الإبراهيمي بسلاحه اللغوي جاعلا من اللغة العربية وسيلة حادة وجادة ومعلنة بقلمه مواقفه الصارمة وجهوده الجبارة في مجال الإصلاح، فالإبراهيمي ناقش قضايا عدة منطلقا من مشاكل بلاده ليصل إلى مشاكل البلدان العربية والإسلامية.

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في جهود البشير الابراهيمي على الصعيد الوطني والقومي ومستعينة بما ألفه وبما ألف عنه محاولة البحث في كيفية طرق التعبير لدى الإبراهيمي عن القضايا الوطنية والقومية من خلال أثره الأدبي وعليه يقسم هذا البحث إلى مبحثين هامين تسبقهما مقدمة: ليتعلق الأول بأدب الإبراهيمي على الصعيد الوطني ويأتي الثاني لأدب الإبراهيمي على الصعيد القومي ثم يذيل البحث بخاتمة تحوي مجمل النتائج المتوصل إليها وبما أن أي عمل منهاجي لابد أن يستند إلى منهج علمي يعبد طريقه فهذا البحث يتخذ من المنهج التكاملي طريقا للبحث.

**كلمات مفتاحية:الأدب،الاصلاح،البشير الإبراهيمي، القضايا ،الوطنية،القومية.**

**Abstract:**

This study aims to research the efforts of Al-Bashir Al-Brahimi on the national and national levels, and with the help of what he wrote and what he wrote about, trying to search for ways of expression for Brahimi about national and national issues through his literary impact. Therefore, this research is divided into two important topics preceded by an introduction: The first relates to the literature of Ibrahimi on The national level and the second comes to Al-Ibrahimi's literature at the national level, then the research is appended to a conclusion that contains the entirety of the findings reached, and since any systematic work must be based on a scientific method that paves its way, this research takes an integrative approach as a way of research.

**Keywords:** Literature, reform, Al-Bashir Al-Ibrahimi, issues, patriotism, nationalism.

1. مقدمة:

جاهد الأدب الجزائري كما جاهد رجال الثورة وأدى بدوره عملا بطوليا كبيرا لشحذ الهمم وتشجيع الجماهير لتبني المقاومة والإيمان بها كحل نحو التحرر والانعتاق، وفي ذات الوقت انبرت بعض الأقلام اللامعة لتمجيد الشعب الجزائري وإضاءة تاريخه ولتسمع أيضا صرخات ألمه خارج الحدود الجزائرية، ومن بين هذه الأقلام البشير الإبراهيمي إذ تشكل الرؤية والتجربة المقاوماتيه للشيخ البشير الإبراهيمي فضاءا تراثيا وثقافيا وأدبيا وجماليا مفتوحا على مساءلات كثيرة داعية إلى إرساء معالم الأمل والقوة والكشف عن العمق الإنساني واستفزازه نحو المقاومة جاعلا من المقاومة ثقافة يجب أن ترسخ في الفرد قبل الجماعة، واستنباط جل الطاقات الإنسانية دفاعا عن الأرض والعرض والهُوية.

تتجاور شخصية البشير الإبراهيمي فكرة التصنيف والحدود الجغرافية ، فهو الإمام والمصلح والأديب والمفكر على الصعيد الوطني الجزائري والعربي والقومي وحتى العالمي ، كما تميز البشير الإبراهيمي بسلاحه اللغوي جاعلا من اللغة العربية وسيلة حادة وجادة، ومعلنة بقلمه مواقفه الصارمة وجهوده الجبارة في مجال الإصلاح على المستوى الخاص والعام،فالإبراهيمي ناقش قضايا عدة منطلقا من مشاكل بلاده ليصل إلى مشاكل البلدان العربية والإسلامية.

وعليه تقف هذه الدراسة على جهود هذا الرجل على الصعيد الوطني والقومي ومستعينة بما ألفه وبما ألف عنه ومجيبة عن إشكالية مفادها كيف عبر الإبراهيمي عن القضايا الوطنية والقومية من خلال أثره الأدبي؟ .

لذلك تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على أبرز الجهود التي بذلك الابراهيمي من خلال طروحاته الوطنية والقومية اتجاه مختلف القضايا.

**2. محمد البشير الإبراهيمي/ذاكرة لأثر وطني خالد.**

تحت هذا العنوان سنقف وقفة موجزة تكشف –جزئيا- عن بعض أثر لهذا المعلم الوطني الخالد في الذاكرة والتاريخ.

**1.2.لمحة عن حياة البشير الإبراهيمي:**

ولد الشيخ البشير الإبراهيمي في شهر شوال سنة وثلاثون مائة وألف للهجرة، الموافق للرابع عشر من شهر يونيو 1889م"(1) في قصر الطير في قبيلة ريغة الشهيرة بـ أولاد إبراهيم، دائرة سطيف، والتي يرتفع نسبها إلى إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة في المغرب" (2) نشأ الشيخ في بيت علم وأدب، فوجد الرعاية والعناية لصقل مواهبه، وتهيئتها لتلقي فنون العلم والآداب اهتم والده بتربيته وتعليمه المبادئ الأولية من القراءة والكتابة، وشمله بالرعاية والتربية الحسنة أدخله بعد ذلك كتّاب القرية وليحفظ القرآن الكريم على الطريقة التقليدية المتبعة حينئذ وعمره لم يتجاوز السنة الثالثة"(3)

كان الذي يشرف على هذا التعليم عمه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي وكان حامل لواء الفنون العربية غير مدافع"(4)والذي استلمه لما بلغ السابعة من عمره وتولى تعليمه وتربيته بنفسه، فيقول الشيخ الإبراهيمي في ذلك:" فلما بلغت سبع استلمني عمي من معلمي القرآن وتولى تربيتي وتعليمي بنفسه، فكنت لا أفارقه لحظة حتى في ساعات النوم" (5)

فحفظ القرآن الكريم بكامله في سن التاسعة وحفظ ألفية بن مالك ومعظم الكافية له، وألفية ابن معطي الجزائري وألفيتي الحافظ العراقي في اليسر والأثر وغيرهما وهو لم يتجاوز الرابع عشر من عمره"(6)

ولما تجاوز الإبراهيمي العشرين سنة من عمره، قرر الهجرة إلى المدينة المنورة" حيث هناك حرية التعليم متاحة وكتب الدين واللغة مباحة"(7)

تم في سنة 1911 شد الرحال إلى مصر وأقام بها مدة ثلاثة" ثم إلى المدينة المنورة في أواخر سنة 1911 وهناك انكب على اغتراف العلم ومجالسة علماء المدينة ممن كانوا في ذاك الزمان، وكان أشهرهم الشيخ العزيز الوزير التونسي، والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي"(8)

إلى جانب إلقاءه لدروس في العلوم التي يتقنها، كالنحو والصرف وعلم اللغة والعقائد والأدب مع هذا كان رحمه الله مدة إقامته بالحرم النبوي يغشى العديد من المكتبات الجامعية

والخاصة، وأهم تلك المكتبات، مكتبة شيخ الإسلام، ومكتبة السلطان محمود، ومكتبة الشيخ الوزير التونسي ومكتبة بشر أغا."(9)

وفي موسم الحج لعام 1913 اجتمع الإمام البشير الإبراهيمي بالعلامة عبد الحميد بن باديس" وتعاهد الشيخ رحمه الله مع الشيخ عبد الحميد بن باديس على نشر دعوة الحق والعلم بالجزائر إذا رجعنا إليها "(10)

توفي الإبراهيمي عن عمر يناهز السادس والسبعين سنة في سنة 1965 بالجزائر العاصمة وعن آثاره يقول الإمام الإبراهيمي:" لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلى بأنني ألفت للشعب رجالا، وعملت لتحرير عقوله، تمهيدا لتحرير أجساده وصححت له دينه، ولغته فأصبح مسلما عربيا وصححت له موازين إدراكه، فأصبح إنسانا أدبيا وحسبي هذا مقرّبا من رضى الرّب، ورضى الشعب"(11)

وأشهر مؤلفاته عيون البصائر وكتب أخرى منها:

-الفصح العربية في اللهجة العامية بالجزائر.

- النقايات والنفايات في لغة العرب.

- كتاب أسرار الضمائر في العربية .

-كتاب التسمية بالمصدر.

-نظام العربية في موازين كلماتها.

-الاطراد والشذوذ في العربية.

-ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة.

وبإمكاننا القول أن ما ذكرناه عن الشيخ البشير الإبراهيمي هو فكرة موجزة عن هذا الرجل العظيم، والعالم الجليل والمصلح الحكيم، فكتاباته الأدبية المتنوعة بين الخطابة والقصة والرسالة والمقالة لا تدركها الكلمات في أسطر معدودة ولا تعطيها حقها العبارات مهما طالت.

**2.2 الإمام محمد البشير الإبراهيمي في آفلو/ الأثر الأدبي للمنفى:**

من خلال العنوان أعلاه سنحاول أن نقف عند المنجز الأدبي للشيخ البشير الإبراهيمي وأن نعرج ونعالج ما كتبه الإبراهيمي في منفاه بمدينة أفلو.

لبث الإمام الإبراهيمي في المنفى بآفلو ثلاث حجج، وكانت السلطات الفرنسية في أثنائها تراقبه مراقبة صارمة، حيث منع ( حاكم البلدة الفرنسي) الناس من الاتصال به... ولكن ذلك لم يمنعه من متابعة نشاطه الإصلاحي بصورة خفية، وتحت هذه المراقبة الصارمة كان الإمام يسيّر شؤون الجمعية بقدر ما تسمح به ظروف الحرب عن طريق زواره من آله وصحبه الذين تأذن لهم السلطات الفرنسية بزيارته"(12)

إن هذا المنفى لم يكن بالنسبة للإبراهيمي إلا زيارة في العزيمة والقوة وتشبثا بالهدف ونافذة للأمل في الحرية فاستغل الإمام المنفى في إنتاج كتابات كثيرة" فمن أهم ما كتبه في هذه الفترة عدة فصول من كتاب عن أخيه الإمام عبد الحميد بن باديس... وقد ذكر الأستاذ

محمد الغسيري أن الإمام الإبراهيمي – عندما كان في المنفى- وضع برنامجا حافلا للتعليم العربي بجميع أنواعه، وضمنه أصولا عظيمة من علم التربية" (13)

تجدر الإشارة إلى أن كتابات الإبراهيمي استهدفت هي الأخرى، و طالها بطش المستعر فأتلف الكثير منها وضاع الكثير وما بقي الآن في المكتبات هو جزء من أثره يقول أحمد طالب الابراهيمي: "أما القليل من إنتاج الإمام في مرحلة آفلو، الذي نجا من الضياع فهو موجود في هذا الجزء، وهو ذو طابع أدبي ومنه رواية الثلاثة التي وصفت بالشعرية والهزلية والنقدية"(14) وهي كما قال:" أكرمك الله رواية الثلاثة، وهي أرجوزة أكثرها "لزوم ما لا يلزم" تمثل حالة ثلاثة من الأساتذة ،لا يدفعون عن فضل ولا أدب ولا ذكاء وما فيهم بعيد الأثر في الحركة الإصلاحية، واسع الخطى في ميدان تعليم الناشئة وتربيتها... وكان لهم شيخ يقارضونه برّا ببرّ و تكرمة بتكرمة، وكان لهم كالوالد يأبوهم ويحبوهم"(15)

"الثلاثة هم: الشيخ السعيد بن حافظ مدير مدرسة التربية والتعليم والحرة بقسنطينة، والأستاذان: عبد الحفيظ الجنان ومحمد بن العابد (الحلالي)، المعلمان بها، وشيخهم هو مؤلف الرواية"(16)

وبذلك كان المنفى محطة إنتاج أدبي مميز للإبراهيمي، ومنبرا لتسير شؤون الجمعية بالرغم من شدة الحصار المفروض من طرف المستعمر الفرنسي.

**3.2.الإبراهيمي وجدل التصنيف:**

إن الأستاذ الإبراهيمي قبل أن يكون إماما مصلحا، وفقيها أصوليا، ومربيا حكيما وسياسيا محنكا، كان أدبيا شاعرا، وخطيبا مفوها، يهزّ القلوب ببيان ساحر، يعيد إلى الأذهان ما كان للخطابة العربية من مكانة وسلطان في عهودها القديمة الزاهرة وهو محدث بارع لطيف يعمر مجالسه بالحكمة، ويجملها بالنكتة ويعطرها بأريج اللطف، ينعش الأرواح، ويؤنسها بشعاع من الفكر يهدي العقول(17)

فكيف لنا أن نصنف الشيخ الإبراهيمي في تخصص معين أو مجال محدد وهو الموسوعي الشامل؟ وعلى الرغم من هذا لم يكن الإبراهيمي "أدبيا متفرغا لشؤون الأدب ، متخصصا في الكتابة والتأليف، كما هو الحال عند أغلب أدباء العصر الحديث،إنما كان عالما مصلحا، وداعية مجتهدا يستخدم الأدب وسيلة لتبليغ دعوته والوصول إلى مقصده وأحيانا يستخدم براعته اللغوية أداة للتعبير الجميل دون أدنى تكلف أو اجتهاد"(18)

ولم يقتصر اهتمام الإبراهيمي من حيث تكونه، على مجال دون غيره من المجالات العلمية والفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والتربوية فقد سعى أن يلم بثقافة عصره، وأن يحيط علما بالتيارات الدائرة فيه،ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأن يكرس ذلك لخدمة وطنه وعقيدته في خدمة الجزائر الوطن المستلب المغتصب والإسلام الدين المستهدف المحارب، ولعل المسؤولية الجليلة التي ألقيت على عاتقه والمهمة العظيمة التي أنيطت به إثر وفاة رفيق دربه ابن باديس-رحمه الله- والمنعرج التاريخي الحاسم الذي وجد فيه لعل كل ذلك

كان حافزا له وملهما على التكوين الموسوعي والإلمام بثقافة العصر المستجدة على قدر إلمامه بثقافة التراث المتجدد، مما أتاح له فرصة بناء رصيد معرفي شاسع، وهو ما يتجلى في آثاره المتعددة وفي أقواله من عرفة ولقيه(19)

"ومن المعلوم الذي لا يقبل الشك أن الإبراهيمي كان عالما ربانيا حيي بدينه ولدينه، في كل صغيرة وكبيرة، في كل حقيرة وجليلة، عميق الإيمان بأن الإسلام قانون شامل لأنواع التدابير المحيطة بمصالح البشر من حرب وسلم، وخوف وأمن،وسياسة وإدارة، وقضاء في الأموال والدماء والجنايات وفي بناء الأسرة"(20) وعلى يقين تام بأن الإسلام"أصلح نظام لقيادة العالم الإنساني"(21) وأن"دواء العالم مما هو فيه هو الإسلام مقتنعا أنه دين وسياسة"(22) صاغ الإبراهيمي فلسفة العيش بروح مؤمنة بالله وساعية إلى رضى الرب منطلقا ومقتنعا بأن الإسلام هو رؤية ومعاملة مزدوجة وناضجة لتسير الحياة في العالم.

**4-2البشير الإبراهيمي والقراءة النقدية:**

يطرق الإبراهيمي هذه المرة باب النقد فنلفيه ناقدا خبيرا ومتذوقا بارعا يناقش الإنتاج الأدبي لكبار الأسماء على الساحة الأدبية فقد كتب مقالا عنونه بـ: "الدين في شعر أحمد شوقي"

يقول في جزء منه "إن لشوقي عليّ لحقا أوجبته على نفسي حين غاليت بقيمته في شعراء العربية غابرهم وحاضرهم"(23)

ومرّد هذا القول أن الإبراهيمي كما سبق الذكر يرى أن الإسلام نظام صالح لقيادة العالم الإنساني، باعتبار الأدب جزء من العالم الإنساني ومعادلة الأدب والإنسان هي معادلة الموضوع ووجهات النظر التي يتبانها الشاعر، والجيد بالنسبة للإبراهيمي تعبير الأدب وبالروح والمشاعر الإسلامية، وفق ما يمليه الكتاب والسنة لذلك أخلص الإبراهيمي احترامه وتقديره وإعجابه الكبير لأحمد شوقي كونه قدم التصور الإسلامي كموضوع ومعالجة فكرية على ضفاف المعاني والدلالات من خلال لغته الشعرية.

وفي نفس المقال يقدم الإبراهيمي نظرة ثاقبة بعيدة الأثر تتسم بالعمق والشمول والتسامح والإنصاف والأخلاقية والإنسانية، فيوافق شوقي فيما يعرب عنه شعرا من أراء كرأيه في (الدين) فالدين في شعر شوقي أعم من ( الإسلام)، فيوافقه في ذلك ولا ينكره عليه ...فشوقي تغنى بكل دين استحدث خلقا أو ثبت فضيلة إنسانية أو زرع محبة بين الناس،أو أنشأ حضارة أو زاد فيها أو ولد فنا أو كان إرهاصا بدين أكمل"(24)

إن هذا الاعتراف بقوة شوقي الشعرية وبراعته إلا أن للإبراهيمي نقدا آخرا يصرح فيه بمعارضة لقضايا ووجهات النظر التي جعلها شوقي مادة لشعره كانبهار بفرنسا وحضارتها المزعومة إذ يقول الإبراهيمي" ومع تأثر الجزائر الشديد بشعر شوقي وعقيدتها التي لا تتحلل

في شاعريته ومع اعترافها بأنه أول من هز هذا الشرق العربي ببدائعه وآياته فإن الأدباء الجزائر مازالوا يعتبون عليه بل مازالوا ينقمون عليه مدحه لفرنسا وافتتانه ببعض ما ينوه به شوقي من فضائها فهو يقول:

**دم الثوار تعرفه فرنسا.....وتعلم أنه نور وحق**

**جرى في أرضها فيه حياة.....كمنهل السماء وفيه رزق.**

**وحررت الشعوب على قنها.....فكيف على قنها تسترق؟**

سامحك الله يا شوقي، أي شعب تحرر على قنا فرنسا ، فأن كان بعض ذلك فهو من باب الربا الفاحش، تأخذ فيه فرنسا أكثر مما تعطي وليس خالصا لوجه الحرية والتحرير"(25)

كما يدعو الإبراهيمي إلى التعامل مع النصوص الأدبية والأدباء بكل اعتدال وحيادية خالية من التعسف والأحكام القبلية المسبقة والنظر إلى الأديب وعمله تقييما وتقويما من زاوية التجربة الإنسانية فهو إذا أصاب أو أخطأ هو بشر والقارئ أيضا بشر لذلك ينبغى مراعاة ذلك ،وفي ذات السياق ومع شوقي يقول الإبراهيمي:"ونفس شوقي ينبوع متدفق بالرحمة والحنان قبل أن تكون ينبوعا متدفقا بهذه الروائع من الحكمة والبيان " (26)

فهذه الذات الإنسانية الرطبة ينبغي أن تدرك حجم المسؤولية الملقاة على عاتقها أولا قبل كل شيء يجب أن يشعر الأديب بمسؤوليته اتجاه وطنه ويستشعر مراقبة الله له.

**2-5وظيفة الأدب في نظر الإبراهيمي:**

إن العمل على وحدة الأمة غاية من أشرق غايات الإسلام ومن أجل الأهداف التي يسعى إليها وقد شرع الإبراهيمي في الحديث عن وظيفة من أبرز وظائف الأدب قبل أن يومئ إلى ماهيته لخطوره الأدوار التي يقوم بها أو ما يجب أن يقوم به، ليس وحدة بل اللغة معه، فأسمى وظيفة للأدب تلك التي تجعل منه" (27)

عامل وحدة الأدب العربي بصروة عملية ،و تستمد العروبة شرعيتها من واقع اللغة والبيان والأدب فليس ميدان هذه القضية السلاح والحرب، وإنما ميدانها العقل والفكر"(28)

يرى الإبراهيمي أن الأدب ينهض بدوره حين:" يصور الخواطر ويأسو الجراح، ويؤلف بين الألسنة والقلوب حتى تتصافح الأيدي ويعود البناء كما كان أبيا لا ينال ،قويا ،لا يلين ولرب خاطرة لكاتب أو همسة لشاعر، أحيت رمما وبعثت دارسا وردت ذاهبا وفجرت البنابيع في صم الصخور"(29)

وفق هذا الرأي فالأدب ليس شعور يتنفس في حالات فيض النفوس وولعها بالكتابة وإنما هو سلاح ووسيلة جادة في إنتاج العلاقات بين الناس وإصلاح ما أفسده الزمن، لم لا إذا كان مزودا بمحمولات ثقافية ثرية بالفائدة وخادمة لصالح الأوطان والأمم."و فضلا عن كون الأدب خلاصة التجارب الإنسانية والثقافة البشرية خلال الأجيال فهو رباط لا ينفك بين الناطقين بلغته والعارفين بلسانه" **(30)** فالأدب هو سجل وهوية تعارف بين أبناء اللغة الواحدة..

**3. .البشير الإبراهيمي والقضايا القومية:**

**1.3 مواقف الإبراهيمي بين العروبة وفلسطين:**

**1.1.3اتجاه العروبة:**

تجاوز الإبراهيمي فكرة حث العرب على التكتل من أجل الوحدة العربية التي تحقق –حتما- الفوائد الكثيرة والتي تشمل جميع الأصعدة إلى أعطاء حلول وخطوات منهجية وعملية تدر حتما الوحدة العربية إذا نُظِر لها بعين جادة وعليه سنحاول الوقوف عند أبر المقترحات بالنسبة للإبراهيمي من أجل الوحدة العربية.

**أ-توحيد الشعوب العربية:**

يرى الإبراهيمي أن أولى خطوات الوحدة العربية هي إزالة أسباب تنافر الشعوب العربية وذلك من خلال" الاجتهاد في تشكيل رأي عام لدى كل شعب من الشعوب العربية، ليتسنى لها تكوين رأي أعم يتولى التوجيه والإرشاد والتنشئة، إذ أن بعض الشعوب العربية مازالت إلى تلك اللحظة،لم يتكون فيها رأي عام، ومازالت تحت سيطرة الزعامات الفردية، التي تمثل مؤشرا للتفكك وأساسا للتخاذل ،كما أن بعض الشعوب تشهد وجود رأي عام لكنه يفتقد للنضج، لأن الرأي العام لا ينضج إلا في مناخ يسوده الاستقرار والثقافة الهادئة التي تأخذ على عاتقها مهمة التوحيد، ومقاومة التيارات الأجنبية المهدمة، كالشيوعية والمذاهب الفكرية الغربية التي تربك الأفكار"(31)

وفي هذا القول إشارة إلى النظام الاجتماعي والحضاري القائم في البلدان العربية والمتفاوت يبنهم وما يتضمنه من "اختلافات في البناء الاجتماعي والاقتصادي والإيديولوجي ولا شك أنها تشكل معوقا من المعوقات الأساسية في سبيل قيام الوحدة العربية على أسس متينة"(32)

**ب- تعريب الحياة:**

ينظر الإبراهيمي إلى الوحدة العربية من زاوية تعريب الحياة في المجتمع العربي"بدءا بتعريب الألسنة والأفكار، والعقول، والأذهان والتصورات وحتى اللباس ووسائل النقل وأساليب المعاش وهيئات الأكل والشرب والنوم وأثاث البيوت"(33)

وبالتالي يكون التعريب شاملا لمناحي الحياة في كل المجتمعات العربية:"فاللغة هي روح الأمة وحياتها...ومحور القومية وعمودها الفقري، وهي أهم مقوماتها ومشخصاتها"(34)

ومعنى هذا أن الاستعمار حاول جاهدا قتل اللغة العربية وإحياء لغة الاستعمار ، بهدف بسط السيطرة الكلية وإلغاء هوية الأخر العربي ومحو ثقافته القومية.

**ج- الحرية الفكرية والأدبية للأمة العربية:**

كان الشيخ الإبراهيمي، خلال المؤتمرات الأدبية والمنتديات الفكرية واللقاءات العلمية، كثير الحرص إلى دعوة الأمة إلى ضرورة استقلالها أدبيا وفكريا ولغويا، أكثر من حرصه على الجوانب السياسية والاقتصادية التي لا تبرز على نحو كاف خصائص الأمم ومميزات الشعوب لأن الذي يبرزها ويستعرضها أكثر من الأمم الأخرى، آدابها وأفكارها ولغاتها.(35)

فالاستقلال الفكري والأدبي للشعوب يمنحها الوعي الكافي بما يكفي لتنتج السلاح والحماية لما هو اقتصادي وسياسي لذلك أعطى الشيخ الإبراهيمي الأولوية للاستقلال الفكري والأدبي على السياسي والاقتصادي.

فالأدب عند الإبراهيمي هو" الوشيحة القوية والوثيقة الباقية التي لم تتقطع طوال القرون وعبر الأزمان...فهذه هي الأيام تطوي الدول وتقرب البعيد، أو تبعد القريب، العربي والشعر العربي رسلا صادقين وروابط قوية بين أبناء العروبة كلهم"(36)

فللأدب العربي دور جبار-بحسب هذا الرأي- في توحيد العرب إذ هو جسر وصل بين أبناء العروبة:"فالأدب العربي مثل الرباط، الذي عجزت السياسات الإقليمية المفرقة على حل عروقه، وسيظل على مر الأزمنة جامعا للعروبة، موحدا لآلامها وآمالها، شريطة أن يبقى عربيا في أصوله وقواعده لا شرقيا لا غربيا، يستمد شخصيته وأهدافه من الحاجات الواقعية للمجتمعات العربية، وليس من تلك المفتعلة أو المزيفة"(37)

**2/1/3/اتجاه فلسطين:**

إن فكر البشير الإبراهيمي انشغل بقضايا وطنية وقومية ومن ابرز هذه القضايا قضية فلسطين هذه الأخيرة التي شكلت عربيا على مرّ السنين موضوع سجال أدبي بين النثر والشعر ، وسياسي ...إلخ وموضوعا ملحا عليهما بكل المقاييس وفي حقيقة الأمر لسنا –في مقامنا هذا- بحاجة ماسة إلى ذكر الروابط الوثيقة بين الجزائر وفلسطين لا قديما ولا حديثا فاللغة

تشهد والتاريخ يشهد والدين يشهد والعالم يشهد فأوجه التلاقح والتمازج والتكامل لا تعد:"فلم تشعل قضية بال المسلمين كما شغلته قضية فلسطين لأنها –إضافة- إلى بعدها السياسي والإنساني-قضية دينية ففيها المسجد الأقصى، مسرى الرسول صل الله عليه وسلم ومبتدأ معراجه وأولى قبله وجه الرسول صل الله عليه وسلم والمسلمون وجوههم إليها، وهو ثالث المساجد التي لا تشد الرحال إلا إليها"(38)

ولا نفشي سرا إذا قلنا أن الإبراهيمي من بين من حملوا سلاح الكلمة ورفعوا الصوت عاليا لإيقاظ هذه الأمة من الخطر الذي يخنق كيانها ويكبل حريتها ويزعزع استقرارها يقول الإبراهيمي في مقال له في جريدة البصائر" هذا الوطن الجزائري الذي نشأنا فيه وربينا وغذينا فيه (عربي المنتسب، يشهد بذلك القلم واللسان، والأسماء والأفعال)...فإذا تألم لفلسطين فهو محق، ولكن ليس بالأقوال والاحتجاجات نوفي لفلسطين حقها علينا...إن التفجّع والتوجع عليها لا يدفع عنها أذى.." (39)

ويؤكد الإبراهيمي على فكرة العروبة وعلى أن فلسطين جزء من اكتمال العروبة وحق فلسطين على العرب هو الدفاع القوي الشرس والاتحاد العربي لا الفرقة الحمقاء بينهم يقول الإبراهيمي" وعلى الزعماء ألا يكونوا متفرقين وأن يكون همهم فلسطين لا الجري وراء الزعامة والشهرة وألا يشغلهم الأعداء بأمور أخرى هامشية غير القضية الفلسطينية"(40)

ينطلق الإبراهيمي في مسألة دعم القضية الفلسطينية من قضية الاتحاد في الرأي والفعل والقول ،بين الزعماء العرب ونبذ سياسة الزعامة من أجل الشهرة وتبني الزعامة للقيادة الحكيمة وخدمة مصالح الوطن والأمة.

"أيها العرب، إن قضية فلسطين محنة امتحن الله بها ضمائرهم وهممكم وأموالكم ووحدتكم، وليست فلسطين لعرب فلسطين وحدهم، وإنما هي للعرب كلهم، وليست تنال بالشعريات والخطابات وإنما تنال بالتصميم والحزم والاتحاد والقوة"(41)

وفي مقال آخر له بعنوان: عيد الأضحى وفلسطين يقول: لقد حلّ يوم العيد، فالناس تفرح وتمرح وتسعد وتتمتع...في حين يعاني إخواننا الفلسطينيون من الجوع والبرد والعري ونحن عنهم غافلون...

ثم يقول أيها العرب لا عيد لكم حتى تخرجوا اليهود من فلسطين وتعيدوا أهلها إليها معززين مكرمين، فمن الحرام أن تتمتعوا بالحياة السعيدة وإخواننا هؤلاء محرومون شظف العيش.."(42)

وعليه نالت القضية الفلسطينية حيزا كبيرا من كتابات الإبراهيمي مؤكدا على ذات الوقف نصرة القضية والاهتمام الفعلي بها.

**4- خاتمة:**

إن ما نخلص إليه في دراستنا هذه حول الإمام محمد البشير الإبراهيمي هو أن فضل هذا الرجل على الجزائر وعلى العرب كبير فهو فكر نابض بالحركة والعزيمة والإصلاح ومَعْلَمٌ منير لرؤية إصلاحية مقاوماتية دينية حضارية ترفض الضعف وتمجد البسالة والشجاعة وعليه سنورد بعض النتائج التي توصل إليها هذا البحث فيما يلي

-استطاع الإبراهيمي بشجاعة وقوة التصدي لأشكال الاستعمار محاولا التمسك بالهُوية الوطنية والقومية.

- تمكن الإبراهيمي من طرح ومناقشة العديد من القضايا المتعلقة بالأدب والحياة مستفيدا من تجارب من سبقوه ومبرزا سعة اطلاعه حكمة نقاشه.

-حمل الإبراهيمي لواء اللغة العربية و صرخ بأعلى صوته لتعريب الحياة والرفع من لغة القرآن الكريم.

-جعل من الأدب العربي جسرا لمد أواصل التواصل بين الأجيال العربية وسجلا هاما لحفظ تاريخهم ولغتهم.

- ركز الإبراهيمي على الجانب الإسلامي ونادى للأدب الإسلامي.

**5- الهموامش:**

-1محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي،نضاله وآدابه،دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1988،1،ص:33.

-2 عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان ط2، 1980،ص:13

-3 محمد مهداوي،مرجع سابق،ص:33

4-محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديبا، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران،دط،دت،ص:32.

5-محمد البشير الإبراهيمي، أنا، مجلة الثقافة ،ع 87، مايو، يونيو،1985،ص:13.

6-محمد مهداوي، مرجع سابق،ص:34.

7- المرجع السابق،ص:15.

8- المرجع نفسه،ص16 ومابعدها

9-محمد البشير الإبراهيمي،أنا،مرجع سابق،ص:18 وما بعدها

10 محمد البشير الإبراهيمي، أنا مرجع سابق،ص:32.

11أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشر الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي ، الجزء الثاني،1952،1940،ط1997،1،بيروت ،ص:15.

12 المرجع نفسه،ص15

13المرجع نفسه،ص :16

المرجع نفسه،ص:17 14

أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشر الإبراهيمي،مرجع سابق،ص:59. 15

16المرجع نفسه،ص:60

17 المرجع نفسه، ص:09

18عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر،ط2009،1،ص 34

19رابح بن خوية، معالم النقد الأدبي عند البشير الإبراهيمي، الأرشيف العربي العلمي،2018 ،ص: 2

20أحمد طالب الإبراهيمي،آثار البشير الإبراهيمي،دار الغرب الإسلامي،ج4،ط1، بيروت ،1997،ص67.

21عبد الملك بومنجل، المرجع السابق،ص:68.

22المرجع السابق،ص:170

أحمد طالب الإبراهيمي، المرجع السابق ،ج5،ص:201 23

24المرجع نفسه،ص:201

25 آثار، ج5، مرجع سابق، ص:229.

26 المرجع نفسه،ص:202

27 رابح خوية، معالم النقد الأدبي عند البشير الابراهيمي، الارشيف العربي العلمي، 2018،ص:23

28 أثار،ج5،ص:211

29 المرجع نفسه،ص:211

30المرجع نفسه،ص:211.

31آثار،ج4، مرجع سابق،ص:375،374.

32السيد يسن، الوعي القومي المحاصر(أزمة الثقافة السياسية العربية المعاصرة، مركز الدراسات السياسية العربية بأهرام،القاهرة، دط،1991،ص:90 ومابعدها.

33 أثار، ج5،مرجع سابق، ص:267

34محمد عابد الجابري، المشروع النهضوي العربي، مراجعة نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية،ط2،بيروت،2006،ص:98،97.

35المرجع السابق، ص:26.

36المرجع نفسه،ج5،ص:210

37 المصدر نفسه،ص:211.

38 محمد الهادي الحسني، فلسطين، سلسلة مواقف الإمام الإبراهيمي، مؤسسة عالم الآثار، الجزائر، 2006،ص:7

39 محمد البشير الإبراهيمي، جريدة البصائر، العدد25، مارس،1948،ص

40المرجع نفسه،

41 أحمد طالب الإبراهيمي آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، دار الغرب الإسلامي، الجزء الثاني،1940-1952،بيروت،ص:10 [1]

42محمد البشير الابراهيمي، جريدة البصائر العدد 53 ،18 أكتوبر 1948

## 6. قائمة المراجع:

1محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي،نضاله وآدابه،دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1988،1.

-2 عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان ط2، 1980.

3-محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديبا، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران،دط،دت.

4-محمد البشير الإبراهيمي، أنا، مجلة الثقافة ،ع 87، مايو، يونيو،1985..

5أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشر الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي ، الجزء الثاني،1952،1940،ط1997،1،بيروت.

6-عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر،ط2009،1 .

7-رابح بن خوية، معالم النقد الأدبي عند البشير الإبراهيمي، الأرشيف العربي العلمي،2018 .

8-أحمد طالب الإبراهيمي،آثار البشير الإبراهيمي،دار الغرب الإسلامي،ج4،ط1، بيروت ،1997.

9-السيد يسن، الوعي القومي المحاصر(أزمة الثقافة السياسية العربية المعاصرة، مركز الدراسات السياسية العربية بأهرام،القاهرة، دط،1991.

10محمد عابد الجابري، المشروع النهضوي العربي، مراجعة نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية،ط2،بيروت،2006،.

# القضايا القومية في أدبيات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي"القضية الفلسطينية أنموذجا"

زرارقــة علي/ طالب سنة ثانية دكتوراه
جـامعة ابن خلدون – تيــارت-
**البريد الالكتروني:** zerarka.ali2018@gmail.com

**الملخص:**

**لايوجد ملخص باللغتين.**

**مقدمة:**

واجهت النخب الإصلاحية ببلدان المغرب العربي الاستعمار الأجنبي فكريا انطلاقا من مبادئها الدينية والفكرية النابعة من عقيدتها ورصيدها المعرفي , كما استطاعت هاته النخب تكوين جيل ذو وعي ديني وسياسي مميز استطاع مجابهة الفكر الاستعماري الرامي لطمس مقومات الشخصية العربية الإسلامية للمجتمعات المستعمرة ,إذ نجد أن هاته النخب بفكرها الإصلاحي من جهة ومبادئها التحررية من جهة أخرى سعت لإفراز قيادات وزعامات تولت تسيير الحركة الفكرية والوطنية وحتى القومية, وعملت على تقديم إسهامات لدفع عجلة الحركة الإصلاحية على المستوى المحلي وحتى على المستوى القومي, ولعل ابرز نموذج لذلك هو شخصية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي التي مارست دورها الإصلاحي و التوعوي وحتى السياسي من داخل الجزائر وخارجها, إذ لقيت القضايا القومية والعربية حيزا كبيرا في اهتمامات الشيخ الإبراهيمي , واهم هاته القضايا هي القضية الفلسطينية وذلك من خلال ما قدمه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من كتابات ورؤى حولها فاعتبرها قضية محورية يجب على كل العرب والمسلمين الاهتمام بها والدفع بإسهاماتهم الفكرية والإصلاحية لتمكينها نيل حريتها , وعلى سبيل المثال لا الحصر تلك المقالات التي عبر فيها عن فكره وأهدافه حول القضية الفلسطينية بجريدة البصائر وكذلك ما وجد من أثار فكرية والتي جمعت في مؤلف بعنوان أثار الإبراهيمي والتي من خلالها تتأكد الرؤية الحقيقية للشيخ حول هاته القضية التي ظلت هاجسا لديه, فدعى لنشر الأفكار التضامنية وبث المساعي الإصلاحية وضرورة تحقيق الأهداف التحررية,ومن هنا يمكننا طرح العديد من التساؤلات:فيما تمثلت المساعي الوحدوية للشيخ الإبراهيمي؟وما هي نظرته للقضايا القومية والعربية عامة؟ وكيف كانت جهوده ومساعيه حول القضية الفلسطينية؟

**- التعريف بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي :**

هو محمد البشير الإبراهيمي، بن محمد السعدي بن عمر بن محمد بن السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي، ولد يوم 13 جوان 1889 م بقبيلة " أولاد براهيم "بقرية" رأس الوادي" بدائرة سطيف، وهي قبيلة عربية النسب تنتمي في أصولها إلى الأشراف الأدارسة. نشأ في عائلة جزائرية ذائعة الصيت، توارث أفرادها العلم أبا عن جد منذ أكثر من خمسة قرون ، يقصدها طلاب العلم من مختلف أنحاء البلاد للتعلم والتلقين, هاجر سنة 1911م إلى المشرق العربي، للاستزادة في طلب العلم و المعرفة، و مكث هنالك إلى غاية سنة 1920 م ,و بعد عودته إلى الجزائر بذل جهودا كبيرة في التربية و التعليم لاسيما بعد لقاءه مع زميله الشيخ عبد الحميد بن باديس، وقد كانت فلسفته في تكوين النشأ ترتكز على تربيته ونشره للأفكار الصحيحة والأخلاق الإسلامية الحسنة, ومحاربة الشعوذة والابتداع في الدين, كان من بين الأعضاء البارزين المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الخامس من ماي 1931م بنادي "الترقي" بمدينة الجزائر العاصمة، والتي كانت تهدف لإصلاح المجتمع ومواجهة المحتل بالتنوير والتعليم، فاعتقلته السلطات الفرنسية بتلمسان يوم 12أفريل 1940م، ثم نفته إلى منطقة "آفلو" بالجنوب الوهراني, أختير رئيسا لجمعية العلماء خلفا للشيخ عبد الحميد ابن باديس المتوفى يوم 16 افريل 1940م،بعدها أعتقل اثرأحداث الثامن ماي 1945م. ليقيم بعدها في المشرق العربي وبعض الدول الإسلامية خلال الفترة الممتدة بين 1952 م– 1962 م، طالبا المساعدة من الأشقاء العرب والمسلمين لدعم النهضة العلمية والثقافية الناشئة في الجزائر، ولحشد الدعم المادي و المعنوي للثورة التحريرية بعد اندلاعها في أول نوفمبر 1954م ،أين لعب دورا بارزا حتى إرتبط إسم البشير الإبراهيمي بالثورة الجزائرية والحركة الإصلاحية بالمشرق العربي والبلاد الإسلامية. توفي رحمه الله يوم التاسع عشر ماي 1965 م عن عمر يناهز السادسة والسبعين عاما,حيث ترك الكثير من المقالات والخطب والأحاديث والدروس والمحاضرات، والتي جمعت تحت عنوان "آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي"، وهي ذات قيمة أدبية و لغوية، وفكرية وسياسية كبيرة

1

**وصف الشيخ البشير الإبراهيمي لحال الأمة العربية في ظل الاستعمار وأسبابه:**

يصف الشيخ محمدالبشير الإبراهيمي الأمة العربية في حال شتاتها وفقدان توازنها ووحدتها فيقول :"أفكر في قومي العرب فأجدهم يتخبطون في داجية لا صباح لها،ويفتنون في كل عام مرة أو مرتين،ثم لايتوبون ولا هم يذكرون،وأراهم لاينقلون قدما إلى أمام ،إلا تأخروا خطوات على وراء،وقد أنزلوا أنفسهم من الأمم منزلة الأمة الوكعاء من الجزائر."[2]

إذ شهدت الأمة العربية العديد من مظاهر الفرقة والشتات ،ولولا هذا التمزق ما تجرأ الاستعمار على إحتلال بلدانها،وفي ملامسته لأصل هذا الداء الخطير الذي نخر جسد الأمة يذكر الإبراهيمي انه بدأ بسيطا في شكل إختلافات دينية ومذهبية ،لينتقل إلى الشؤون الدنيوية،ثم ليتشعب في كل نواحي ومجالات الحياة من سياسية وثقافية وإقتصادية وغيره،ومن أبرز مظاهر هذا الانقسام مايلي:

- تعدد الزعامات السياسية والدينة في العالم العربي والإسلامي
- تصارع هذه الزعامات فيما بينها وإستقوائها بالأجنبي على حساب أبناء جلدتها.
- مقابلة القضايا المصيرية للأمة بكثير من اللامبالاة والاستهزاء.
- بيع الذمم والضمائر والتفريط في المصالح القومية.
- غياب وحدة عربية ،لاسيما على المستوى الرسمي تكفل توحيد المواقف تجاه القضايا المصيرية مجابهة بذلك الحركة الاستعمارية.
- **ضرورة وحدة الأمة لدى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:**

لم تقف القضايا الوطنية على كثرتها وثقلها حائلا في وجه الشيخ الإبراهيمي للتطلع إلى أوضاع أمته العربية الإسلامية, وتحسس أوضاع المسلمين ومعرفة حقيقة المشكلات التي تواجههم وأنجع الحلول المقترحة لتجاوز تلك المشكلات, ولذا وجدنا الإبراهيمي انه ومن بين الأسباب والدوافع التي عملت على رحلته إلى الأقطار الإسلامية ما يلي :"...والأصل الذي ترجع إليه تلك الدواعي يتشعب إلى أربع شعب: الأولى: دراسة أحوال المسلمين في مواطنهم، وبحث المقارنات والمفارقات القائمة في تلك الأحوال, ونسبة درجة الانحطاط فيهم إلى درجات الاستعداد للنهوض, وتصحيح الميزان لما تستطيع كل طائفة منهم أن تقدمه إلى الأخريات من العون والماعون,حتى يحصل التعاون بعد تحصيل أهم أسبابه ..."[3]

فنجده يقول:"ولو كان أجدادنا فهموا شيئا من التضامن الإسلامي ،لما ترك المراكشي والتونسي الجزائر تتخبط وحدها في المقاومة ،ولنبهتهم ضمائرهم إن هذا الغولان تغذى بالجزائر فسيتعشى بتونس ومراكش،ولكنه كان مستيقظا وكانوا نائمين ،حتى إنتهى الأمر إلى الغاية المحزنة".[4]ونستنج من كلام الشيخ الإبراهيمي أن المسؤولية تعود بالدرجة الأولى إلى الشعوب العربية وحكامها حيث لم تعمل على بث روح التكافل والتعاون والتآزر التي نادى بها ديننا الإسلامي.

أما بالنسبة لمسالة الوحدة العربية فنجده في الكثير من الكتابات يجعلها من أكبر غاياته وأهدافه ويدعو الجميع إلى غرس الفكر الوحدوي في نفوس النشأ ،فقد جاء في مقالة للإبراهيمي تحت عنوان"حالة المسلمين" نشرتها مجلة الأخوة الإسلامية في عدد 17لسنة1953م ،مايلي:"لا أحمق منا ،نلقن أبناءنا الخلاف في الدين والدنيا بأعمالنا ونقول لهم بألسنتنا إتحدوا،وإن صالحة يأخذها الابن من أبيه بطريق القدوة خير من ألف نصيحة باللسان."[5]

ونلمس رغبته وأمله الكبير في السعي وراء تحقيق الوحدة العربية التي لابد منها فعلا وليس فقط قولا

ونجده في حديث له لإذاعة بغداد سنة 1952م يصرح مايلي :"آن الأوان لأن نتعارف،وآن الأوان لأن تجتمع هذه الأجزاء المتنافرة من الجسم الإسلامي الكبير،ووجب على كل مخلص لدينه،أن يسعى في جمع هؤلاء الإخوة المتقاطعين في مصلحة غيرهم."[6]ومن خلال ذلك نجد أن الشيخ الإبراهيمي يؤكد دائما على ضرورة تغليب العامل الديني على المسعى الوحدوي للأمة العربية.

و نجده كذلك بمجرد أن سمع بتوقيع الرئيس المصري جمال عبد الناصر على إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة في فيفري 1958م عمل على إرسال برقية تهنئة للرئيس المصري جاء فيها :" هذه الأيام التي كنا ننتظرها ونستبطئها،وهذا هو الأمل الذي قطعنا أعمارنا فيه أماني بالنهار وأحلاما بالليل،وهذا هو الحدث الذي كان يترقبه المصلحون والهداة إلى الحق والدعاة إلى الخير،وهذا هو الرجاء الذي بقي مترددا في لهوات الزمن إلى أن وجد الهمم التي تفل الحديد فأصبح حقيقة واقعة."[7]

وذكر مرددا الانعكاسات السلبية للفرقة التي سادت أوساط العرب والمسلمين ومن بينها أهم قضية وهي القضية الفلسطينية فقال:"لم يمر على العرب عهد كانوا فيه أحوج إلى الاتحاد وجمع الكلمة من هذا العهد،لأن المصائب التي جرها عليهم التفرق كانت المواقع متباعدة الأزمنة،بحيث لايحس بوقعها المؤلم جميع العرب إلى أن وقعت واقعة فلسطين،وسود عارها وجوه العرب كلهم،وزاد في إفتضاحهم بها ،أن حلت بهم القارعة وهم مجتمعون،فكانت صرخة خرقت الأذان ونفذت إلى مواقع الإحساس من العرب جميعا."[8].

ويتضح لنا فان الشيخ الإبراهيمي كان قد أدرك خطورة تلك المرحلة التي استطاع فيها المحتل الأجنبي التوسع على حساب البلاد العربية الإسلامية بدءا من إحتلال الجزائر1830م مرورا باحتلال تونس سنة 1881 والمغرب الأقصى سنة 1912م ووصولا إلى ضياع فلسطين بعد وعد بلفور المشؤوم سنة1917م.

ويؤكد وحدة الدين واللسان فيقول الإمام محمد البشير الإبراهيمي:"الأمة الجزائرية هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين وهي ثلة من المجموعة العربية من حيث اللغة التي هي لسان ذلك الدين ...فالأمم الإسلامية بهذا الدين وبهذا اللسان وحدة متماسكة الأجزاء يأبى لها الله لا تتفرق وان كثرت فيها دواعي التفرق ويأبى لها دينها وهو دين التوحيد إلا أن تكون موحدة"[9],

كما إننا نجد من خلال كتاباته رحمه الله تلك النظرة الشمولية للوطن العربي المسلم ,ويؤكد ضرورة التكافل والتآزر الجماعي للأمة فيصرح قائلا من خلال إحدى مقالاته بجريدة البصائر مناديا الشعب الجزائري فيقول:"إذا أصيبت الأمة بكارثة من كوارث الزمان ووجد فيها من يتألم لتلك الكارثة ويهتز لها فذلك دليل قوي على حيوية الأمة ورشدها ومقياسا صحيحا لتقدمها ونهوضها,وهي بذلك تقيم لأصدقائها وخصومها البراهين القاطعة على أنها خليقة بحريتها وجديرة بان تتبوأ مكانتها بين الأمم الحرة,وأما إذا كانت الأمة غافلة عن واجبها نحو المجموع لا يفكر أفرادها إلا فيما حولهم ولا تنظر جماعاتها إلا إلى محيطها الخاص فهي امة غبية ليست خليقة بالاحترام ولا جديرة بما تصبو اليه من حرية".[10]

كما أخذت القضية الفلسطينية حيزا كبيرا في اهتمامات الشيخ محمد البشيرالابراهيمي فنجده يتكلم عن أحقية فلسطين بالاهتمام من طرفنا وذلك من خلال إعانتها.

**الأهمية التاريخية والدينية لفلسطين:**

كانت مشيئة الله تعالى أن تشكل فلسطين خط الدفاع الأول عن الإسلام و بلاد المسلمين، فكان جل أنبياء الله في محيطها يبعثون، و أتم الله لها قدسيتها بالإسلام فأسرى بمحمد صلى الله عليه و سلم من مكة إلى بيت المقدس ثم أعرج به من بيت المقدس إلى السماء بعد أن صلى بالأنبياء فيها و في ذلك يقول تعالى :(( **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**))[11].

وفي سورة الإسراء السالفة الذكر (21) واحد و عشرون آية كانت كفيلة بربط كل أفئدة أبناء الإسلام منذ ظهوره و إلى أن يشاء الله تعالى بحب هذه البقعة المباركة ألا و هي بيت المقدس و من خلالها فلسطين فالرحال لا تشد إلا إلى ثلاثة مساجد كما جاء في الحديث النبوي الشريف :(( **لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام و المسجد الأقصى و مسجدي هذا**))[12], و هذا ما فهمه و وعاه الشيخ الإبراهيمي فهو يهفو فؤاده و لا يتوقف قلمه و لا تخفى مشاعره اتجاه فلسطين[13].

وكان لفلسطين وقضيتها هذا المكان المتألق في وجدان إمامنا الإبراهيمي, لما لها من بعد ديني عقائدي في نفوس المسلمين ومشاعرهم فهي ارض مباركة بنص القران الكريم[14].

كما كان يرى بأنه قد حان وقت البذل و النصرة لفلسطين و أهلها، فيقول رحمه الله:"...و صرح الاستعمار بشواهد الأقوال و الأحوال أنه أخ الاستعمار و ناصره و مقيم قواعده، و وصلت فلسطين إلى الدرجة التي يجب فيها العون على كل عربي و على كل مسلم و إن بعدت الدار و تكالب الإستدمار."[15]

ونجد على سبيل المثال لا الحصر مقال بهذا الصدد بجريدة البصائر في العدد 41بتاريخ 21 جوان1948, قال فيه رحمه الله:" إعانة فلسطين فريضة مؤكدة على كل عربي و على كل مسلم، فمن قام به أدى ما عليه من حق لعروبته و لإسلامه و من لم يؤده فهو دين في ذمته لا يبرأ منه إلا بأدائه، و من سبق فله فضيلة السبق و من تأخر شفعت له المعاذير القائمة حتى تزول، فإذا زالت تعلق الطلب و وجب البدار"[16].

و كان يرى رحمه الله أن القيام بعمل جليل مشترك في هذه الديار لإعانة فلسطين يجلب الشرف للجزائر و يرفع رأسها[17] .

**دور جريدة البصائر في دعم القضية الفلسطينية:**

لقد كان الشيخ رحمه الله يعي جيدا دور وسائل الإعلام في إدارة الصراع في القضية الفلسطينية فأقحم جريدة البصائر لسان حال الجمعية آنذاك في خضم هذا الصراع و ها هو يقول رحمة الله عليه:"كانت هذه الجريدة كتبت فصولا متتابعة في قضية فلسطين فشرحت فيها كثيرا من الخفايا و كشفت عن كثير من الخبايا و قامت عن الجزائر بالحق الأدبي لفلسطين كاملا، و حق لهذه الصحيفة أن تفتخر بأنها شاركت أخواتها العربيات في الشرق بجهد لا يقل عن جهودهن و جهاد قلمي لا يقصر عن جهادهن"[18]

**تشكيل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي للهيئة العليا لإعانة فلسطين:**

قام رحمه الله بتشكيل هيئة لدعم فلسطين سماها **الهيئة العليا لإعانة فلسطين** وذلك للارتقاء بمستوى الإعانة من المستوى النظري إلى المستوى العملي تشكلت الهيئة من:

محمد البشير الإبراهيمي: **رئيسا للهيئة**. عباس فرحات: **كاتبا عاما للهيئة**, الطيب العقبي: **أمينا ماليا للهيئة** و إبراهيم بيوض: **نائبا لامين مال الهيئة**, ثم تألفت لجنة للتنفيذ و المتابعة بالجزائر العاصمة و كانت تضم الخيرة من أبناء الجزائر من رجال العلم و الثقافة و رجال الأعمال و الاقتصاد و الشباب و بدأ العمل بإرسال برقيات تأييد و مؤازرة للفلسطينيين عن طريق الأمين العام لجامعة الدول العربية في ذلك الوقت السيد: **عبد الرحمن عزام باشا**، و كانت في المقابل برقيات أخرى للاحتجاج و الاستنكار للحكومات و الدول المسؤولة و ذات الصلة بالمأساة الفلسطينية[19].

كما قام رحمه الله بتقديم مكتبه الصغير المتواضع مقرا لأية هيئة تتقدم للقيام بهذا الواجب نحو فلسطين بقوله رحمه الله:"...و قد رمزت لهذا بتقديم مكتبي الصغير لأية هيئة تتقدم للقيام بهذا الواجب، و حكمة أخرى في عدم انفرادي بالعمل و هي إنني كنت أترقب الفرصة المناسبة لأقوم بدعوة جديدة إلى توحيد الأحزاب و الصفوف بعدما ضاعت جهودي القديمة، و أرجو أن يكون لي من قضية فلسطين عون على ما أريد، و لأنها قضية دينية قومية سياسية، ففيها من كل غرض جانبا و فيها لكل هوى جاذبا... ".

**موقف بعض العلماء والكتاب من كتابات الإبراهيمي حول القضية الفلسطينية:**

نظرا لإنتاجه الفكري الغزير فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية قال الأستاذ فائز الصائغ أستاذ الفلسفة بالجامعة الأمريكية ببيروت حين قرأ مقالا للشيخ بعنوان:**يا فلسطين**، في مضمون كلامه: "إنه لم يكتب مثله من يوم جرت به الأقلام في قضية فلسطين"[20].

و كان يرى الشيخ رحمه الله أن قضية فلسطين هي قضية محورية و هي الكفيلة بتوحيد الأمة فهل ستصدق نظرة الشيخ في يوم ما، و أنا أقول: نعم، لقد أصاب الشيخ فانه يرى

بنور الله تعالى و إنها لفراسة مسلم عالم، و بالنسبة للشعب الجزائري فكان يرى فيها أيضا بأنها الكفيلة بتوحيد الجهود الجزائرية من أفراد شعب و أحزاب سياسية , و ربما هذا الذي حدث بعد هذا التاريخ بسنوات قليلة لما ذابت كل الأحزاب و الهيئات في النواة الأولى التي حضرت لثورة التحرير المباركة , و لذلك لم يدخر جهدا و لم يكن محتكرا للقضية الفلسطينية، بل كان يراها قضية لجميع الأحرار في العالم عامة و للجزائريين على وجه الخصوص[21].

حيث نجد إن البعض ممن عاصروا الشيخ و عن قرب يرون أن أفضل ما كتبه الشيخ الإبراهيمي في حياته إنما كان مما كتبه عن القضية الفلسطينية، فها هو الشيخ عبد الرحمن شيبان أطال الله لنا في عمره يقول عنه معددا لصفاته و خصائص أدبه:(...و من الأنماط التي تكاد تجمع هذه الأساليب كلها رقة و جزالة، و قربا و سموا و سطحية و عمقا، هذه الفقرة عن قضية فلسطين التي تهم العرب و المسلمين كلهم على اختلاف مداركهم و اهتماماتهم، من أول نكبتها إلى اليوم، و ذلك إذ يقول كأنه يخاطبهم في ساعتنا الحاضرة:(أيها العرب، إن قضية فلسطين محنة امتحن الله بها ضمائركم و هممكم و أموالكم و وحدتكم، و ليست فلسطين لعرب فلسطين وحدهم، و إنما هي للعرب كلهم، و ليست تنال بالشعريات و الخطابيات، و إنما تنال بالتصميم و الحزم و الاتحاد و القوة ...إن الصهيونية و أنصارها مصممون، فقابلوا التصميم بتصميم أقوى منه، و قابلوا الاتحاد باتحاد امتن منه...)[22].

يكاد الإجماع ينطبق من طرف تلامذة الشيخ الإبراهيمي و رفاقه بأن القضية الفلسطينية كانت إحدى نقاط مشروعه النهضوي الحضاري الذي كان يعمل له، و قد ظهر هذا جليا في عيون البصائر و التي جاء بها زخم كبير من أفكاره و توجهاته، من جهاد في سبيل الإسلام و العروبة في جزائر كانت راضخة تحت نير الاستدمار الفرنسي و بما فيها من مقارعة سياسية

و دينية للاستعمار و أذنابه و بما فيها مناصرة كل قضايا الإنسانية العادلة بصفة عامة و لقضايا الأمة الإسلامية بصفة خاصة و التي على رأسها القضية الفلسطينية.

و ربما سبب اهتمامه هذا هو رحلته الطويلة مشرقا و مغربا و اطلاعه على أحوال المسلمين، سواء في المشرق أو في المغرب العربيين، و لقائه بالعلماء و المفكرين في هذه الأمصار و الديار، و بذلك يعد الإبراهيمي فلتة من فلتات الزمان كما كان يردد الشيخ العربي التبسي رحمه الله تعالى في الكثير من مجالسه حين كان يقول":**إن الإبراهيمي فلتة من فلتات الزمان، و إن العظمة أصل في طبعه**"لقد كان شعره بسيطا يتمثل في كلمات ثلاث هي :**الإسلام . العروبة . الجزائر**[23] .

**البعد الروحي للقضية الفلسطينية لدى الابراهيمي:**

لقد أعطى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ذلك البعد الروحي ذو الصبغة الشمولية للقضية الفلسطينية إذ نجد في إحدى مقالاته و في نداء موجه للشعب الجزائري العربي المسلم كما يسميه رحمه الله يقول:(في هذه الظروف الدقيقة التي تجتازها فلسطين العربية و في هذا الصراع العنيف الذي حمل عليه إخوانك العرب حملا و ألجئوا إليه إلجاءا لا خيار فيه، و في هذه الحرب المستعرة التي يوشك أن تضيق بها الرقعة فيتطاير شررها إلى جوانب العالم فتحرقه أو تغرقه...نحن نعتقد أن ميدان القتال بين العرب و بين اليهود هو فلسطين، أما الجزائر و غيرها من بقية أقطار العروبة فهي ميادين شعور و عطف و أخوة و تضامن يشعر فيها العربي بمحنة أخيه في فلسطين...)[24].

و هذا مستوى متقدم من تحليل للقضية الفلسطينية، و أما ما قاله الشيخ في ذلك الوقت قد أصبح أمرا واقعا في وقتنا الحالي فلا تسوية في الشرق الأوسط كما يسمى اليوم إلا بالمرور

على القضية الفلسطينية، و بهذا يكون قد وضعنا أمام حقائق تخص القضية من الوهلة الأولى التي استعمرت فيها فلسطين[25].

وهذا في رأينا راجع لشخصية الرجل التي كانت تتحلى بالحكمة وبعد النظر في القضايا وذلك نابع من فكره المتميز وواقعيته في تحليل الأمور قد يصل في بعض الأحيان إلى مرحلة التنظير.

أما عن موقفه من يهود العالم تجاه القضية الفلسطينية وتعاطفهم مع أبناء جلدتهم نجده يقول رحمه الله:(...و كما أننا لا نلوم يهود العالم على إظهار عواطفهم نحو إخوانهم في فلسطين، فإننا لا نقبل اللوم من أي شخص أو من حكومة على إظهار عواطفنا نحو إخواننا عرب فلسطين، و لا التحجير علينا فيما نستطيع إعانتهم به، و لا نرضى أن يكون حراما علينا ما هو حلالا لليهود، و من أنصفنا أنصفناه و زدنا...)[26].

ونجده في الكثير من كتاباته وفي اطار تشخيصه للقضية الفلسطينية دائما يحمل الحكام العرب المسؤولية حيث أنهم وبتخاذلهم اتجاه القضية قد ساهموا في احتلال فلسطين فيقول: (...من التزوير على التاريخ أن يقال إن اليهود احتلوا فلسطين بالقوة العسكرية كما يحتل القوي الغالب ارض الضعيف المغلوب، إلا أن كلمة الحق التي يقف الواقع بجنبها شاهدا لا يكذب هي أن ملوك العرب و زعمائهم المتحكمين في مصائرهم المنفذين لإرادة المستعمر هم الذين سلموا فلسطين لليهود صائغة هنية و حققوا للانجليز غايتهم...)[27].

**خاتمة :**

مما سبق يمكننا ان نستنتج مايلي :

- يعتبر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من أكثر المثقفين الجزائرين والعرب المصلحين المدافعين عن العروبة والإسلام ، إذ نجده يقول: "كاتب هذه السطور عربي ،يعتز بعروبته إلى حد الغلو، ويعتد بها إلى حد التعصب، ويفخر بأبوة العرب له إلى حد الإنتخاء"[28] .

- أكد الشيخ محمد الإبراهيمي على اللحمة القومية,وأن وحدة المصير بين المشرق والمغرب هي المحور الأساسي و ونجد ذلك من خلال كتاباته سواءا التي تتناول القضايا الجزائرية المحلية،أوحتى التي تعالج الشؤون العربية والقومية بصورة عامة .

- ويتضح لنا أن توجهات الشيخ الإبراهيمي حول القضية الفلسطينية نابعة من قناعاته المستمدة من العروبة والإسلام والمعتزة بالبعد التاريخي والروحي لفلسطين من جهة وقدسية المكان من جهة أخرى.

- لقد ظهرت اهتمامات الإبراهيمي بالقضية الفلسطينية من خلال الكثير من أدبياته والتي ظهرت جليا في جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين, وكذلك ما جمع من أثار فكرية وأدبية للشيخ محمد البشير الإبراهيمي في مؤلف بعنوان أثار الإمام محمد البشير الابراهيمي وذلك بجمع وتقديم من طرف نجله احمد طالب الإبراهيمي.

- كما نجد أن جريدة البصائر لعبت الدور الريادي في دعم القضية الفلسطينية من خلال مقالاتها وخاصة مقالات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والتي سلكت في كل مرة مسلكا فكريا وحضاريا للتعريف بالقضية ودعمها.

- نجد أن الإبراهيمي عمل على إنشاء ما يعرف بالهيئة العليا لإعانة فلسطين, والتي مثلت رسالة واضحة للجزائريين خاصة والعرب والمسلمين عامة لضرورة الانتقال من المستوى النظري الى المستوى العملي فيما يخص دعم القضية الفلسطينية.

- ومن الواضح أن الشيخ محمد البشيرالابراهيمي جعل من الوحدة الحل الأفضل لكل المشاكل والتحديات الكبرى التي تواجه الأمة العربية في عصره،بدءا بالاستعمار ومرورا بالجهل والتخلف،حتى أنه أقسم أن الحل الانفرادي لاجدوى منه فقال :"أما والله لن نفلت من مخلب الاستعمار فرادى ،ولن نفلت منه إلا يوم نصبح امة واحدة تلقى عدوها برأي واحد وقائد واحد وقلب واحد،فان لم نفعل فلا نلم الاستعمار ولنلم أنفسنا."[29]

**قائمة المصادر والمراجع:**

1. سورة الإسراء
2. بومعالي نذير, **فلسطين و شمولية المكان في خطاب الشيخ محمد البشير الابراهيمي**,مجلة التواصلية،عدد05.
3. جريدة السنة,العدد04 بتاريخ:06محرم1352هـ/01 ماي 1933م..

4. محمد البشير الإبراهيمي ،**معنى العيد** ،**آثار محمد البشير الإبراهيمي**،جمع وتقديم ،أحمد طالب الإبراهيمي،ط1، ج3,عيون البصائر,دار الغرب الإسلامي،بيروت،1997.

5. محمد البشير الإبراهيمي,البصائر,العدد40,السنة الأولى,من السلسلة الثانية,21جوان

6. 1948

7. محمد البشير الإبراهيمي،"**تعارف المسلمين مدعاة لقوتهم وعزتهم**"، **آثار محمد البشير الإبراهيمي**،ط1,ج4, (1952-1954) دار الغرب الإسلامي،بيروت،1997. .

8. محمد البشير الإبراهيمي ،**اتحاد المغرب العربي الكبير**،**آثار محمد البشير الإبراهيمي**،ط1، ج4, (1952-1954) دار الغرب الإسلامي،بيروت،1997.

9. محمد البشير الإبراهيمي ،**فلسطين واجباتها على العرب** ، جمع وتقديم ،أحمد طالب الإبراهيمي،ط1، ج3,عيون البصائر,دار الغرب الاسلامي،بيروت،1997.

10. محمد البشير الإبراهيمي ، **من أنا** ، مجلة الثقافة ،عدد87،ماي-جوان1985.

11. محمد البشير الإبراهيمي ،**الاستعمار والشيطان** ،**آثار محمد البشير الابراهيمي** ، جمع وتقديم ،أحمد طالب الابراهيمي،ط1، ج5,عيون البصائر,دار الغرب الاسلامي،بيروت،1997.

12. محمد دراجي ،**المشرق العربي**،**(مواقف الامام الابراهيمي)**،عالم الافكار ،الجزائر ،2009.

13. -محمد دراجي,**العلامة محمد البشير الابراهيمي والقضية الفلسطينية**,مجلة الصراط,كلية العلوم الاسلامية,العدد04,جامعة الجزائر,جوان 2003.

[1]- محمد البشير الابراهيمي، **من أنا** ، مجلة الثقافة ،عدد87،ماي-جوان1985،ص11.

محمد البشير الابراهيمي ،**معنى العيد** ،**آثار محمد البشير الابراهيمي**،جمع وتقديم ،أحمد طالب

[2]-الابراهيمي،ط1،ج3,دار الغرب الاسلامي،بيروت،1997،ص482.

-محمد دراجي,**العلامة محمد البشير الابراهيمي والقضية الفلسطينية**,مجلة الصراط,كلية العلوم

[3]الاسلامية,العدد04,جامعة الجزائر,جوان 2003,ص293..

محمد البشيرالابراهيمي ،**اتحاد المغرب العربي الكبير**،**آثار محمد البشير الابراهيمي** جمع وتقديم ،أحمد طالب

[4]- الابراهيمي،ط1،ج4,دار الغرب الاسلامي،بيروت،1997،ص302.

- محمد دراجي ،**المشرق العربي**،**(مواقف الامام الابراهيمي)**،عالم الافكار ،الجزائر ،2009 ،ص 104. [5]

[6] - محمد البشير الابراهيمي،"**تعارف المسلمين مدعاة لقوتهم وعزتهم**"،**اثار**...،ج4, مرجع سابق ،ص97.

[7]-محمد دراجي, **المشرق**...، مرجع سابق،ص129.

[8]-نفسه ،ص145.

[9]-من مقال للشيخ الابراهيمي بجريدة السنة,العدد04 بتاريخ:06محرم1352هـ/01 ماي 1933م.

[10]- محمد البشير الابراهيمي, **اثار**...،ج3,مرجع سابق ,ص107.

[11]-سورة الاسراء،الاية:01.

-اخرجه البخاري في كتاب الجمعة برقم:1115,وبرقم:1122,مع تسبيقه صلى الله عليه وسلم للمسجد الاقصى المبارك

[12]على مسجده الشريف.

- بومعالي نذير, **فلسطين و شمولية المكان في خطاب الشيخ محمد البشير الابراهيمي**,مجلة

[13]التواصلية,عدد:05,ص41.

[14] - محمد دراجي,**العلامة محمد البشير الابراهيمي والقضية الفلسطينية**...,مرجع سابق,ص294.

[15]- محمد البشير الإبراهيمي ,**أثار**... ،ج3,مرجع سابق,ص76.

[16]-.نفسه،75

[17] , بومعالي نذير ,مرجع سابق ,ص37.

[18]محمد البشير الإبراهيمي ,**أثار**... ،ج3,مرجع سابق, ص77.

[19] - بومعالي نذير,مرجع سابق،ص38.

[20]- محمد البشير الابراهيمي ,**أثار**... ،ج3, مرجع سابق ,ص134.

[21] - بومعالي نذير,مرجع سابق،ص39.

[22]- بومعالي نذير,مرجع سابق, ص44.

[23] - نفسه,ص46.

-محمد البشير الابراهيمي,البصائر,العدد40,السنة الاولى,من السلسلة الثانية,21جوان 1948م,للمزيد انظر: محمد البشيرالابراهيمي ،**اتحاد المغرب العربي الكبير**،**آثار محمد البشير الابراهيمي** جمع وتقديم ،أحمد طالب

[24]الابراهيمي،ط1،ج2,دار الغرب الاسلامي،بيروت، 1997,ص204.

[25]- بومعالي نذير ,مرجع سابق ,ص43.

- محمد البشير الابراهيمي,البصائر,العدد40,...مصدر سابق,للمزيد انظر:اثار محمد البشير الابراهيمي...,ج2 ,مرجع سابق,ص 205.[26]

[27] - محمد البشير الابراهيمي **,اثار...** ،ج3 , مرجع سابق,ص398.

[28]- الابراهيمي ،**فلسطين واجباتها على العرب** ،أثار...،ج3، مرجع سابق .ص452.

[29]-الابراهيمي،**الاستعمار والشيطان** ،الاثار... ،ج5،ص95.

# الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر من خلال كتابات البشير الإبراهيمي

# Islamic Arab Culture in Algeria through Al-Bashir Al-Ibrahimi's writings

**الإسم واللقب:** خديجة ميهوبي **khadidja Mihoubi**
**مؤسسة الإنتماء:** جامعة عمار ثليجي بولاية الأغواط
**الإميل:** kh.mi83@yahoo.com

**ملخص :**
عرفت الجزائر فترة تاريخية صعبة، عانت فيها من ويلات الاستعمار الفرنسي لأزيد من قرن ونصف، و الذي كان له عدة تأثيرات سلبية على أفراد المجتمع الجزائري خاصة الجانب الثقافي له، وهذا راجع لطول المدة الاستعمارية، فلولا أن الله رزقها بأولاد بارين، لتفسخت الجزائر ثقافيا مثلما حدث في العديد من الدول المستعمرة، ومن بين هؤلاء العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي فهو من أصحاب الأقلام الفياضة، دافع على الثقافة الجزائرية ومقوماتها في العديد من المحافل والمناسبات الوطنية والدولية، وتجلى ذلك أكثر في أثاره، فكانت شاهدا حيا على تمسكه ودفاعه عن الدين الإسلامي واللغة العربية، والقيم الأخلاقية، وكل ما تحمله الثقافة الجزائرية من سمات.
**كلمات مفتاحية: الثقافة، الدين، العربية، الأخلاق ، التعليم ، الجزائر، الإبراهيمي.**

**Abstract:**

Algeria has known a difficult historical period, in which it suffered the horrors of French colonization for more than a century and a half, which had several negative effects on Algerian society, especially its cultural aspect, and this is a result of the long colonial period. Without the God-given faithful offspring, Algeria would have been culturally disintegrated, as it had been in many colonial countries. Among these figures is Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi. He is one of the prolific writers, who defended Algerian culture and its fundamentals in many national and international forums and events, and this is even more evident in his legacy, as a living witness to his adherence to Islam and Arabic language, moral values and all features of Algerian culture.

**Key words: Culture, religion, Arabic, ethics, education, Algeria, Al-Ibrahimi.**

**مقدمة:**

يعد البشير الإبراهيمي من بين الشخصيات العربية والإسلامية التي تركت بصمة بارزة على الصعيد الجزائري والعربي الإسلامي، ليس فقط من خلال خطاباته القوية التي كانت تؤثر في عقول متلقيها من خيرة رجال العرب و المسلمين، بما كانت تتميز به من فصاحة لسان، وقوة بيان، وجزالة عبارات – ليس هذا فقط- بل من حيث المواضيع كذلك التي كان يعالجها ، فحمل على عاتقه فيها هم الجزائر والجزائريين، والدفاع عن أهم المقومات الوطنية التي حاول المستعمر الغاشم طمسها بكل الوسائل والطرق المتاحة له.

فالمتلقي لأثار الإبراهيمي يجد ذلك جلي من خلال محاولاته المستمرة في التعريف والكشف عن الثقافة الجزائرية في العديد من المناسبات والمحافل الدولية، ومن هنا تبرز لنا الإشكالية الرئيسية لهذه المداخلة المتمثلة في ماهي مقومات الثقافة الجزائرية التي دافع عنها الشيخ البشير الابراهيمي؟ وهل نجح في ذلك خاصة وأن الجزائر كانت تعيش في ظروف سياسية صعبة تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي؟

الشيخ العلامة البشير الإبراهيمي[1] هو كما لا يخفى علينا من مؤسسين جمعية العلماء المسلمين، عاش من أجل وطنه، وشرب حب الوطن حتى الثمالة، تميز بمواقفه الصارمة في الدفاع عن مقومات الثقافة الجزائرية من دين إسلامي ولغة عربية، وعادات و تقاليد ، فالبشير الإبراهيمي «هو مفخرة علماء الجزائر، ومن أبرز أقطاب الحركة الإصلاحية فيها، وأحد أعظم رموزها الثقافية والأدبية، ولذلك فإن الحديث عنه يتشعب، والقلم عنه يحتار من أين يبدأ وماذا يختار، فالرجل بحر خضّم ليس له ساحل وحياته كانت حياة خصبة حافلة سخرها لخدمة شعبه ووطنه«[2].

قبل التطرق لجهود الشيخ البشير الإبراهيمي،لا ضير من التعرف قبل ذلك عن مفهوم الثقافة وأهم مقوماتها، فماذا نعني بالثقافة ؟

**2. مفهوم الثقافة:**

الثقافة من المفاهيم العصية عن التحديد وهذا حسب مجال دراستها، فلقد عرفها **مالك بن نبي** بأنها « مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الإجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه »[3]، والثقافة بمعناها الواسع «يمكن أن ينظر إليها اليوم على أنها جميع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه أو فئة إجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والمعتقدات»[4]، فالثقافة هي مجال واسع ومعقد تتمثل في الأفكار والمعتقدات، والعادات والتقاليد و القيم والأساليب التفكير والتعليم والسلوك تورث من جيل إلى آخر، وتتكون الثقافة من مجموعة من العناصر يمكن تقسيمها إلى

- **العموميات:** وهي العناصر التي يشترك فيها أفراد المجتمع ككل وتتمثل في الدين، اللغة، القيم الأخلاقية، التعليم ...إلخ

- **الخصوصيات:** وهي عناصر الثقافة التي يشترك فيها مجموعة معين من أفراد المجتمع، أي العناصر التي تحكم سلوك أفراد معينين مثل العادات والتقاليد، والأدوار المختلفة المتعلقة بنشاطات إجتماعية

**3- البدائل أو المتغيرات:** ونعني بها السلوكيات القابلة للتغير فهي لا تكون مشتركة بين جميع أفراد المجتمع، ولا بين أفراد فئة معينة في المجتمع، مثل ظهور شكل معين في اللبس وتتسم هذه بعدم الثبات والتغير.

للثقافة داخل المجتمع أهمية كبيرة فهي توفر للفرد وسائل إشباع حاجاته النفسية و الإجتماعية، كما أنها – الثقافة- توفر للأفراد المعاني والمعايير التي يميزون في ضوئها بين الأشياء والأحداث داخل بيئتهم التي يعشون فيها، وهي تكسب الفرد اتجاهات السلوك العام بإعتباره عضوا في مجتمع قومي يتميز بسمة دينية أو خلقية معينة.

كما أن لثقافة دور كبير في بناء الهوية، خاصة أن أول هوية يتبناها الفرد هي الهوية الثقافية، ونعني بالهوية «بوصفها منظمة من المعطيات المادية، و المعنوية، و الاجتماعية التي تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفية ولكن لا يمكن لمثل هذه المنظمة أن تكون في حيز الوجود مالم يكن هناك شيء ما يعطيها وحدتها ومعناها، ويتمثل ذلك في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصة الإحساس بالهوية والشعور بها»[5].

**3. مقومات الثقافة الجزائرية:**

للثقافة دور مهم داخل المجتمع، ولذلك نجد **الشيخ الإبراهيمي** دافع عنها بقلمه لمعرفته لما مدى أهميتها، خاصة العموميات من هذه الثقافة وهو ما يهمنا في ورقتنا البحثية هذه والمتمثلة في الدين، اللغة العربية، التعليم، الأخلاق فـ «الأمة الجزائرية هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين، وهي ثلة المجموعة العربية من حيث اللغة التي هي لسان ذلك الدين»[6]، وعلى الرغم من أن الثقافة الجزائرية فسيفساء من التنوع الثقافي فهناك القبائل، الشاوية، بني ميزاب، التوارق إلا أن الدين الإسلامي يجمعهم، والأرض الجزائر تضمهم، والتاريخ يشع فوق رؤوسهم .

**1/الدين الإسلامي:** يعرف الدين بأنه مجموعة من المعتقدات حول سبب نشوء الكون وطبيعته، وغرضه، لا سيما عند اعتباره تقليداً لقوة أو قوى جبارة ... تتمحور عادةً حول تطبيقات العبادات وطقوس، وغالباً ما تتضمن قانوناً أخلاقيا يحكم السلوك البشري[7]، فهناك رابطة روحية بين أفرد التي تدين بدين واحد، فالدين هو يوحد بين المجموعات والأفراد وينظم حياتهم الإجتماعية والفردية، في الجزائر إختزله **عبد الحميد بن باديس** بقوله :

**شعب الجزائر مسلم *** و إلى العروبة ينتسب**

**من قال حاد عن أصله*** أو قال مات فقد كذب**

دين الدولة الجزائرية هو الدين الإسلامي، فالإسلام «عقيدة هذه الأمة، و الاعتزاز بالانتماء إليها، واحترام قيمتها الحضارية والثقافية، وإبراز الشعائر الإسلامية و الاعتزاز والتمسك به والشعور بالتميز والاستقلالية الفردية و الجماعية»[8].

يتميز الإسلام عن غيره من الديانات أنه الدين الوحيد الذي يتماشى مع الفطرة الإنسانية «فهو أوثقها إتصالا بالأصول السماوية، وأوسعها امتدادا مع التاريخ، وأبقاها أثرا في صحائفه، وأعمقها تأثيرا في نفوس معتنقيه لملاءمة روحه روحهم، ولمناسبة الفطرة فيه وفيهم، ولأن تأثرهم به كان عن إقناع لا عن إكراه، ولأن الجانب الإنساني الإجتماعي هو أرحب الجوانب فكان الإسلام –لأول انتشاره- يتتبع مواقع الفطرة»[9]، فهو عماد الثقافة الجزائرية المسلمة.

دافع **الشيخ البشير الإبراهيمي** عن الإسلام، خاصة أن الجزائر كانت تحت هيمنة الإستعمار الفرنسي الذي كان يدعم التبشير بالمسيحية، فستعملها المستعمر كسلاح «خير من محاربة قيم سائدة في المجتمع قد زرعها الإسلام، وكانت ركيزة وحدته وتحضره، ومواجهة مجتمع متدين يكون أجدى بسلاح ديني»[10]، قام **الشيخ البشير الإبراهيمي** لنصرته «عاهدنا الله أن نطهر دينه، من الداخل ومن الخارج، وأن ننصره على أنفسنا حتى يكون له علينا سلطان، قبل أن ننصره على الأجنبي حتى لا يكون له عليه سلطان... لذلك حملنا حملتنا المشهورة على البدع والضلالات حتى قوضنا أركانها، وأتينا بنيانها من القواعد، فتلك بيوتها خاوية بما أقر أهلها من منكر، وما هجروا من معروف، وقد أصبح من أكبر أعواننا عليها ربائب حجورها وللسائب جحورها، وأفراخ وكورها، ممن هداهم الله وأنار بصائرهم بالحق، وإن سائرهم لسائر في طريق الهداية، ومن لم يهده القرآن، وكلناه إلى الزمان، ونعم المربي هو»[11].

الإسلام الذي يدعوا للسلام وينبذ العنف والحروب، دين سماحة «الإسلام يعتبر السلم هو القاعدة، والحرب شذوذ القاعدة، لأن الإسلام دين عدل ورحمة وعمران

وعصمة في ما يسميه علماء الإسلام بالكليات الخمس وهي الدين والعقل، والعرض والمال و النسب»[12]، فهو دين العدل والرحمة.

دستور الإسلام **القرآن** «كتاب الكون، لا تفسره حق التفسير إلا حوادث الكون. والقرآن كتاب الدعوة، لا تكشف عن حقائقه العليا إلا تصاريف الدهر. والقرآن كتاب الهداية الإلهية العامة، فلا يفهمه إلا المستعدون لها. والقرآن " لا يبلى جديده، ولا تنقضي عجائبه»[13]، فالقران الكريم كلام الله المنزل صالح لكل زمان ومكان مدح **الشيخ الإبراهيمي** الدين الإسلامي في أبيات يقول فيها[14]:

**بوركت يا دين الهدى ما أثبتك ****** حقك بتّ المبطلين وبتك**

**من ذا يجاريك ؟ وأنت السيل ******* والسيل فيه غرق و ويل**

**من ذا يساريك؟ وأنت النجم ******* والنجم نور الهدى، ورجم**

**شعارك الرحمة والســـــلام ******** للعالمين، وإسمك الإسلام**

**الحق من سماتك الجليـــة ********والعدل من صفاتك العلية**

**والعقل– منذ كنت- من شهودك******والفكر بعد العقل من جنودك**

**2/ اللغة العربية:** ليست اللغة عبارة عن ألفاظ وعبارات انتقلت من جيل إلى آخر ـ بل هي أكثر من ذلك ـ هي تعبير عن الذات التي تفقد بوصلتها إذا فقدتها. وهو ما يصطلح عليه حاليا بالهوية التي يرتبط مفهومها بالثقافة والتي تعد اللغة أداتها الأولى[15]

اللغة الرئيسية هي اللغة العربية كما أكده **عبد الحميد بن باديس** «أن اللغة العربية هي الرابطة بين الماضي الجزائر المجيد، وحاضرهـا الأغر، ومستقبلها السعيد، وهي لغة الــدين، والجنسية والقومية، ولغة الوطنية المغروسة»[16].

اللغة العربية في الجزائر هي «ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها وبين حماته أو أنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي ، مشتدّة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم. فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد وضرب بجرانه فيه أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح، مادام الإسلام مقيما لا يتزحزح»[17]، فكما كان دخول الإسلام طوعا للبربر كان قبولهم للغة العربية كذلك طوعا «لأنهما شيئان متلازمان حقيقة وواقعا، لا يمكن الفصل بينهما، ومحاولة الفصل بينهما كمحاولة الفصل بين الفرقدين»[18]، فالعربية هي لغة الدين الاسلامي لا يمكن أن تفصل عنه لأن الفصل بينهما كالفصل بين الجسد والروح.

اللغة العربية هي من بين اللغات الأكثر غنا ومرونة، وحيوية فلقد إستطاع السلف أن يترجموا بها مختلف العلوم «لو لم تكن اللغة العربية لغة مدينة وعمران لما، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند، و لألزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم تعليم تلك اللغات، ولو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية، ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته»[19]، ولولها لما إطلع الغرب على الأثار اليونانية والرومانية «الفكر العربي واللغة العربية، هما اللذان إلتقطا التراث اليوناني ونقلاه وطوراه تطويرا ملحوظا، إلى أوربا في القرون الوسطى»[20]

كما أن اللغة العربية لم تخدم العرب فقط، بل خدمت الأمم الأخرى التي استطاعت أن تتعرف عن مختلف العلوم عن طريقها، وهذا ما يؤكده **الشيخ البشير الإبراهيمي** بقوله «إن العربية لم تخدم مدنية خاصة بأمة، وإنما خدمت المدنية الإنسانية العام، مدينة الخير العام والنفع العام، ولم تخدم علما خاصا بأمة وإنما خدمت العلم المشاع بين البشر بجميع فروعه النافعة. ومن يستقرئ خاصة هذه اللغة لعلم الطب وحده يتبين مقدار ما أفادت هذه اللغة على البشرية من خير ونفع»[21]، فاللغة

العربية هي لغة العلم والمعرفة وليس كما يدعي البعض أنها عاجزة وخير دليل كما ذكره فضيلة الشيخ السلف وما حققوه بهذه اللغة، فالعجز يكمل فينا نحن مستعمليها وليس فيها.

**3/ القيم الأخلاقية:** إن بناء الأمم يكون بالأخلاق الفاضلة التي يجب أن تتوفر في أفراد المجتمع وعلى رأسهم الشباب الذي يتمثله **الشيخ البشير الإبراهيمي** «مترقرق البشر إذا حدّث، مقصور اللسان عن اللغو، قصير الخطى عن المحارم، حتى إذا إمتدت الأيدي إلى وطنه بالتخون، واستطالت الألسنة على دينه بالزراية والتنقص، وتهافتت الأفهام على تاريخه بالقلب والتزوير، وتسابق الغرباء إلى كرائمه باللص والتدمير، ثار وفار، وجاء بالبرق والرعد، والعاصفة والصاعقة، وملأ الدنيا فعالا، وكان منه ما يكون من الليث إذا ديس عرينه»[22]، فمن بين أخلاق التي ناشدها الابتعاد عن اللغو، والحرام ، يثور على كل معتدي على وطنه ويفديه بروحه ودمه، وعلى رأسهم المثقفون فهم « حفظة التوازن في الأمم وهم القومة على الحدود أن تهدم وعلى المحرمات أن تنتهك وعلى الأخلاق أن تزيغ، وهم الميزان لمعرفة كل إنسان حد نفس»[23]

**5/ العلم والتعلم:** هو دعامة أساسية في بناء المعرفة من خلاله يتعرف الفرد على لغته ودينه وتاريخية، وجب على الشباب التمسك بهما وإقبال «على العلم والمعرفة ليعمل الخير والنفع، إقبال النحل على الزهار والثمار لتصنع الشهد والشمع، مقبلا على الارتزاق إقبال النمل تجدّ لتجد، وتدخر لتفخر، ولا تبالي ما دمت دائبة أن ترجع مرة منجحة ومرة خائبة»[24]، فالعلم أساسي في حياة الفرد ومساهم في بناء المجتمع «الحياة بالعلم، والمدرسة منبع العلم، ومشرع العرفان، وطريق الهداية إلى الحياة الشريفة، فمن طلب هذا النوع من الحياة من غير طريق العلم زلّ، ومن إلتمس الهداية إليه من غيرها ضل، وحياة الأمم التي نراها ونعاشرها شاهد صدق على ذلك»[25].

كان الشيخ يوصي به في كل محفل «العلم...العلم...أيها الشباب لا يلهيكم عنه سمسار أحزاب، ينفخ في ميزاب، ولا داعية إنتخاب، في المجامع صخاب، ولا يلفتنكم عنه

معلل بسراب، ولا حاو بجراب، ولا عاو في خراب، يأتم بغراب، ولا يفتنكم عنه منزو في خنقة، ولا ملتو في زنقة، ولا جالس في ساباط، يحاكي فيكم سنة الله في الأسباط، فكل واحد من هؤلاء مشعوذ خلاب وساحر كذّاب»[26]

**6/ العقد الاجتماعي والعقد السياسي:** بحيث أن لكل دولة عقد اجتماعي من خلال مبادئ وثوابت المجتمع فيها، وما يطابقه من تصور وطموح سياسي مبني على مرجعية العقد الاجتماعي. خاصة أن الدولة تعبر عن هويتها الثقافية في المجتمع الدولي من خلال دستور أو قانون له وهناك من يضيف الأدب والفنون وطريقة التفكير[27]، وهو أمر أساسي لثقافة الفرد، و بتالي تعزيز ارتباطه بمجتمعه وهويته، فإذا نفر الفرد من هذا المجتمع، تتولد لدى الفرد أزمة هوية، و بتالي انعدام الولاء لا لهويته ولا لوطنه يقول **د. محمد وردي** «فاقد الهوية، أشبه بالعبد القانع بعبوديته الراضي بسلب إرادته، فهو ليست لديه قيم عليا حاكمة يعود إليها ، وبالتالي تهون عليه مسألة استباحة بلاده أو مقدساته أو خيراته، أو كل ما يرتبط به ، ما عدا فرجه ومعدته ، لأنه مهيأ تماماً للانقياد لأية قوة، حتى لو أدى ذلك لاندثاره أو انقراضه»[28]، فالإستعمار هو قيد سياسي وإجتماعي «يا هؤلاء ! إن الإستعمار شيطان، وإن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدّوا، وإن الإستعمار شر، ومحال يأتي الشر بالخير، ومحال أن يجنى من الشوك العنب»[29]، ولذلك وجب محاربته.

**خاتمة:**

في الأخير نجد أن **الشيخ البشير الإبراهيمي** بذل قصار جهده للدفاع عن الثقافة الجزائرية، كيف ولا وهو من أفنى عمره من أجل الوطن وحماية مقوماته، لقد كتب في مقال وجهه للطلبة المهاجرين يقول فيها «لا يغرنكم في حب وطنكم إلا ظالم، ولا يصرفكم عن إتقان وسائل النفع له إلا أظلم منه، أنتم اليوم جنود العلم فاستعدوا لتكونوا غدا جنود العمل»[30]، فحب الوطن واجب والعيش في كنفه حق، و احترام مقوماته الثقافية إعتزاز «كلمة العبقرية التي إختارها الله لنا، فهي "مسلم عربي جزائري"»[31]، فما أحوجنا في

أيامنا هذه لشخصيات من أمثال **الشيخ البشير الإبراهيمي**، لنفض الغبار على الثقافة العربية ومقوماتها وما اعتراها من تشويش.

**قائمة المراجع:**

**الكتب :**

:

**المجلات:.**

**المواقع الالكترونية :**

## الهوامش:

[1]: ولد محمد البشير الإبراهيمي سنة (1306هـ /1889م) بمواطن قبيلة «أولاد إبراهيم» غرب مدينة قسنطينة بالجزائر، في بيت علم ودين، حفظ القرآن الكريم ودرس علوم العربية وحفظ الكثير من الشعر على يد عمه الشيخ "محمد المكي الإبراهيمي" الذي كان من أبرز علماء الجزائر في زمانه. لحق بوالده الذي غادر الجزائر إلى المدينة المنورة 1908 سنة 1911، أقام بالقاهرة ثلاثة أشهر والتقى العلماء النهضة هناك، في المدينة المنورة، 1913 التقى الإبراهيمي بالشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ الطيب العقبي وكان قد سبقهما في الهجرة إلى المدينة، فكانوا يلتقون للبحث في شؤون الجزائر وسبل النهوض بها ومن هذه اللقاءات تأسست جمعية العلماء المسلمين بعد سبعة عشر عاماً كما مر معنا في ترجمة ابن باديس، في سنة 1917 رحل إلى دمشق وتعرف على عدد من العلماء على رأسهم علامة الشام الشيخ بهجة البيطار، وهناك باشر الإبراهيمي بالوعظ والإرشاد في الجامع الأموي، والتدريس بالمدرسة السلطانية (مكتب عنبر)، فتخرج على يديه عدد من فطاحل الشام وقادته مثل د.جميل صليبا، ود. عدنان الأتاسي، عاد إلى الجزائر سنة 1920، فبدأ الإبراهيمي بالتعليم في مدينة «سطيف»، وكانت له لقاءات دورية مع ابن باديس لمتابعة أخبار النشاط الإصلاحي وتأثيره على الشعب، في سنة 1931تم تأسيس جمعية العلماء المسلمين، مع إندلاع الحرب العالمية الثانية سنة1940 أبعد الشيخ الإراهيمي إلى مدينة أفلوا، لرفضه مساندة فرنسا.

[2] :عبد الحميد هيمة: الآراء النقدية للشيخ الابراهيمي في كتابه التراث الشعبي والشعر الملحون في الجزائر، مجلة الأثر، العدد 17، جانفي 2013 , ص 63

[3] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4، 1984، ص 48

[4] محمد الرميحي: واقع الثقافة ومستقبلها- في الثقافة والمثقف في الوطن العربي، الوثائق الرسمية لإعلان مكسيكو بشأن الثقافة، مكسيكو 1982، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط1، 1992، ص 267 .

[5] اليكس ميكشيللي ، الهوية – ترجمة علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية ، ط1 ، 1993، ص 129

[6] محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الأول (1929-1940)، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ص 107

[7] روبرت ميلتون أندروود الإبن، تعريف الدين ثالثة علام إجتامع يقاربون المفهوم نقالً عن موقع: www.homesaustin.com. تعريب: منار درويش، مراجعة: كريم عبد الرحمن ص 35 بتاريخ 2019/10/15

[8] خليل نوري مسيهر العاني، الهوية الإسلامية في زمن العولمة، سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة، ط1، 2009، ص 45

[9] محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الثالث، عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ص 78

[10] أسعد السحمراني: الإستبداد والاستعمار و طرق مواجهتها عند الكواكبي والإبراهيمي، دار النفائس ، ط1، بيروت، 1984، ص 111.

[11] محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الثالث، مصدر سابق، ص ص 158،159.

[12] محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الخامس (1954،1964)، ، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ص 94

[13] محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الرابع(1952،1954) ، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ص 226

[14] محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الثالث، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 484.

[15] ينظر: محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية – دراسة في مسار الأفكار في علاقتها باللسان والهوية ومتطلبات الحداثة والخصوصية والعولمة والعالمية، ديوان المطبوعات الجامعية ، ب ط، الجزائر، 2003، ص 90

[16] عبد الحميد بن باديس ، جريدة البصائر ليوم 22 جوان 1939

[17] محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الثالث، عيون البصائر، مصدر سابق، ص 206 .

[18] المصدر نفسه، ص 206 .

[19] محمد البشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الأول( 1929-1940)، مصدر سابق، ص 376

[20] مالك بن نبي: من أجل التغيير، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر العربي، سوريا 1995، ص 61

[21] محمد البشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الأول( 1929-1940)، مصدر سابق، ص 378

[22] محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الثالث، مصدر سابق، ص514.

[23] محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الثاني (1940-1952)، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ص 126

[24] محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الثالث، عيون البصائر، مصدر سابق، ص509.

[25] المصدر نفسه، ص258.

[26] المصدر نفسه، ص316.

[27] ينظر: محمد زغو ، أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، الأكاديمية للدراسات الإجتماعية والإنسانية، العدد 04، 2010، ص95

[28] سمير عبد الرحمن الشميري، تصدع الهوية العربية – ج 1- على الموقع http://elsada.net/61170/ بتاريخ 2019/10/20

[29] محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الثالث، عيون البصائر، مصدر سابق، ص288.

[30] المصدر نفسه، ص 204

[31] المصدر نفسه، ص 160

## قائمة المصادر والمراجع

### المصادر:

1- محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الأول (1929-1940)، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997

2- محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الثاني (1940-1952)، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997

3- محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الثالث، عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997

4- محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الرابع(1952،1954) ، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997

5- محمد بشير الإبراهيمي: أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الخامس (1954،1964)، ، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997

**المراجع:**

**الكتب:**

6- أسعد السحمراني: الإستبداد والاستعمار و طرق مواجهتها عند الكواكبي والإبراهيمي، دار النفائس ، ط1، بيروت ، 1984

7- أليكس ميكشيللي ، الهوية – ترجمة علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية ، ط1، 1993

8- خليل نوري مسيهر العاني، الهوية الإسلامية في زمن العولمة، سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة، ط1، 2009

9- مالك بن نبي: من أجل التغيير، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر العربي، سوريا 1995

10- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4، 1984

11- محمد الرميحي: واقع الثقافة ومستقبلها- في الثقافة والمثقف في الوطن العربي، الوثائق الرسمية لإعلان مكسيكو بشأن الثقافة، مكسيكو 1982، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط1، 1992

12- محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية – دراسة في مسار الأفكار في علاقتها باللسان والهوية ومتطلبات الحداثة والخصوصية والعولمة والعالمية، ديوان المطبوعات الجامعية ، ب ط، الجزائر، 2003

**المجلات والجرائد:**

13- عبد الحميد بن باديس ، جريدة البصائر ليوم 22 جوان 1939

14- عبد الحميد هيمة: الآراء النقدية للشيخ الابراهيمي في كتابه التراث الشعبي والشعر الملحون في الجزائر، مجلة الأثر، العدد 17، جانفي 2013

- محمد زغو، أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، الأكادمية للدراسات الإجتماعية والإنسانية، العدد 04، 2010

**المواقع الإلكترونية:**

16- روبرت ميلتون أندروود الإبن، تعريف الدين ثالثة علام إجتمع يقاربون المفهوم نقالً عن موقع: www.homesaustin.com. تعريب: منار درويش، مراجعة: كريم عبد الرحمن بتاريخ 2019/10/15

17- سمير عبد الرحمن الشميري، تصدع الهوية العربية – ج 1- على الموقع http://elsada.net/61170/ بتاريخ 2019/10/20

# الخصائص الاجتماعية والثقافية والأدبية في فكر البشير الإبراهيمي.

أ.د/ عبد العليم بوفاتح

أستاذ البلاغة والعلوم اللغوية
كلية الآداب واللغات – جامعة الأغواط
الهاتف : 0772735697 / 0698562627
البريد الإلكتروني:abdelalimb1@gmail.com

**الملخص:**

**لا يوجد ملخص باللغتين**

**مقدمة:**

**الحياة الفكرية والثقافية والتعليمية في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي :**

كان للجزائر مكانها المرموق بين الدول في مجال الثقافة والتعليم، فقد أنجبت أعلاماً بارزين حملوا هذه الأمانة، وكانت تُشدُّ إليهم الرحال في طلب العلم. كما أنّ المصادر تذكر أنّ ما يقارب نصف عدد السكان كان قبل الاستعمار الفرنسي يجيد القراءة والكتابة، فلا يكاد يخلو حي أو منطقة من مدرسة أو معهد أو زاوية لتعليم الدين الإسلامي واللغة العربية؛ فشهدت بذلك ازدهارا ثقافيا ونشاطا فكريا عبر كل مدنها في الشمال والجنوب. وما انتشار المدارس والمعاهد والزوايا في مختلف نواحيها حينذاك إلا دليل على أن الحياة الفكرية والثقافية كانت بأفضل حال مما آلتْ إليه بعد دخول الاحتلال الفرنسي، وهذا ما شهد به شاهد منهم، وهو الجنرال فالز الذي كتب في العام **1834م**، مقالا قال فيه " إن كل العرب الجزائريين تقريبًا يعرفون القراءة والكتابة، حيث إن هناك مدرستين في كل قرية.." [1] ولكن الاحتلال سلّط أبشع أنواع الدمار والخراب من بداية دخوله أرض الجزائر في كل قطر، إذْ

أحرق كل ما وقعت عليه يده من المخطوطات والآثار العلمية والثقافية التي كانت تزخر بها مختلف المناطق الجزائرية قبل مجيئه..

*** الجزائر في عهد الاحتلال.. منارة شامخة تأبى الانحناء :**

تميزت الجزائر بمزايا كثيرة جغرافية وطبيعية وتاريخية وحضارية، فضلاً عن موقعها الاستراتيجي، باعتبارها حلقة وصل بين الدول المحيطة بحوض البحر المتوسط، وكان من شأن الدول القوية أن تتحين الفرص الملائمة وتصطنع الذرائع لتنفيذ مخططاتها بالهجوم على البلدان التي تكون موضعا لخيرات الأرض وثرواتها، كي تصنع منها مستعمرات توسعية تابعة لها.. ولمّا كانت الجزائر ذات قوة وعزة ومنعة في عصور خلت، كان ذلك مانعاً لها من انقضاض المتربصين عليها للاستيلاء على خيراتها ونهب ثرواتها.. لكن هذه الأطماع لم تخمد لدى هؤلاء، فباعتبار أن الجزائر لا يفصلها عن فرنسا إلا عبور المتوسط، جعل منها مطمعا مباشراً منذ عهد نابليون بونابرت؛ ولمّا حان موعد تنفيذ المخطط المعدّ من القوى الاستعمارية جاءت حادثة المروحة المعروفة [2] فاختلقت فرنسا تلك الذريعة لاحتلال للجزائر، لتشنّ هجوما شرساً مخططا له، ليتم تنفيذه في الرابع عشر **من شهر** جويلية من العام **1830م**، إذْ أحكمتْ سيطرتها على أراضيها وثرواتها، بعد حملة كبيرة لم يُشْهَد لها مثيل في ذلك العهد.. وانتهجت سياسة التجهيل بدل التعليم والفرنسة بدل التعريب والإدماج بدل الاستقلال والتغريب بدل الأصالة، وذلك قصد إبعاد الشعب الجزائري عن منابعه الأصيلة.. سعياً منها إلى تغيير الهوية الثقافية للشعب الجزائري لتكون الجزائر فرنسية بعد قطعها عن ذاكرتها وكل ما يصلها بتاريخها وحضارتها.. فكان الدين الإسلامي واللغة العربية من أول ما استهدفته قوى الاستعمار بإغلاق المساجد والمدارس والزوايا أو تحويلها إلى مراكز لنشر الثقافة الفرنسية بدل العربية، أو منحها إلى الهيئات التبشيرية بالمسيحية المحرفة.. وذلك بقصد ترسيخ سياسة الإدماج التي سعت إليها، لتجعل من الجزائر جزءا من فرنسا..

ولكن ذلك لم يكن بالأمر الهين على قوى الاستعمار إذْ تكبدتْ خسائر بالغة، بمواجهة ثورات شعبية متوالية في كل قطر وإقليم، فما تكاد تخمد ثورة حتي تقوم أخرى.. واستمر

الاحتلال، واستمرت معه المقاومات الشعبية المتواصلة بكل شجاعة وإباء، من دون كلل أو تراجع أو نكوص.. فلم يعرفوا التراجع أو الفتور، ولا الاستسلام على مر العصور.. وأخذ النشاط الثوري يتجدد، تزامنا مع نشاط نشر التعليم والتوعية الاجتماعية والثقافية قصد إعداد أجيال تجيد التعامل مع مختلف الأوضاع.. فتم إنشاء المعاهد والمدارس ممن استطاعوا تحصيل العلم بالانتقال إلى الأقطار العربية والإسلامية للتزود بما يمكّنهم من مباشرة تكوين الشباب الجزائري وإعداد الناشئين، وغرس الروح الوطنية في نفوسهم وحثهم على التمسك بعناصر هويتهم..

ولمّا حل القرن العشرون عرف الجزائريون منعطفا جديدا وتطوراً في أساليب المواجهة والتصدي لقوى الاحتلال المدججة بأحدث العُدة وأقوى العتاد، فكان سلاحهم إيمانهم وتمسكهم بدينهم وهويتهم واستماتتهم في الدفاع عن حقوقهم ونُصْرة قضيتهم، وإسماع صرختهم المدوية في المحافل الدولية، مما جعل صوتهم عالمياً علنياً عالياً لا يمكن إخماده قوةً متجددة في كل حين. ويقابل هذا التصدي بالكفاح والنضال السياسي كفاح آخر بالعلْم والقلَم ونضال فكري يقاوم سياسة التجهيل التي أراد الاحتلال فرضها على الجزائريين..

ولم تكن قوى الاحتلال لتترك المجال لمثل هذا النشاط التعليمي والتربوي، لأنها رأت فيه تهديدا لوجودها، فعمدتْ إلى إغلاق المعاهد والمدارس ومنع كل نشاط من هذا القبيل، فكان من العسير على العلماء والمربين مواصلة كفاحهم ونضالهم الفكري إلاّ في حدود ما أتيح لهم من الوقت والإمكانيات والوسائل، ولكنهم نجحوا في غرس بذور الثورة ورعوها في قلوب الناشئة حتى نمتْ تلك البذور وأينعتْ، فأثمرتْ ثورة الفاتح من شهر نوفمبر من العام **1954م**، هذه الثورة التي استجمع فيها الشعب قواه، والتف حول علمائه وقادته، بعد أن عانى من الظلم والاضطهاد مدة قرن وربع القرن من عمر الزمان، فاكتسب من ذلك دراية بأساليب الكفاح والنضال، واستطاع الجزائريون تنظيم صفوفهم وتوحيد كلمتهم تحت راية واحدة، وهبّوا في وقت واحد بصوت واحد، امتزجت فيه نغمات الحناجر بطلقات البنادق، واستطاعوا أن يستعيدوا حريتهم وينتزعوا استقلالهم وكرامتهم بالتضحيات الجسام، لترتوي

الأرض الطاهرة بالدماء الزكية، ثمناً للانعتاق والحرية.. فصار شهر جويلية الذي جعله الاستعمار في البدء موعدا للاحتلال صار موعدا للحرية والاستقلال، في العام **1962م.**

*** البشير الإبراهيمي .. مسيرة كفاح وتاريخ نضال :**

**- التعريف بالبشير الإبراهيمي :**

هو محمد البشير بن محمد السعدي بن عمر بن محمد السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي؛ و(الإبراهيمي) نسبة إلى قبيلة عربية ذات أفخاذ وبطون تعرف بـ"أولاد إبراهيم"، وهي إحدى قبائل سبع متجاورة في سفوح الأطلس الأكبر الشمالية المتصلة بقمم جبال أوراس من الجهة الغربية، وكل ذلك واقع في مقاطعة قسنطينة من القطر الجزائري، ويرتفع نسب القبيلة إلى إدريس بن عبدالله الجذم الأول للأشراف الأدارسة، وإدريس هذا- يُعرف بإدريس الأكبر- هو الذي خلص إلى المغرب الأقصى بعد "وقعة فخ" بين العلويين والعباسيين، وإليه ترجع أنساب الأشراف الحسنيين في المغربين: الأقصى والأوسط. [3]

وها هو البشير الإبراهيمي نفسه يعرف بنفسه فيقول في مقال له عنوانه ( أنا ) : " أنا محمد البشير الإبراهيمي، ولدت يوم الخميس عند طلوع الشمس في الرابع عشر من شهر شوال سنة ستة وثلاثمائة و ألف للهجرة، و يوافق الثالث عشر من جوان **1889م**، ... قبيلتنا تعرف بأولاد براهم بن يحي بن مساهل، وترفع نسبها إلى إدريس بن عبد الله .... ونسبنا هذا مستفيض بين سكان الأطلس أوراس وسفوحه الجنوبية إلى الصحاري، والشمالية إلى التلول، ولأجدادنا كتابات متناقلة عن هذا النسب " [4]

**- مولده ونشأته :**

كان مولد البشير الإبراهيمي مع طلوع الشمس من يوم الخميس، في الرابع عشر من شهر شوال، من العام **1306هـ** الموافق للثالث عشر من شهر جويلية من العام **1889م**، في دائرة سطيف في (قبيلة ريغة) المعروفة بأولاد إبراهيم. ونشأ نشأة ريفية تقوم على البساطة في المعيشة، والطهارة في السلوك وحسن الأخلاق. وتعلم الكتابة وحفظ القرآن الكريم وهو صغير، وكان الذي يعلمه ويلقنه جماعة من أقاربه من حُفَّاظ القرآن، وبإشراف عمه الشيخ

محمد المكّي الإبراهيمي عالم المنطقة، وأحد علماء الجزائر في ذلك الزمان، وكان متقنًا لعلوم اللسان العربي.

تعلم البشير الإبراهيمي على يدي عمه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي على الطريقة التقليدية الموروثة من السابقين، وتتمثل في أن الأسر العلمية يأوي إليها المنقطعون لطلب العلم، وتتكفل الأسرة بإطعام الغرباء منهم مهما كان عددهم، ويقوم عالم الأسرة، أو علماؤها بتعليمهم دروسًا منظمة على ساعات اليوم.

واستمر في التعلم على يدي عمه، فحفظ القرآن وكثيرًا من المتون، ودرس كثيرًا من الكتب الشرعية واللغوية وسائر علوم الآلة إلى أن مات عمه، لما بلغ البشير الإبراهيمي التاسعة من العمر، وحينها أصيبت رجله اليسرى بمرض تسبب له في عرج كويل الأمد، غير أنه واصل مشواره بهمة ونشاط على الرغم من كل العوائق التي اعترضت سبيله، لأنه كان ذا إرادة قوية ولديه إقبال شديد على طلب العلم والتحصيل ..

*** رحلات الإبراهيمي العلمية ونشاطه التعليمي خارج الوطن :**

**- رحلته إلى القاهرة :**

لقد تأتّى للبشير الإبراهيمي - وهو شاب دون العشرين - من عوامل النبوغ والتفوق ما لم يتأتّ لكثير من أقرانه في أكثر من ذلك، فقد تميّز بذهن متوقّد وحافظة قوية وهمّة عالية، فحصّل قدراً كبيرا من العلْم وهو حَدَثٌ، وأصبح يمارس مهنة التعليم بتمكّن واقتدار، ولمّا بلغ سنّ العشرين " تاقت نفسه إلى الهجرة إلى الشرق، واختار المدينة المنورة لأنّ والده سبقه إليها سنة **1908م** فرارًا من ظلم فرنسا، فالتحق به متخفيًا أواخر سنة **1911م** كما خرج هو متخفيًا، ومرّ في وجهته هذه بالقاهرة، فأقام بها ثلاثة أشهر، وحضر بعض دروس العلم في الأزهر، وعرف أشهر علمائها. وممّن عرفه وحضر دروسه، الشيخ سليم البشري، والشيخ محمد بخيت (درس عليه البخاري) في رواق العباسي، والشيخ يوسف الدجوي (درس عليه البلاغة)، والشيخ عبد الغني محمود والشيخ السمالوطي في المسجد الحسيني،

والشيخ سعيد الموجي بجامع الفاكهاني. وحضر عدّة دروس في دار الدّعوة والإرشاد الّتي أسّسها الشيخ رشيد رضا في منيل الروضة. وزار الإمام البشير شاعر العربية الأكبر أحمد شوقي وأسمعه عدّة قصائد من شعره من حفظه، فتهلّل رحمه اللّه واهتزّ. كما اجتمع بشاعر النيل حافظ إبراهيم في بعض أندية القاهرة وأسمعه من حفظه شيئًا من شعره كذلك. وفي أثناء وجود الإمام البشير في القاهرة خلال هذه الفترة من جهاده، انتُخِب عضوًا بمجمع اللغة العربية، وكان قبل ذلك قد انتخِب عضوًا بالمجمع العلمي بدمشق والمجمع العلمي بمدينة بغداد. (5)

**- رحلته إلى دمشق :**

لمّا قامت الحكومة العثمانية في العام **1917م** بترحيل سكان المدينة المنورة إلى دمشق كان الإبراهيمي من بينهم مع والديه؛ وعند وصوله استأنف حياته العلمية والعملية في مدارس دمشق وأنديتها وبين علمائها وأدبائها. يقول الشيخ الإبراهيمي. وهو يقول في ذلك: " ... استقررت بدمشق في حالة يرثى لها، واتصل بي إثر وصولي جماعة من أهل العلم والفضل ... واتصل بي كثير من أصحاب المدارس الأهلية العربية، فقبلت التعليم عندهم لأقوم بحاجتي وحاجة والدي وأتباعنا، ثم حملني جمال باشا على أن أكون أستاذًا للعربية في "السلطاني" وهو المدرسة الثانوية الأولى بدمشق، وما كدت أباشر عملي فيها حتى ذهب جمال باشا ثم ذهب السلطان التركي بعده بقليل، وأصبح التعليم الرسمي كله عربيًا، فأصبحت بذلك أستاذًا للآداب العربية وتاريخ اللغة وأطوارها وفلسفتها بالمدرسة السلطانية الأولى، واطمأنت بي الدار إذ وقعت على وظيفتي الطبيعية، وتخرج على يدي في ظرف سنة واحدة جماعة من الصفوف الأولى هم اليوم في طليعة الصفوف العاملة في حقل العروبة.. " (6)

ويقول أيضاً: " ما لبثت شهرًا حتى انهالت عليَّ الرغبات في التعليم بالمدارس الأهلية، فاستجبت لبعضها، ثم حملني إخواني على إلقاء دروس في الوعظ والإرشاد بالجامع الأموي بمناسبة حلول شهر رمضان فامتثلت وألقيت دروسًا -تحت قبة النصر الشهيرة- على طريقة الأمالي، فكنت أجعل عماد الدرس حديثًا أمليه من حفظي بالإسناد إلى أصوله القديمة، ثم

أملي تفسيره بما يوافق روح العصر وأحداثه، فسمع الناس شيئًا لم يألفوه ولم يسمعوه إلا في دروس الشيخ بدر الدين الحَسَنِي، ثم بعد خروج الأتراك من دمشق وقيام حكومة الاستقلال العربي دعتني الحكومة الجديدة إلى تدريس الآداب العربية بالمدرسة السلطانية (وهي المدرسة الثانوية الوحيدة إذ ذاك) مشاركًا للأستاذ اللغوي الشيخ عبد القادر المبارك، فاضطلعت بما حملت من ذلك، وتلقّى عني التلامذة دروسًا في الأدب العربي الصميم، وكانت الصفوف التي أدرس لها الأدب العربي هي الصفوف النهائية المرشّحة للبكالوريا، وقد تخرّج عني جماعة من الطلبة هم اليوم عماد الأدب العربي في سوريا منهم: الدكتور جميل صليبا، والدكتور أديب الروماني، والدكتور المحايري، والدكتور عدنان الأتاسي.." [7]

**- رحلته إلى الحجاز ولقاؤه بابن باديس:**

حين تواجده بالمدينة في بلاد الحجاز بالمنورة طاف البشير الإبراهيمي وجال باحثا عن العلماء الذين يوثق بعلمهم ويستأنس بهم، فلم يرض سور بعَلَمَيْن عالمين وجد فيهما ضالته فلزمهما خمس سنوات يأخذ عنهما. وها هو يعرفنا بهما قائلاً : " ... وطفت بحلق العلم في الحرم النبوي مختبرا، فلم يَرُقْ لي شيء منها، وإنما غثاء يلقيه رهطٌ ليس له من العلْم والتحقيق شيء؛ ولم أجد علْماً صحيحا إلاّ عند رجليْن هما شيخاي: الشيخ العزيز الوزير التونسي، والشيخ حسين احمد الفيض أبادي الهندي... واشهد أني لم أر لهذيْن الشيخين نظيرا من علماء الإسلام إلى الآن، وقد علا سنّي واستحكمت التجربة وتكاملت المَلَكة في بعض العلوم، ولقيتُ من المشايخ ما شاء الله أن القى؛ ولكنّي لمْ أر مثل الشيخين في فصاحة التعبير ودقة الملاحظة والغوص عن المعاني واستنارة الفكْر والتوضيح للغوامض والتقريب للمعاني القصية. ولقد كنتُ لكثرة مطالعاتي لكتب التراجم والطبقات قد كوّنتُ صورة للعالِم المبرّز في العلوم الإسلامية، منتزعة مما يصف به بعض كُتّاب التراجم بعض مترجميهم، وكنت أعتقد أن تلك الصورة الذهنية لم تتحقق في الوجود الخارجي منذ أزمان، ولكنّي وجدتها محققة في هذيْن العلِميْن الجليليْن..." [8] وقد أخذ الإبراهيمي عن هذيْن العالِميْن الجليليْن بعض العلوم كفقه مالك وشرح مسلم وشرح الموطأ والنحو ... [9]

كما انتقى الإبراهيمي مشايخ آخرين كبارا أخذ عنهم بقية العلوم التي كان يرغب في الاستزادة منها كالحديث والتفسير، وهم الشيخ أحمد البرزنجي الشهرزوري الذي أخذ عنه الجرْح والتعديل وعلْم الرجال، وحضر بعض دروسه في شرح البخاري؛ والشيخ إبراهيم السكوبي الذي أخذ عنه علم التفسير، وقد وصفه الشيخ بقوله : " وكان ممن يشار إليهم في هذا العلْم ".؛ أمّا الشيخ عبد الباقي الأفغاني فقد عمّق معه علْم المنطق والحكمة المشرقية؛ وأخذ عن الشيخ محمد عبد الله زيدان الشنقيطي الأدب الجاهلي وأنساب العرب والسيرة النبوية. (10)

كما التقى الإبراهيمي في بلاد الحجاز بصديقه ورفيقه في الكفاح والنضال، رائد النهضة الفكرية والعلمية الحديثة في الجزائر.. " وكان لقاء الشّيخين لقاء تاريخيًا، وهو أوّل لقاء يتمّ بين هذين الرجلين العظيمين، في رحاب الحرم الشّريف، على الرّغم من أنّهما كانا ينتميان لوطن واحد، ويُجاهدان في ميدان واحد هو ميدان العلم، وشاءت الأقدار أن يكون لقاؤهما في مكان مقدَّس ليرسُمَا خُطّة العمل من أجل الجهاد المقدّس لنُصرة الشّعب الجزائري، وسببًا من أهم الأسباب الّتي مهّدت لتفجير ثورة الجزائر الكبرى، وانتصارها الرّائع المجيد على المستعمر، وصيرورتها بعد ذلك من أقوى وأعظم الدول في الأمّة العربية. وقد لبث هذا اللّقاء التاريخي ثلاثة أشهر، وهي المدّة الّتي قضاها الشّيخ عبد الحميد بن باديس في المدينة المنورة. فكانا يلتقيان كلّ ليلة في المسجد النّبويّ الشّريف، ويؤدّيان سوية صلاة العشاء، ثمّ ينصرفان بعد ذلك من المسجد الطاهر إلى دار الإمام الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي، ويقضيان اللّيل بطوله في مناقشة الوضع في وطنهما الجزائر من مختلف النّواحي السياسية والدّينية والاجتماعية، حتّى ينتبِها إلى بزوغ أولى أشعة الفجر، ويتوجّها إلى المسجد النّبويّ الشّريف ليؤدّيَا صلاة الفجر، وهما يدعوان الله العزيز القدير أن يبزغ في الجزائر الحبيبة فجر الحرية والكرامة والاستقلال." (11)

*** العودة إلى الوطن وبعث النهضة الاجتماعية والفكرية في الجزائر :**

في الوقت الذي اعتقدتْ فيه القوى الاستعمارية أنها قد محتْ مقومات الشعب الجزائري وطمستها، سواء ما تعلق منها بالدين أو اللغة أو الوطنية، كانت بذرة الإحياء قد غُرِستْ في

نفوس الجزائريين لتعيدهم إلى عهدهم الزاهر وحضارتهم الراسخة، وتذكّرهم بتاريخهم الزاخر بالبطولات والتضحيات والأمجاد؛ فما كان من ابن باديس والإبراهيمي إلاّ أن أعادا بعث هذه الروح في نفوس الجزائريين ليلقوا استجابة منقطعة النظير..

وكانت فكرة إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الإطار الأمثل للمّ الشمل وجمع الجزائريين على كلمة سواء، تحت راية واحدة بقيادة العلماء ومباركتهم لكل خطوة على درب التحرر، بدءاً من التعليم والتثقيف إلى جمع الصفوف لتكون كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً..

وكان اللقاء المشهود بين ابن باديس والإبراهيمي في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم (المدينة المنورة) في العام **1913م**، وتواصلت اللقاءات بعده بين الرجليْن وظلاّ يتدارسان أوضاع الوطن ويفكران في السبل الكفيلة بالتصدي لقوى الاحتلال بالطرق المناسبة.. وجرى الاتفاق على ضرورة أن يلتقي الرجلان بالجزائر، فسبق ابنُ باديس ليقوم بتأسيس حلقات للدروس الدينية والعلمية والتعليمية في أحد مساجد قسنطينة، ولحق به الإبراهيمي في العام **1920م**، فوجد الإقبال من الجزائريين على هذا المشروع النهضوي يتزايد يوما بعد يوم، إذْ جاءت وفود الطالبين والمتعلمين من كل حدب وصوب.. وكذلك فعل الإبراهيمي مثل رفيق دربه في مناطق أخرى لتوسيع هذا المشروع الذي أخذ يلقى صدى واسعا في أوساط الجزائريين في كل قطر.. وبقي الصِّلاتُ قائمة بين الرجليْن ومن انضم إليهما من علماء الجزائر ومفكريها في سائر الأقاليم ..

وبحلول العام **1924م** فكر الإمامان في وضع اللبنات الكبرى لهذا المشروع الذي كثر أنصاره ومؤيدوه ورواده ومناصروه، فكان العام المشهود الذي عرف ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ألا وهو العام **1931م** الذي جاء بعد عام من احتفال قوى الاحتلال بمرور قرن من عمر الزمان على احتلال الجزائر، كأنما هو تحدّ بإعلان عن عزيمة قوية متجددة للجزائريين في مواجهة الاحتلال الذي اعتقد أنه بسط نفوذه وأحكم سيطرته وتمكّن من تحقيق مآربه التوسعية..

بعد أن تم تأسيس الجمعية، وتشكيل مجلسها الإداري المكوّن من عبد الحميد بن باديس رئيسًا، ومحمّد البشير الإبراهيميّ نائبًا له، كلف المجلس الإداري الإبراهيمي بإعداد لائحة تبيّن أعمال الجمعية للحكومة حتى لا تثير المخاوف فتكون معرضة للرفض والإيقاف.. وبعد ذلك خطب رئيس الجمعية عبد الحميد ابن باديس خطبة مؤثّرة أثنى فيها على الإبراهيمي، وكان مما قال فيها: " عجبت لشعب أنجب مثل الشيخ الإبراهيمي أن يضلّ في دين أو يخزى في دنيا، أو يذلّ لاستعمار." [12]

*** البشير الإبراهيمي بين التأليف وانشغال الفكر بالإصلاح :**

يقول نجل البشير الإبراهيمي، الدكتور أحمد طالب الابراهيمي: " إن الحديث عن الابراهيمي هو حديث عن الجزائر: أصالة وحضارة وصموداً ونهضةً وتحرراً، فقد جسد الجزائر في شخصيته : نشأة وتكوينا وإشعاعاً وقولاً وكتابةً وسلوكاً. " [13]

لقد حازتْ مؤلفات البشير الإبراهيمي قيمة اجتماعية وفكرية وأدبية ولغوية كبيرة، وقد كان من شأنها أن تثري المكتبة العربية، لو لم تمتد إليها يد الإتلاف والضياع . أما المقالات والخطب والدروس والمحاضرات، التي أمكن جمعها وطبعها على فترات، فمصدرها بشكل خاص جريدة ( البصائر) الثانية ، التي كان يكتب فيها أسبوعيا، قبل أن يرحل إلى مصر في العام **1952م** في رحلته الثانية إلى المشرق العربي، عالج فيها مواضيع دينية وسياسية واجتماعية وإصلاحية وأدبية، اعتمد فيها على توظيف القرآن الكريم وخاصة القصص منه، والأمثال العربية وأسلوب التهكم والسخرية، وتوظيف قواعد اللغة العربية توظيفا فنيا، والجرس والإيقاع الموسيقيين.

هذا، ومع أنّ التأليف هو أيسر ما يكون لدى الإبراهيمي لو أنه وجد المجال أمامه متاحاً، ولو أنه لم يسكن منشغل الفكْر بقضايا أمته ووطنه المحتل في ظل التحديات الكبيرة، غير أن التأليف لم يكن من أولوياته، نظرا لانشغاله بما هو أولى وأجدر، لأن المرحلة التي عاش

فيما كانت تتطلب منه - كغيره من رواد الإصلاح – أن يتصدى لما هو آنيّ لا يحتمل الانتظار والتأجيل؛ فلم ير بدّاً من أن يقف أوقاته وجهوده على تربية النشء وتعليمه، كيف لا، وهي المَهمّة الأساسية التي عاد إلى أرض الوطن من أجلها؛ ويضاف إلى ذلك عدة مهام أخرى أبرزها تكليفه بإدارة شؤون جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إذ استلمها بعد رحيل رئيسها الأول الإمام عبد الحميد بن باديس في **16** من شهر أفريل **1440م**؛ فبعد أيام من ذلك أوكلت مهام الرئاسة إلى الإمام البشير الإبراهيمي؛ وكذلك أوكلت إليه إدارة شؤون جريدة ( البصائر ) التي كانت لسان الحال الجمعية؛ ومعها شؤون المعهد الذي كان ابن باديس قائما عليه. وفي هذا يقول البشير الإبراهيمي، معبّرا عمّا كان يشغله عن نشاط التأليف، مما أخذ أكثر وقته، يقول : " لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا ولكني أتسلى بأنني ألفت للشعب رجالا، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته فأصبح مسلما عربيا، وصححت له موازين إدراكه فأصبح إنسانا أبيا، وحسبي هذا مقربا من رضا الرب والشعب " [(14)]

إنّ شخصية كالبشير الإبراهيمي لا يعوزها أن تملأ مصنفاتها الآفاق، وتشمل كل القضايا الدينية والاجتماعية والفكرية والثقافية واللغوية والأدبية والعلمية.. وغيرها؛ غير أن مصلحة الوطن كان مقدمة على كل الاعتبارات، وهاجس التحرر من قيود الاحتلال كان يدفعه كغيره من رفقائه إلى الالتفات إلى الأجيال الناشئة التي تعقد عليها آمال البلاد وتطلعات الشعب..

ومع كل هذا الانشغال عن التأليف بما أشرنا إليه آنفاً، فإننا نجد عددا معتبرا من الأعمال والمؤلفات القيّمة التي تركها الإبراهيمي.. وفي هذا الشأن يصرح ابنه الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي أنّ والده كانت له عدة مؤلفات وكتابات مخطوطة، في المجالات الدينية واللغوية والأدبية والاجتماعية، لكنها ضاعت أثناء الثورة التحريرية لما كان في المشرق العربي، عند بعض تلامذته، أو ببيته الذي اقتحمه الاحتلال، واستولى على كل ما به من كتب ومخطوطات؛ يضاف إلى ذلك أن عددا كبيرا من الخطب والدروس والمحاضرات، التي دأب على إلقائها ارتجالا ولم تسجل..

وقد أورد الشيخ البشير، عناوين تلك المؤلفات في مقاله ( خلاصة حياتي العلمية ) الذي كتبه بطلب من مجمع اللغة العربية بالقاهرة، لما أنتخب عضوا فيه سنة **1961م**، وهو يمثل خلاصة شاملة لسيرته الذاتية فحصرها في ستة عشر مؤلفا ورسالة وهي:

- عيون البصائر ( تشمل المقالات التي كتبها في جريدة البصائر في سلسلتها الثانية ، وهو المؤلف الوحيد الذي طبع في حياته بعد الاستقلال، وقد ظهرت الطبعة الأولى منه سنة **1963م** بالقاهرة ، ثم في الجزائر سنة **1971م**.)

- النقايات [15] والنفايات في لغة العرب: كتاب جمع فيه كل ما جاء على وزن فعالة من مختار الشيء أو مرذوله.

- بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية في الجزائر( كتاب تناول فيه بالدراسة أصول اللهجة السائدة في مواطن بني هلال بن عامر.

- أسرار الضمائر في العربية.

- التسمية بالمصدر

- الصفات التي جاءت على وزن فعل

- الاطراد والشذوذ في اللغة العربية (وهو رسالة في الفرق بين لفظ المطرد والكثير عن ابن مالك.)

- نظم العربية في موازين كلماتها

- ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة

- رواية كاهنة أوراس

- شعب الإيمان ( كتاب جمع فيه الفضائل والأخلاق الإسلامية)

- رسالة في ترجيح أن الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان.

- رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية.

- ملحمة رجزية تبلغ ستة وثلاثين ألف بيت، من الرجز السلس اللزومي في كل بيت منه، ألّفها في المنفى. [16]

*** الخصائص الاجتماعية والفكرية والثقافية في فكر البشير الإبراهيمي :**

**- التأثر بالعلوم الإسلامية ومصادرها :**

ظل البشير الإبراهيمي، بحُكْم نشأته في بيئة إسلامية محافظة منذ صباه، متمسكا بالقرآن الكريم حريصاً على تدارسه وفهمه واستنباط المنهج القويم من تعاليمه، واتخاذه دستوراً يحتكم إليه المجتمع كما كان في العصور الزاهية؛ وكان شغفه بتدارس القرآن الكريم وتفسيره دافعاً له إلى التنقل إلى دور العلْم ومعاهده في تونس والحجاز والشام للاطلاع عن طريق المشاهدة والمعايشة على ما قدمه العلماء من تفاسير وما وصلوا إليه في بحوثهم القرآن وعلومه.. ثم توسعت مطامحه إلى التوسع في سائر العلوم الإسلامية والأصول، باحثاً في الفقه والحديث والسيرة، والاطلاع على سِيَر الصحابة والتابعين..

إنّ الاستناد إلى تعاليم الإسلام ومبادئه السمحة وتشبعه بها، واطلاعه على منهج السلف الصالح منح " هذا الشاب المصلحِ همَّةُ فَعَلت الأفاعِيل، وصَنعَت الأعاجيبَ، في تَفقِيهِ أُمَّتهِ وإنقاذِ وطَنِهِ، وإصلاحِ ما أفسَدَه الغَربُ الفرنسِي! وكان يغلُبُ على كتابتهِ ما يُمكن تسميتُهُ بـ(رُوحِ الاستِنهَاضِ)! فهو مشغُولٌ بالتحفِيزِ والحَضِّ على القِيامِ بمطَالبِ أُمَّته [17]. هذهِ الهِمَّةُ هي التي صَنَعَت شيئًا ممَّا تقدَّم ذكرُهُ، فنَقلَها وَاقِعًا في مُجتَمعِهِ، وجَعلَها شِعارًا في حَياتهِ ومَسيرَتِهِ، فصَارَت يَحشدُ بها هِممَ الشَّبابِ، ويُنادِي بها في المحافِلِ والمُناسبَات. فالواعِظُ والوازعُ الدِّيني هو أَكبر أَسبابِ الروحِ لتُستَنهَضَ، والهِمّةِ لتَتحرَّكَ، والجوارِحِ لكي تفعَلَ وتعمل! فـ"الوَعظُ الدِّيني هو رائِدُ جمعيةِ العُلماءِ إلى نُفوسِ الأُمَّةِ، جَعلَته مُقدِّمةَ أعمَالها، فمهَّد واستقرَّ، وذلَّلَ الصِّعابَ، وألَانَ الجوامِحَ، وعليه بُنِيَت هذه الأعمالُ الثَّابتةُ مِن إصلاحِ للعقَائِدِ، ونَشرٍ للتَّعليم، ومِنه جنت كلَّ ما تحمدُ اللهَ عليه مِن نجاحٍ" [18].

لقد كان الإبراهيمي ينطلِقُ في أعماله مِن قوله: " الأعمَالُ الكبيرةُ إذا توزَّعتها الأيدي، وتقاسمَتها الهِممُ، هان حِملُها وخفَّ ثِقلُها، وإن بلغت في العظم ما بلغت!" [19]؛ وقوله: "إنَّكم ستسمَعُون منِّي كلمَاتٍ مِن بابِ الحَمدِ والشُّكرِ، ولكنَّها مِن باب الحثِّ والازعاجِ، وسأصِلُ بها مبدَأَ هذا العمل بنهَايتِه، فقد بدأناه مجتمعين، وختمناه مجتمعين، ولكن كلّ أعمالنا

فيه تعدُّ شيئًا يتَرقبُّ تمامَه، فإذا كنتُ قاسيًا في كلامي فذلك لأنَّ عملي معكم نُسخَةٌ مِن عَملِ الطبيب: يجرح ولكنه يبرئ" [20]

وكان تأثر الإبراهيمي بالعلوم الإسلامية من أقوى السمات وأبرزها، وذلك أول ما يظهر لمن يطالع مؤلفاته، فلا تراه إلاّ مستشهدا بالقرآن والحديث أو مقتبساً منهما في كتاباته التي غلب عليها الطابع الإصلاحي، انطلاقا من نقد الواقع الاجتماعي وتقديم العلاج لأدواء المجتمع، فهو يريد للأمة العربية الإسلامية أن تظل متمسكة بالقرآن الكريم والسنة الشريفة على نهج أسلافها، لأن في ذلك صلاحها وخلاصها ورقيها وازدهارها..

ونرى الإبراهيمي من جهة أخرى يستند إلى القرآن الكريم والحديث الشريف ومنهج السلف الصالح والفهم الصحيح للقرآن باستخلاص المعاني الجديدة التي تساير تطورات الحياة ومستجداتها، لأن القرآن الكريم منهج حياة لكل البشر في كل زمان ومكان..

**- النضال السياسي ومناصرة القضايا العادلة :**

ظل الإبراهيمي متطلعاً إلى غد أفضل للجزائر، وهو يرى بذور جمعية العلماء وغيرها من الجهود النضالية تثمر يوما بعد يوم جيلاً من الشباب الذين يبعثون الأمل في النفس بقيام ثورة مرتقبة تنتفض على الاستعمار وكل أذنابه، وقد كان يسعى في هذا الاتجاه هو ورفقاؤه في الجمعية. ويمكن القول إنّ الناشئين الذين كانوا تلاميذ في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانوا من أبرز المتصدّين للاستعمار في الثورة المجيدة.. لأنهم تشبعوا بالثقافة الثورية والمنافحة عن الحرية والتطلع إلى الاستقلال، كما تزودوا بالإيمان الراسخ والإرادة الثابتة ممّا جعلهم أهلا للمهام الجسيمة.

لقد كان الإبراهيمي رمزاً قوياً فاعلاً من رموز الثورة الجزائرية المباركة.. على النهج العربي الإسلامي والوطنية الصادقة، كما هو شعار جمعية العلماء الذي طالما نادي به ابن باديس ( الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا ). وقد قال الإبراهيمي في العام **1951**م، بعد أن رأى استقلال ليبيا : " إنّ الجزائر ستقوم قريبا بما يدهشكم من تضحيات وبطولات في سبيل نيل استقلالها، وإبراز شخصيتها العربية الإسلامية.." كما أسهم بقوة في تأسيس

مكتب المغرب العربي بالقاهرة، وكان يضم تونس والمغرب والجزائر، من أجل التحرر من قبضة الاستعمار؛ كما اسهم في انطلاق الإذاعة الجزائرية من القاهرة، وكان صوته من الأصوات الأولى التي صدرتْ منها، وذاع صيتها ليبلغ العالَم أجمع.. وظل يدعو الشعب الجزائري الثائر إلى عدم التراجع أو التخاذل.. وأصبح الإبراهيمي بذلك من الناطقين الصادقين باسم الثورة الجزائرية، وظل رمزاً من رموز النضال، مع حضوره في المحافل العالمية، وهو مما جعل صوت الثورة يطرق مسامع العالَم ويقض مضاجع المعتدين.. وبهذا ظل يمثل سنداً كبيرا لم تخبُ جذوته إلى أن جاء الاستقلال..

ومن خصائص فكر الإبراهيمي تشبعه بالروح النضالية ومناصرة القضايا العادلة، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية التي هي قضية القضايا في قلب كل مسلم وعربي.. فلمّا وقعت فلسطين في قبضة اليهود تأثّر أبلَغ التأثّر وحَزن وتألّم لذلك، لأنه كان يرى أن فلسطين جزء غال من الوطن العربي المسلم، ومن الجزائر على الخصوص، لأنه كان يدعو دوماً إلى وحدة الصف العربي والإسلامي أمام مختلف التحديات التي تواجه الأمّة، ومنها تربص الأعداء بها وتزايد أطماعهم في كل حين للاستيلاء عليها ونهب خيراتها وتشتيت شعوبها وإحكام السيطرة عليها، وقد حمّل الأمّة العربية المتخاذلة مسؤولية تضييع هذه القضية، مصرحاً بأنه " ما أضاع فلسطين إلاّ العرب؛ لقد جاءتهم النُّذر فتماروا بها، ثمّ حقّ الأمر وهم ساهون فاندهشوا، ثمّ وقعت الواقعة فأبلسوا؛ وعمد خطباؤهم إلى الخطب يُنمّقونها، وشعراؤهم إلى القصائد يزوّقونها، وساستهم إلى الدعاوَى يُلفّقونها، وعامّتهم إلى الخرافات يُصدّقونها؛ بينما عمَد ملوكهم إلى الإمدادات يعوّقونها، وإلى الأهواء يُنفقونها. وعمد خُصومهم اليهود إلى الغايات يُحقّقونها، وإلى العهود يُمزّقونها. وقُضيَ الأمر، وأوسعناهم سبًّا، وأصبحنا نقول: نحن كنّا أهلَ فلسطين." [21]

وما أكثر النماذج عن الروح النضالية التي تحلى بها البشير الإبراهيمي، وتميزت بها دعوته الدائمة إلى الأمة العربية والإسلامية لأنْ تتبوّأ المكانة التي تستحقها، وأن تسعى إلى توحيد صفوفها تحت راية القرآن الكريم والسنّة الشريفة وحفظ الحقوق وأداء الواجبات ومسايرة

الحضارة العالمية، لتكون أمّة جديرة بأن ترقى إلى أعلى المراتب، في ظل المحافظة على هويتها والالتزام بمبادئها والقيام بمهامها المنتظرة منها..

ونجد تصريحا للشيخ محمد الغزالي يثني فيه على الإبراهيمي، ويسلكه ضمن الزعماء الذين يحملون هموم الأمّة أينما حلّوا أو ارتحلوا ويشعرون بآلامها ويعملون على تحقيق آمالها، إذْ يقول : " كانت القاهرة -لأكثر من ثلث قرن مضى- ملتقى عدد من المجاهدين الكبار يفيئون إليها في ظل عقيدة جامعة، وأخوة وثيقة، ولغة مشتركة، وآمال واحدة. وكان المسلمون ينظرون إلى الزعماء القادمين نظرة حب جارف وإعزاز بالغ، كانوا يرون النظر في وجوههم عبادة، والحديث معهم والأنس بهم قربى إلى الله.. أذكر من هؤلاء الحاج محمد الأمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر، وقائد جهادها الأول، زارني يومًا في وزارة الأوقاف – وكنت مسؤولاً عن المساجد- فزكّى بعض المشروعات التي أقوم بها، ورسم لي طريق إنجاحها، وشعرت كأنه يعد نفسه مسؤولا عن مستقبل الإسلام في مصر، فهو يهتم به اهتمامي أنا به أو أكثر، ولا عجب فدار الإسلام واحدة وإن اختلفت منابت الأفراد.. وأذكر من أولئك الزعماء اللاجئين إلى القاهرة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي"... إلى أن يقول: " لكن هذا ليس ما ربطنا به وشدّنا إليه -على قيمته المعنوية - إنما جذبنا الرجل بإيمانه العميق، وحزنه الظاهر على حاضر المسلمين، وغيظه المتفجر ضد الاستعمار، ورغبته الشديدة في إيقاظ المسلمين ليحموا أوطانهم ويستنقذوا أمجادهم، وخُيّل لي أنه يحمل في فؤاده آلام الجزائريين كلهم وهم يكافحون الاستعمار الفرنسي، ويقدمون المغارم سيلا لا ينقطع حتى يحرروا أرضهم من الغاصبين الطغاة، وكان في خطاباته يزأر كأنه أسد جريح، فكان ينتزع الوجل من أفئدة الهيابين ويهيّج في نفوسهم الحمية لله ورسوله، فعرفتُ قيمة الأثر الذي يقول "إن مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدم الشهداء.. إن الخطيب أو الكاتب يوم يستمد توجيهاته من قلبه ويصبها في نفوس تلامذته إنما يكوّن فيلقاً أولي الفداء، ويصنع قذائف حية ورجالا ينسفون الباطل نسفًا، وذلك ما أحسسناه ونحن نستمع إلى الشيخ البشير الإبراهيمي في

القاهرة، فعرفنا لماذا ضاق به الفرنسيون وطاردوه، ومن تمّ قرّرنا الالتفاف به والاستمداد منه." (22)

**- النزعة الإصلاحية مع العناية بالشباب :**

من أبرز سمات فكر الإبراهيمي نزعته الإصلاحية، فهو يشعر بالرسالة التي يجد نفسه ملزماً بتبليغها، وكانت هذه الرسالة الإصلاحية قد شغلتْ حيّزاً كبيرا من وقته، إذْ ظلت مقدَّمةً على ما سواها باعتبارها ضرورية وذات أولوية.. وتبدأ مسيرة الإصلاح عنده من الشباب الذي ينبغي ان يكون إعداده من أهم ما يشغل القائمين على شؤون الأمّة.. لذلك وجب تعليمهم وتنشئتهم على الفضائل والقيم السامية، وتوعيتهم وحثهم على تحصيل العلْم ليكونوا قادرين على حمل هموم الأمّة والذود عنها والارتقاء بها.. وهذا ما يؤكّده نصّ المادة الخامسة والستين من نظام جمعية العلماء، إذْ تضمّنت هذه المادة ما مفاده أنّ " أوّل مقاصد الجمعية طائفة العلماء والطلبة باستعمال كل الوسائل لحملهم على التخلّق بالأخلاق الإسلامية، وتذكيرهم بما غفلوا عنه، وأهملوه من الأخوة الدينية والأخوة العلمية، وما تقتضيانه من واجبات وحقوق، وحملهم على الاتحاد والتعاضد، ونبذ الشقاق والتقاطع حتى يكونوا مظهراً للفضائل الإسلامية، عاملين بالحقّ هداة به دعاة إليه، فهم من الأمة بمنزلة القلب من الجسد؛ تصلح إذا صلحوا، وتفسد إذا فسدوا.." (23) وهذا الإصلاح كما يرى الإبراهيمي يكون من منطلق ديني، لأنّ الدّين هو الذي يجمع الأمة ويصلح من حالها وحال شبابها، وعليه " فإنّ الإصلاح الدّيني القائم على كتاب الله وسُنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم هو الأساس المتين للإصلاح الاجتماعي والسياسي."

ولا يخلو فكْر الإبراهيمي من النقد المستمر لحال الأمة، قصد الكشف عن أدوائها وتقديم العلاج الناجع لها. فهو ينتقد المظاهر السلبية في المجتمع تأنيبا وتقريعاً، ويشيد بالمظاهر الإيجابية فيه تنويها وتشجيعاً.. إذ يصرّح قائلاً : " إنّ شبابنا المتعلّم كسول عن المطالعة، والمطالعة نصف العلم أو ثلثاه، فأوصيكم يا شباب الخير بإدمان المطالعة

والإكباب عليها، ولتكن مطالعتكم بالنظام حرصاً على الوقت أن يضيع في غير طائل. وإذا كنتم تريدون الكمال فهذه إحدى سبل الكمال. " [24]

ويواصل الإبراهيمي تقديم نصائحه وتوجيهاته الإصلاحية للشباب، مستعملا خطابا مباشراً كي يُشْعِرَهم بالمسؤولية الملقاة على عواتقهم، وأنهم مكلفون بمهام جسيمة عليهم أن يتجشموها، فيقول لهم : " لا تقطعوا الفاضل من أوقاتكم في ذرع الأزقّة إلا بمقدار ما تستعيدون به النشاط البدني، ولا في الجلوس في المقاهي إلا بقدر ما تدفعون به الملل والركود, ولا في قراءة الجرائد إلا بقدر ما تطّلعون به على الحوادث الكبرى، .... خذوا من كل ذلك بمقدار، ووفّروا الوقت كلّه للدرس النافع والمطالعة المثمرة." [25]

لقد جعلَ الإبراهِيمي شرِيحة الشباب أَكبَرَ هَمَّه وأَساسَ عَملِه؛ وبنى عليهم دعوَته. فأَلقى عليهم الخُطبَ ليوجههم، وكتب لهم المقَالات ليُرشِدهم. فكانَ أَن ألقى ونشر (إِلى الشَّبابِ) و(الشَّبابُ المُحمَّدي) و(الشُّبانُ والزَّواج) وغيرها الكثير من المقالات، خاطبَهم فيها بأَلطَفِ عِبارَةٍ، وأَوضَحِ إِشَارَةٍ، يُشعِرهم مِن خِلالِ كَلامِه بالأُبُوَّةِ مِن جِهةٍ، وبالنصحِ والصِّدقِ مِن جِهةٍ أُخرى. فكان يرى أَنَّهم هُمُ الذين عليهم المُعوّل، ولهم وعليهم البِناءُ في الآخِرِ والأَوَّل. فوَصفَهم بأَوصَافٍ رَائِعةٍ، وألقَابٍ رائِقَةٍ... كانت كلمَاتُه تَفيضُ حُبًّا وحَنانًا ورِعايَةً واهتمَامًا. فكان يقول لهم: " أي أبنائي؛ إنَّ هذا القَلبَ الذي أَحمِله يحمِلُ مِن الشَّفقَةِ عليكم، والرَّحمَةِ بكم، والاهتمَامِ بشُؤونِكم، ما تَنبَتُّ مِنه الحبَالُ، وتَنُوءُ بحِملِه الجِبالُ" [26]. كلُّ ذلك لأَنَّ (الأُمَّةَ الرَّشيدَةَ) في نظره " هي التي تحرُسُ شبَّانها في طَورِ الشَّبابِ مِن الآفَاتِ التي تصَاحِبُ هذا الطَّورِ. فتحَافِظُ على أَفكَارِهم أن تَزِيغَ، لأَنَّ هذا الطَّورَ طَورٌ له ما بعده مِن زَيغٍ أو استقَامَةٍ! وتحافظُ على أهوائهم أن تتجه اتجاهًا غَيرَ محمُودٍ. وتحافظُ على عقُولِهم أن تعلَقُ بها الخيالات، فتنشأُ عليها، ويعسر أو يتعذَّر رجوعُهم عنها، وتحافظ على ميولهم وعواطفهم أن تطغى عليها الغرائزُ الحيوانيةُ، لأَنَّ هذا الطور هو طورُ تنبُّهها ويَقظَتِها! " [27]. ويقول مُخاطِبًا ومُذَكِرًا المُعلِمِين والمُنَشِئِين: " إنَّكم جُنودُ الإصلاحِ، فأصلحُوا نُفوسَكم ودَاوُوها... إن أشرَفَ خِدمَةٍ يُقدِّمُها العاملون المخلصون لأُمَّتِهم ولوَطنِهم هي التعليم والتربية الصالحة،

فهما سلَّمُ الحياةِ وإكسيرُ السَّعادةِ... أنتم معَاقِدُ الأملِ في إصلاحِ هذه الأُمَّةِ، وإن الوَطنَ لا يعلّقُ رجاءَه على الأُميّين الذين يُريدُون أن يصلِحُوا فيُفسدُون، ولا على هذا الغثَاءِ مِن الشَّبابِ الجاهِلِ المتسكّعِ الذي يعيشُ بلا عِلمٍ ولا عَقلٍ ولا تَفكيرٍ، والذي يغطُّ في النَّومِ ما يغطُّ، فإذا أفَاقَ على صيحَةٍ تمسَّكَ بصدَاها وكرَّرها كما تكرّرِ الببغاءُ! " [28]. لقد كان الإبراهيمي يُشعِرُ فِئةَ الشَّبابِ بعَظيمِ اهتمَامِه، وكبيرِ تفكِيرِه، وأنَّهم هم نَواةُ المجتمعِ وأسَاسُه، فيقول: "أيُّها الأبناءُ الأعزَّة.. لستم منَّا بموضعِ الهوانِ حتى ننسَاكم، وليس شأنكم عندنا بالهيّن حتى لا نفكّرَ فيه، وليس مُستَقبَلكم في نَظَرِنا بالرَّخيصِ حتى لا نُغالي فيه، إنَّما أنتم عندنا أحجَارُ بناءِ المستَقبَلِ المجيد، فحقٌّ علينا أن نتخيَّرَ وأن نستَجيد، وإنَّما أنتم ذخائر الغد. " [29]

وكانَ يتابعُ أَخبارَهم في الدَّاخلِ والخَارجِ باهتمامٍ وكَبيرِ شَغفٍ، مُراقِبًا ومُحذِّرًا مِن أَيادِي السُّوءِ أَن تُؤذِيهم، وشياطِين الإنس أَن تُفسدَهم وتُغوِيهم: "ما زِلنا نتتبَّعُ أخباركم باهتمام، ونعوّذكم بالله وبالمعوّذات مِن كلامه أن تكون مِن ورائكم يدٌ تحرّككم للمساعي الضائعة، أو تكيدَ لكم مِن حيث لا تشعرون، فقد عوَّدنا هذا الزَّمانُ الفَاسِدُ عادات مَرذُولةٍ في استغلال الشَّبابِ وتصريفِهم في غير الطُّرقِ التي خلِقُوا لها " [30].

ولم تقتصر دعوة الإبراهيمي على شباب الجزائر بل شملت كل شباب الأمة العربية والإسلامية، لأنه كان يرى أنّ هذه الأمة كالجسد الواحد الذي ينبغي أن يبقى صحيحا متماسك الأجزاء؛ إذْ " كان يتمنَّى ما تمنَاهُ أَمِيرِ الشُعراءِ أَحمد شوقِي حين قال: هل يمدُّ اللهُ لي العيشَ عَسَى *** أَن أرَاكم في الفريقِ السُّعداءِ فيُعَلِقُ الإبراهيمي على هذه الأبيات قائلا: " لا أخَالِفُ شوقي إلَّا في التَّخصيصِ، فقد خَاطبَ بهذا شبابَ النِّيل، وأنا أهتفُ بشبابِ العَربِ وبشبابِ الإسلام، أهتِفُ بشبابِ العَربِ أن يرعَوا حقَّ العُروبَةِ، وأن يكونوا أوفياءَ لها، وأن يعلموا أنَّها ليست جنسيةَ تَميُّزٍ، ولا نِسبَةَ تَعرُّفٍ... وإنَّما هي بناءُ مآثرٍ، وتَشييدُ أمجادٍ ومحَامِدٍ، وإنَّما هي مساعٍ مِن الكِرامِ إلى المكارم، ودواعٍ مِن العُظمَاءِ إلى العظائم... ثم

أهتف بشباب الإسلام ليعلموا أنَّ الإسلام ليس لفظًا تلوكه الألسنةُ المنفَصِلةُ عن القلوب، وتتنَاولُه قوانين التَّعريفِ بموازِينها الحرفِيَّةِ، وتقلُّبه اشتقاقات اللغة على معانيها. " [31].

ومن جهة أخرى وجه الإبراهيمي دعوته إلى المسؤولين في كل موضع أن يهتموا برعاية الشباب ويحافظوا عليهم من الانحراف والضياع، على اعتبار أنهم عماد الأمة وعنوان مستقبلها المشرق، فكان يصف الشباب بأحسن الأوصاف، وظلّ ينبه إلى أنّ " شَباب الأُمَّةِ هم عمَادُها، وهُم مادَةُ حياتِها، وهُم سِرُّ بريقِها "[32]. والشباب " هم السَّاقُ الجَدِيدُ في بنَاءِ الأُمَّةِ، والدَّمِ الحَدِيدُ لحياتِها، والامتدادُ الطَّبيعيُّ لتاريخِها. " [33] و" الشَّبابُ أمَّةٌ مُستَقِلَّةٌ "[34]. هم " أَمَلُنا ووَرَثةُ خصَائِصِنا. " [35]

هذا، والحديث يطول عن عناية الإبراهيمي بالشباب وحمله هموم إصلاحه، وجعل ذلك من أولويات دعوته، إذْ وجّه همّته إلى تمتين هذا الركن الأساس والدعامة الراسخة التي تحفظ قوام الأمة وتحصنها من أن تصبح فريسة للمتربصين، فكانت فلسفة الإبراهيمي تقوم على توطيد أركان هذا الحصن المنيع، وذلك بتنشئته على المبادئ السامية المستمدة من تعاليم دينه الإسلامي، مع الحفاظ على عروبته ووطنيته وأصالته.

**- سعة الاطلاع وتنوع الثقافة :**

كان البشير الإبراهيمي شغوفا بالكتب والمكتبات، واسع الاطلاع متنوع الثقافة، على علم بأهم المذاهب والاتجاهات العلمية والفكرية والأدبية عبْر العالَم، وقد تأتى له ذلك من كثرة مطالعاته وشغفه بالاطلاع على مصادر الفكر العالمية، وكان يدرك أن عليه أن يتسلح بهذه الثقافة المتنوعة ليستطيع مواجهة التحديات الكثيرة حينذاك، بحُكْم موقعه وما تجشمه من المهام التي لا يتصدى لها إلاّ من كان ذا زاد علمي وفكري وثقافي وسياسي؛ وقد أدرك الإبراهيمي هذه الحقيقة فكان أهلاً لهذه المهام.. ويذْكر نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي في هذا السياق أن أباه فاجأه بتنوع ثقافته وسعة اطلاعه، ومن ذلك ما نقله الابن عن أبيه قائلاً : " سألني في إحدى ليالي عام **1948م** ، وأنا بقسم الفلسفة في خاتمة تعليمي الثانوي

عن آخر درس تلقيته في علْم النفس، فاخذ راس الموضوع وشرح لي آراء وليام جيمس أحد مؤسسي المذهب العملي ( البراغماتي )، وتحدث عن كثير من مفكري الغرب ممن لم أكن سمعت بهم قبل ذلك اليوم، مثل ( داروين وجون لوك وجون ستيوارت ميل )، كما اوضح لي مساهمة العلماء المسلمين في كثير من الجوانب.." (36)

ولقد أحسن الإبراهيمي اغتنام أوقاته في رحلاته وتنقلاته اختياراً وهو في سعة من أمره، كما اغتنمها اضطرارا وهو في المنفى تحت مراقبة الاحتلال؛ وكان لرحلاته العلمية في بلاد المشرق أثر في تكوينه وتنويع ثقافته، إذ تزود بثقافات المجتمعات العربية المشرقية واطلع على أساليب حياتها وطرق تعليمها وطبعة ثقافاتها؛ كما كان لرحلاته وتنقلاته الداخلية على مستوى الوطن أثر بارز في الاطلاع على مختلف العادات والتقاليد والثقافات الشعبية التي تتميز بالتعدد والتنوع، فمن مسقط راسه بأولاد إبراهيم بسطيف إلى قسنطينة بالشرق الجزائري، ثم إلى العاصمة في الشمال، ومنها إلى تلمسان في الغرب الجزائري، ثم إلى مدينة آفلو بالجنوب، ثم التنقل من منطقة إلى أخرى، إلى أن استقر به المقام في العاصمة.. فكل هذه الرحلات والتنقلات زادته اطلاعا ومعرفة بالتنوعات الثقافية، وقد تجلى ذلك كله في كتاباته التي اتسمت بالتنوع والثراء ..

*** الخصائص اللغوية والأدبية والفنية في فكر البشير الإبراهيمي :**

يرى الدكتور عبد المالك مرتاض أن أسلوب الإبراهيمي أدبي كلاسيكي متين، بليغ و مبدع، والعلة في ذلك حسبه أنه من أحفظ أهل زمانه للقرآن الكريم ، وللأحاديث النبوية الشريفة، وللأدب العربي القديم شعره ونثره، وهي خاصية تجعله أكبر أديب في الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين ومن ناحية أخرى، فقد أتاح الاطلاع على كتابات الشيخ البشير الإبراهيمي اكتشاف أنه كان ملما بثقافة وأفكار عصره، وهو ما أكده نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، الذي أورد أن والده كان يملك ثقافة عصرية وقف عليها بنفسه،

وحتى في تخصصات كانت في ذلك الوقت حكرا على فئة قليلة جدا من الجزائريين، ممن درس في المعاهد والجامعات الفرنسية.

**- قوة الحافظة والقدرة على استحضار المحفوظ :**

من أبرز الخصائص الذاتية لدى البشير الإبراهيمي منذ صباه تلك الموهبة الربانية المتمثلة في قوة حافظته وقدرته على استحضار المحفوظ والاستدلال به في المناسبات المختلفة والمقامات المناسبة. وقد تجلى ذلك كلّه في المواقف المشهودة له في الملتقيات العلمية واللقاءات والمجالس الأدبية وغيرها من المحافل المختلفة التي ترك فيها آثارا طيبة.. وقد قال في وصف هذه الحافظة : " وهبني الله حافظة خارقة وذاكرة عجيبة تشهدان بصدق ما يُحْكى عن السلف، وكانتا مُعينتيْن لي في تحصيل العلْم في هذه السن.." [37]. كما قال أيضاً : " واختُصصْتُ بذاكرة وحافظة خارقتيْن للعادة." [38].

ولعل شهادة رفيقه في الدرب عبد الحميد بن باديس خير ما يؤكّد هذه المزية التي تميز بها البشير الإبراهيمي، وذلك في ابن باديس لرحلة وفد المؤتمر الإسلامي إلى باريس، إذ يقول: " .. وهاجت الذكرى الأندلسية بصاحبنا الإبراهيمي وأخذ في الحديث عنها وعن وطنيّنا المقري مؤرّخها، حتى كان ينثر علينا نفح الطيب من حفظه، فمنت أساوق الإبراهيمي الحافظة فيما يُنْشِد من نفح الطيب، وطال عهدي به.." [39] ووصفه الشيخ الصواف حفظه فقال : ".. أمّا حفظه لفرائد الأدب ودواوين الشعر فحدّثْ عن البحر ولا حرج.." [40]

ولا نبرح شهادات العلماء في البشير الإبراهيمي من حيث قوة الحافظة، ومنها شهادة الشيخ المحدّث عبد الفتاح أبو غدة في اثناء حديثه عن حفظ الإمام أحمد بن حنبل ألف ألف حديث، إذْ ذكر ذلك من أجل تقريب ما يماثل هذه الظاهرة في الجزائر، ثم عطف قائلاً : " .. وأقرب شيء على هذا البلد [ يريد الجزائر] فضيلة الشيخ المجاهد الكبير العلاّمة

الأديب البصير، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، كان إذا تحدّث - والله أنا سمعته – نقول ، والله، يقرأ من كتاب أو قلبه مسجلة، يورِد الكلام مرصوفا معسولا، منتظما زكياً لبقاً كأنه عسلٌ مصفّى، من اين هذا ؟ هذه الذاكرة التي تحترق دائما بالحفظ، لا تكلّ ولا تملّ .. " (41)

ومن أبرز الأمثلة على قوة الحافظة وبراعة استحضار المحفوظ لدى البشير الإبراهيمي ما جاء في (رسالة الضبّ) (42) التي كتبها وهو في منفاه بمنطقة آفلو التابعة لولاية الأغواط.. ففي هذه الرسالة من الإبداع ما لا يخفى. وهي تمثل أثرا أدبيا نادراً يشتمل على بدائع من التراث الأدبي عند العرب، وبعضاً من المسائل النحوية والقضايا اللغوية، فضلاً عن المعارف العلمية التي تختص بهذا الحيوان وما له من أثر في حياة الناس..

ولا تخلو هذه الرسالة من ظواهر بلاغية فنية، يمكن أن نقف منها على عدة مزايا تدل على امتلاكه عدّة لغوية متينة وزاداً أدبياً ثريا وديباجة فنية فريدة.. وهذا كله بطريقة إبداعية وأسلوب متميز لا نجده إلاّ عند الإبراهيمي؛ وكلّ من تعوّد على طريقته وأسلوبه وحُسْن ديباجته يدرك المزايا المتعددة في كتاباته التي تنمّ عن ثقافة واسعة متنوعة في روافدها مستقاة من منابعها الصافية؛ فالإبراهيمي لا يقول إلاّ ما يتأكّد من صحته، فإن راوده شك في أمر ما اشار إلى ذلك إشارات لطيفة، وهذا شأن العلماء الذين يوثق بعلمهم..

وعلى الرغم من تقدّمه في العُمر ووجوده في ظروف قاسية نتيجة للإقامة الجبرية أو المنفى والبُعْد عن الأهل والديار، فقد بقيتْ حافظة البشير الإبراهيمي محافظة على كثير من زادها العلمي وثروتها اللغوية والأدبية والفنية، وإن كان قد صرّح بأنه لم يَعُدْ كما كان أيام شبابه وعُلُوّ همّته.. ومن ذلك على سبيل المثال ما جاء في ختام رسالة الضب من قوله : " هذا ما جرى به القلم ممّا جرّ إليه ذِكْر الضب الذي أهديتموه لولدي الصغير، فأحسنتم بذلك إلى شيخ كبير؛ فقد تذكّر بسببكم بعض ما كان ناسياً، وأبى إلاّ أن يشكر إحسانكم بكتابة هذا القَدر إليكم عسى أن تستفيدوا منه فائدة، فيكون جزاء على تسبّبكم في الخير،

ولو كان هذا لحدثان في المطالعات الواسعة أو في وقت الحداثة وامتلاء الحافظة لكانت هذه الرسالة مزاحمة لرسائل القدماء في الإحاطة وجمع الأطراف. ولكنّ عذري عندكم وعند من يطّلع على هذه الرسالة فيجد فيها قصوراً أو وضعاً لبعض السماء في غير موضعها أنني أمليتها في ليلة، وما أملاها إلاّ فكْرٌ كليل عن حافظة مختلّة نسيتْ أكثر ما وعتْ وضيّعتْ كثيراً ممّا استودعتْ، مع اضطراب الحال واشتغال البال. وعسى أن تكون هذه الرسالة تذكرة بالحال الذي كُتبتْ فيه والبلْدة التي صدرتْ عنها والزمان الذي أُنشِئتْ فيه.."

إن رسالة الضبّ هذه قد اثارتْ قريحة الشيخ الإبراهيمي وأعادتْ إليه أيام النضال وذكريات السجال، فما كان منه إلاّ أن أطلق العنان لتلك الحافظة التي طالما وعتْ وجمعتْ ثم أبدعتْ وأمتعتْ.. ولم تفقد كثيرا من مزاياها حتى مع تقدّم عمره، إذْ جاءتْ هذه الرسالة في اثنتي عشرة صفحة، كلها درر ثمينة منثورة تبدو في أحسن صورة، بما شملته من أخبار الضبّ بين الحيوانات تارة وبين الحشرات تارة أخرى؛ ثم ما تداولته عنه آثار السابقين من الأدباء والشعراء، وبعض ما أبداه أهل العلْم والنظر في هذا المخلوق الصغير شكلاً وحجماً ، الكبير اسماً ووسماً، ومنه يعرّج الإبراهيمي على الصحراء وبعض أسرارها، ويستعرض بعض تجاربه هو مع الضب في سالف زمانه؛ ولا يلبث أن ينتقل إلى ما قيل فيه من الأقوال والأمثال السائرة، والأبيات البديعة الساحرة، ويقف عند هذه وتلك وغيرها تارةً لغوياً راوياً يحكي أبا الفتح ويبدي إعجابه به، وتارةً نحوياً على نهج الجرجاني، وطوراً تراه أديباً بارعاً على درب أبي العلاء والمتنبي، وليس هذا وحسب، بل عرّج فيها على محطات كثيرة لعلماء وكُتّاب تركوا آثاراً راسخة في مسيرتهم عبر العصور؛ ولا نبرح هذه الرسالة قبل أن نشير إلى قيمة شواهدها التي لا يكاد يخلو منها موقع يتطلب الشاهد؛ كما لا تفوتنا الإشارة إلى ما حفلتْ به من براعة في لغتها ومتانة في تراكيبها، وقوة في أسلوبها وانسياب عباراتها، بما يجعل القارئ ينجذب إليها ماتحاً من بسحرها وسابحاً في بحرها.. فهذه الرسالة حرية بأن تقام عليها دراسة مستقلة تعنى بها وتكشف عن بديع أسرارها..

ما هذه إلاّ هذه نماذج عن شهادات العلماء للبشير الإبراهيمي فيما يتعلق بصفاء ذاكرته وقوة حافظته، وذلك من الأمور البالغة الأهمية في حفظ العلْم والتحصيل والذخائر الكامنة لديه، فضلاً عن قدرته العجيبة في استحضار هذه الذخائر في مناسباتها التي تليق بها، فلا يكاد يحضر مجلساً إلاّ ووجد لديه ما يبوئه فيه مكانة سامقة بين الحاضرين، فينال شهاداتهم له بقوة الحفظ وصحة العلم وحسن الفهم وبراعة الأداء، وهذا ما لا يكون إلاّ عند العلماء المبرّزين الذين أوتوا حظاً كبيراً من العلْم الغزير وفتحاً عظيماً من الحكيم الخبير..

**- الحس التجديدي في التفسير والتأويل :**

لقد حرص الإبراهيمي على تتبع ما جاء من اختلافات لدى المفسرين في بيان المراد من كثير من الآيات التي بدا فيها قصور الفهم جليا عند كثير منهم، فكانت للإبراهيمي وقفات جديرة بالتأمل والاهتمام، إذْ قدّم نقده لهذه التفاسير ثم أبدى ما لديه من فهم لهذه الآيات.. ومن ذلك مثلاً ما يرويه بنفسه عندما حل بجامع الزيتونة بتونس وحضر مجلسا من مجالس التفسير، فلم يجد فيه ضالته، إذْ يقول : " وأشهد، لقد كنتُ ضيفاً بتونس منذ سبع عشرة سنة، فقيل لي عن عالم من مشايخ جامع الزيتونة ومن أبعدهم صيتاً في عالم التدريس إنه يُقْرئ التفسير فشهدت يوماً درسه لأكوّن فكرة عن دراسة التفسير في ذلك المعهد الجليل، وكنتُ معنيا بهذا البحث وجلست إليه أكثر من نصف ساعة، فوالذي نفسي بيده ما سمعتُ منه كلمة واحدة من الآية التي هي موضوع الدرس، ولا لمحتُ أمارة ولا إشارة تدل على أن الدرس في التفسير... وقمتُ أنا مستيقنا أن هذه الطريقة في التفسير هي أكبر الحُجُب التي حجبت المسلمين عن فهم كتاب الله ثم زهدتهم فيه وصدّتهم عن موارده.." (43)

إنّ هذا النوع من الملاحظات التي قدمها الإبراهيمي في أكثر من موضع، بين ثناء على بعض المفسرين ونقد لآخرين، يدل على أنه كان حريصاً على الفهم الإيجابي الصحيح للقرآن

الكريم، والوقوف على مقاصد الآيات ودلالاتها العميقة وفق السياقات التي تَرِد فيها، من غير تقليد أو انشغال بما لا يتصل بالآيات ولا يقدّم فائدتها للطلاّب والمتعلمين، لأن الغاية من التفسير هي بيان مراد الآيات بما يسمو بالمجتمع الإسلامي إلى الفهم الصحيح لمختلف أطوار الحياة مما تضمنته تعاليم الإسلام في القرآن الكريم الذي هو دستور المسلمين ومنهجهم الارتقاء بهم إلى الأفضل في دنياهم وفي علاقتهم بالأمم الأخرى، كما يرتقي بهم في أخراهم ليكونوا من المفلحين الفائزين، ويكون لهم أثر إيجابي في الحياة لأنفسهم ولغيرهم ..

بل لقد أشار الإبراهيمي في مواضع كثير من وقوفه عند بعض الآيات إلى دلالات عميقة لم يُسْبَق إليها، واستطاع استنباط المعاني التي تتناسب مع طبيعة الحياة وواقعها ليثبت أن القرآن الكريم متجدد صالح لكل زمان ومكان. ومن ذلك مثلاً نجده في تفسيره للآيات الكونية يشير إلى ما يحصل في حياة الناس، كوقوفه عند سورة الفيل، وحديثه عن الطير الأبابيل بأن منها ذلك البعوض أو الذباب الحامل للمكروبات التي تسبب الجدري. وهذا التفسير فيه تجديد ينم عن رؤية عميقة وبُعْد نظر ؛ وهو مما استحسنه بعض أهل العلم والنظر في زمانه، ومنهم عباس محمود العقاد.. (44)

ومما يمكن قوله عن نهج البشير الإبراهيمي ومدرسته في التفسير هو انتماؤه إلى مدرسة التفسير الاجتماعي والأدبي التي من أبرز روادها الإمام محمد عبده والإمام رشيد رضا.. واعتماده في تفسير القرآن الكريم على العقل واستنطاق النص وفهم دلالاته فالعلماء عنده " هم الذين يحكّمون دينهم في عقولهم ويحكّمون عقولهم في ألسنتهم، فلا تصدر الألسنة إلا بعد مؤامرة العقل، ويعدّون العقل مع النص أداة للفهم معزولة عن التصرف، ومع المجملات ميزانا للترجيح، يدخل في حسابه المصلحة والضرورة والزمان والمكان، ويميز بين الخير والشر، وبين خير الخيْرَيْن وشر الشّرَيْن." (45)

ومن أبرز المزايا في تعامل البشير الإبراهيمي مع القرآن الكريم، بعد اطلاعه على تفاسير العلماء قبله، تقديم إضافات جديرة بالنظر والالتفات، لما تتميز به من ملامح تجديدية في

تفسير القرآن الكريم . فالمطالع لآرائه وتعليقاته في هذا الباب يقف على فهم صائب ونظر ثاقب لعالِمٍ ذي دراية فائقة بالمعاني والمقاصد القرآنية، غذْ نراه يتجاوز حدود الشرح اللغوي والكشف عن الأسرار البلاغية في الآيات القرآنية، إلى المراد منها بما ينسجم مع سياقات الخطاب القرآني، وهذا على الرغم من درايته الواسعة وإلمامه الفريد بأساليب اللغة العربية نحوا وصرفا وبلاغة وصوتاً ومعجماً ودلالةً..

وسنعرض ههنا لبعض النماذج من وقفات الإبراهيمي على عمق المعاني والمقاصد المستقاة من بعض الآيات القرآنية.. فمن ذلك مثلاً وقوفه عند قوله تعالى : **( إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثاني اثنين )** [التوبة: 40] ، كيف جاء لفظ ( الإخراج ) بدلاً من لفظ ( الهجرة )، مع أن فعل الهجرة هي المراد به . فمن " بعض الحكمة في ذلك أن التذكير بالإخراج من الديار يذكي الحماس، ويبقي الحنين إلى الديار متواصلاً، وينمي غريزة الانتقام والأخذ بالثأر، وأن إيجاب الهجرة بتلك الأساليب المغرية البديعة، هو جمع لأنصار الحق في مأرز واحد، بعد تشتتهم لينسجموا ويستعدوا إلى الرجعة والكرة. " (46)

فالتطلّع إلى العودة مستفاد من هذه الآية باستعمال هذا اللفظ من دون سواه، فالمهاجر غير من تم إخراجه، إذ قد تكون الهجرة طوعاً أو كرهاً، فإذا كانت طوعاً لم يكن من اللازم لصاحبها التفكير في العودة، بينما لا يكون الإخراج إلاّ كرهاً ، ومن أُكْرِه على الخروج لم يزل متطلعاً إلى العودة، وهذا دأبه بدافع الحنين الذي يبقى يراوده ما دام بعيداً.. وهذه نظرة تجديدية في التفسير تدل على درب حسن الفهم وصواب التأويل لآي القرآن الكريم؛ وهو ما يتأتى لكل باحث أو ناظر فيه ..

ما أكثر هذا النوع من النماذج التي تنم عن حس تجديدي ورؤية ثاقبة في النظر فيما وراء الألفاظ والنصوص، وعدم الاكتفاء بدلالاتها الظاهرة؛ وهذه القدرة على الفهم وحُسْن التأويل لا تتأتى إلاّ لمن وهبه الله حسّاً فريداً ومهارة في إدراك أبعاد الخطاب وعمق دلالاته..

**- حسْن التذوق وبُعْد النظر:**

ممّا يُشْهَد به للبشير الإبراهيمي حُسْن تذوّقه للنصوص والآثار الأدبية التي يمر بها في مطالعاته، فهو يقف على اسرارها ومكامن الحكمة فيها متجاوزاً ظاهر اللفظ إلى المغزى والأثر المستفاد منه.. وهذا ما نجده كثيراً في كتاباته، كما نطالعه في حواراته في مجالس العلماء. ومن ذلك قصة لفظ (الذّواق) الذي ورد في حديث النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك ضمن حوار دار بينه وبين الشيخ محمد الغزالي..

فها هو الغزالي يثني على الإبراهيمي ويشهد له بطول الباع في العلم والفهم وحُسْن التذوق وبُعْد النظر، إذْ يروي لنا قصته مع الإبراهيمي، لمّا زار القاهرة، في حوار شائق بين عالِمَيْن، إذْ يقول: " ... كان لكلماته دوي بعيد المدى، وكان تمكنه من الأدب العربي بارزا في أسلوب الأداء وطريقة الإلقاء، والحق أن الرجل رُزق بيانا ساحرا وتأنقا في العبارة يُذكِّرنا بأدباء العربية في أزهى عصورها... ومن الخطأ تصور أن الشيخ الكبير كان خطيبا ثائرًا وحسب.. لقد كان فقيها ذكي الفكرة بعيد النظرة. ووقع لي معه حوار في مسألتين طريفتين، قال لي مرة: لعلك قرأت في السيرة الشريفة أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانوا ينصرفون عن مجلسه إلا على ذَوَاقٍ. قلت: نعم، قال: فما الذواق الذي ينالونه في مجلسه؟ فتريثّتُ قليلا ثم أجبت: لعلهم كانوا يتناولون بعض الأطعمة أو الأشربة كما يقع في عصرنا هذا عندما نقدم للأضياف الوافدين أقداحا من الشاي أو غيره.. قال لي: ظننتك أفضل من أن تجيب هذه الإجابة الساذجة، ألك شيء يُنوِّه به الأصحاب الكرام؟ قلت في تلهُّف: فما الذواق الوارد في السنة؟ قال: إنه تذوق أرقى، ألا تذكر الحديث الشريف "ذاق حلاوة الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا ورسولا."

إن المجلس النبوي تظلله الحكمة، ومقام النبي فيه ترقيق القلوب، ورفع المستوى، وتخليص الروحانية من شوائب الأرض، وجعل البشر في مصاف الملأ الأعلى.. فما ينصرف أحد عن هذا المجلس الزكي إلا وتذوق نازلاً من السماء، ولا يعود إلى أهله إلا بذخر يعليه ويعليهم. الحق أن هذا المعنى كان جديدا عليّ، غير أني شعرت بأنه الحق، وأنه أولى كثيرا من تفسير الذواق بأنه طعام وشراب... " [47]

**- قوة الأسلوب وعمق الدلالة وبلاغة التعبير:**

يمكن أن نقف على عدة مزايا للإبراهيمي فيما يتصل ببراعته اللغوية وقوة أسلوبه وتميزه من حيث انسجام التراكيب وبلاغة العبارات.. فهو يستطيع الوقوف على أسرار الألفاظ وتوظيفها توظيفاً فريداً يُظهِر عمق دلالاتها.. كما أنه يُجيد انتقاء الكلمات ذات الأصوات المنسجمة في جرْسها وتناسق نغماتها، بمراعاة توافق الحركات وانسجام الإيقاع وتجانس الأصوات، واستعمال التكرار في مواضعه قصد بلوغ المراد وتثبيت الفكرة وترسيخها، كما تتميّز الجمل والتراكيب بحسن الترابط والانسجام والاتساق.. وهذا ما بوأ الإبراهيمي مكانة متميزة بين كتاب فنّ المقال الأدبي، بما انفردتْ به كتاباته النثرية من جودة السبك والتعبير وبلاغة الإقناع والتأثير..

ففي الميدان اللّغوي لم يكتف بالحرص على تعليم النشء اللّغة العربية، والعمل على أن تأخذ مكانتها الشّرعية في المجتمع الجزائري كلغة أمّ، وإنّما خصّها كذلك بالعديد من الدّراسات، تتمحور موضوعاتها حول قضايا لغة القرآن، في مستوياتها الأساسية كالمستوى الصّوتي الذي تناوله من خلال رسالة تطرّق فيها إلى مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعاميّة، إضافة إلى المستوى الصّرفي حيث تعرّض للأوزان والضمائر والأبنية، فوضع كتاب "أسرار الضمائر في العربية" وكتاب "نظام العربيّة في موازين كلماتها" وكتاب "الصّفات التي جاءت على وزن فَعَلَ" وكتاب "النُّقايات والنُّفايات في لغة العرب." [48]

وعدا المجال اللّغوي، أثرى البشير الإبراهيمي ميدان التأليف بالكثير من المصنّفات، أشهرها رسالة الضّب التي نزع فيها منزع الجاحظ في كتابه "الحيوان"، فقد عرض لنا حقائق علمية عن هذا الحيوان، كاشفا فصيلته وصفاته وحضوره في حضارات الأمم، مبيّنا إشارة العرب إليه في أمثالهم وأشعارهم. [49]

ولم يقتصر باع الشيخ على التأليف وإعداد الأبحاث والدّراسات، وإنّما راح يبدع في بعض الفنون الأدبية كالرّواية التي أبدع فيها نصًّا سمّاه "كاهنة الأوراس"، والمسرحية التي وضع

فيها نصًّا عنوانه "رواية الثلاثة"، وهي عمل مسرحي شعري، يقع في ثمانمائة وواحد وثمانين بيتا، أعدّه وهو في منفاه بمدينة آفلو[50]. وهذه الرّواية، تكشف مقدرة البشير الإبراهيمي على قرض الشّعر، فقد نظّم أرجوزة سمّاها "ملحمة"، وهي تقع في ستة وثلاثين ألف بيت، وذات مواضيع متعدّدة، يتّصل بعضها بتاريخ الإسلام والبعض الآخر بمشاكل المجتمع الجزائري. [51]

ومن الخصائص البلاغية والفنية في كتابات الإبراهيمي توظيفه للصور البيانية والمحسنات البديعية؛ ومن ذلك مثلاً الانتقال من المعاني المجردة إلى الصور المحسوسة لتقريب المعاني وتحقيق التاثير في المتلقي.. ومن ذلك أيضاً براعة الوصف وقوة التخييل، وهذا من أبرز ما جعل كتاباته وجعلها ذات وقع شديد وأثر مباشر،

ومن الصور البيانية على سبيل المثال، استعمال الاستعارة في قوله: " أقف في بعض مقاماتها على ساحل بحر لجي من العبر والمثُلات" ؛ وقوله : " بينهما نار العصبية.." ؛ وقوله : " جاءت النبوة من مكة إلى المدينة. " ؛ وقوله: " رؤوس الأموال الأجنبية ذات قرون ناطحة.."

يحظى الإيقاع بعناية كبيرة في كتابات الإبراهيمي، وهو إيقاع فيه انسجام بين الصوت والمعنى وقد أحسن انتقاءه لتحقيق مراده من الإقناع والتأثير.. وهو يتجلى في الفنون البديعية كالجناس والسجع. ومن ذلك مثلاً قوله : " أتمثّله واسع الآمال إلى حدّ الخيال، ولكنّه يزجيها بالأعمال إلى حدّ الكمال ... أتمثّله مصاولا بالحجاج والإقناع ولا باللّجاج والإقذاع، مرهبا لأعدائه بالأعمال لا بالأقوال." وقوله : " فَال رأيُ أبرهة في الفيل... جار الجنوب الحبشي، وجار الجنب الفارسي...". ومنها المشاكلة، كما في قوله : " هل يعلمون أن طلاب الغاز غزاة، وأن الشركات أشراك." ومنها السجع، كما في قوله : " وإن تعالت في الأفق قبابُه، وكُسيت بوشْى السماء هضابُه، وسالت بذهب الأرض شعابُه.. "[52]

ومن بديع السجع عنده السّجع المتوازي، كما في قوله : " خطّت الأقدار في صحيفتي أن أفتح عينيّ عليك وأنت موثقة، فهل في غيب الأقدار أن أغمض عيني فيك وأنت مطلقة؟ وكتبت الأقدار علي أن لا أملك من أرضك شبرا، فهل تكتب لي أن أحوز في ثراك قبرا .

" كما يوظف الإبراهيمي الطّباق والمقابلة في مواضع كثيرة، وهوما يستدعيه المعنى والقصد، فمن الطّباق والمقابلة قوله، مثلاً : " فلا تنسي أنّني ما زلت ألقى الأذى فيك لذيذا والعذاب في سبيلك عذبا، والنّصبة في خدمتك راحة والعقوق من بعض بنيك برّا، والحياة في العمل لك سعادة، والموت في سبيلك شهادة." (53)

ومثاله أيضاً أسلوب التكرار، إذْ ترددتْ عدة تراكيب في كتاباته مبنية على أسلوب التكرار الذي يعطي التراكيب إيقاعاً متميزاً شديد الوقع في النفس؛ ومن ذلك مثلاً، قوله: " وإن له في نفوس الأحرار لأثراً يتعاصى عن الصفح والعفو، وإن له في نفس سيد المرسلين لوقعاً مؤلماً .." وقوله : " إلى يوم أخرجه قومه بغير حق، إلى يوم أخرجه ربه إلى بدر بالحق، إلى يوم صدقه ربه الرؤيا بالحق.." فهذه كلها تكرارات تزيد من ترسيخ الفكرة وإيضاح المراد من العبارات.

ومن السمات الفنية البارزة في أسلوب الإبراهيمي أنّه قريب من فن المقامة، لكنه لا يلتزم بالسجع التزام كُتّاب هذا الفنّ به، وإنما يستعمله باعتدال في مواطنه، بما ينسجم مع المعاني والمقاصد.. ومن ذلك مثلاً قوله في خطابه للشباب: " يا شباب الإسلام... وصيتي إليكم أن تتصلوا بالله تديّنًا، وبنبيّكم اتّباعًا، وبالإسلام عملًا، وبتاريخ أجدادكم اطِّلاعًا، وبآدابِ دينِكم تخلُّقًا، وبآدابِ لُغَتِكم استعمَالًا، وبإخوانكم في الإسلام ولِداتكم في الشبيبة اعتناءً واهتمامًا، فإن فعلتم حُزتُم مِن الحياةِ الحظَّ الجليل، ومِن ثوابِ الله الأَجرَ الجزيل، وفاءت عليكم الدُّنيا بظِلّها الظَّليل." (54)

هذه نماذج من كتابات البشير الإبراهيمي، حيث الصور البلاغية والمحسنات البديعية بإيقاعاتها وتنوعاتها، وهي ممّا يزيد اسلوبه قوة وتأثيراً وإقناعاً، كما يزيده جمالاً وإبداعاً

وإمتاعاً .. وما أكثر هذه النماذج في كتابات الإبراهيمي؛ حتى إنها لتحتاج إلى دراسة مستقصية متفحصة، للوقوف على أسرارها وسبر أغوارها..

هذا هو البشير الإبراهيمي أحد رواد الإصلاح والنهضة الفكرية والأدبية في الجزائر والوطن العربي والإسلامي؛ بل إنه من أبرز المفكرين بفلسفته الإصلاحية التي هي جزء من فلسفة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان رئيساً لها بعد رئيسها ورائدها الأول عبد الحميد بن باديس..

والإبراهيمي، فضلاً عن دوره الفكري الإصلاحي والتربوي في تحقيق النهضة، بما يبوّئه مكانة كبيرة بين أبرز المفكّرين.. هو كذلك من الأعلام المتميزين المتمكّنين الذين ينفردون في كتاباتهم بخصائص ومزايا علمية وفنية تجعل منهم رواداً في فنون الكتابة والإبداع ، وأسماء بارزين بين أكبر الكُتّاب والأدباء .. وما هذا الذي جئنا به في هذه الورقة إلاّ غيض من فيض، من بحر العلاّمة محمد البشير الإبراهيمي، على أمل أن نكون قد قدّمنا إضاءات مفيدة على بعض الجوانب المشرقة من سيرته ومسيرته.. والله الموفق.

**الهوامش:**

1- بشير فايد، قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ شكيب أرسلان، أطروحة دكتوراه، 2010 ، ص69.

2- كانت حادثة المروحة في 29 أفريل من العام 1827م ، وقد جرت في قصر الداي حسين، عندما جاء القنصل الفرنسي بيار دوفال إلى القصر يوم عيد الفطر، وقد طالب الداي من القنصل تسديد ديون الجزائر على فرنسا، فرد القنصل بطريقة لا تليق بمكانة الداي صاحب الحق، فقام بطرده ملوحاً بالمروحة التي كانت لا تفارق الحكام آنذاك. فبعث شارل العاشر جيشا لحصار الجزائر جاعلاً من حادثة المروحة ذريعة له، وكان ذلك في العام 1828 ليعقبه الاحتلال..

3- أحمد طالب الابراهيمي : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، ج 5، جمع و تقديم أحمد طالب الإبراهيمي ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 1997 م ، ص163.

4- محمد عباس : البشير الإبراهيمي – ديوان المطبوعات الجامعية للمطبعة الجهوية وهران ، ص 31 .

5- ينظر: عبد الحكيم قماز، مقال بالقسم الثقافي لجريدة الخبر الجزائرية تحت عنوان: الشّيخ البشير الإبراهيمي.. مجدِّد الحركة العلميّة في الجزائر، عدد 20 ، مايو 2016م

6- أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 5، جمع و تقديم أحمد طالب الإبراهيمي ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت : 1997 م ، ص 166

7 قبسات من شخصية العلامة الجزائري الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دراسة لسيرته العلمية والعملية، ص47 وما بعدها

8 آثار محمد البشير الإبراهيمي، 275/1 - 276

9المصدر نفسه، ص 276

10 قبسات من شخصية العلامة الجزائري الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دراسة لسيرته العلمية والعملية، نو للنشر، ط1 (1440هـ/ 2019م) ص47-48

11 مقال بجريدة الخبر: الشّيخ البشير الإبراهيمي.. مجدّد الحركة العلميّة في الجزائر، عدد 20 ، مايو 2016م

12آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص 281

13أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 5، جمع و تقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت(1997م) ص06.

14المصدر نفسه، 5/ 288

15النقايات، جمع نقاية، وهي رديء الشيء وما يُلْقَى منه ؛ وهي قريبة في المعنى من النفايات التي هي بقايا الشيء وفضلته مما لا يصلح .. وقد جُمعتْ الكلمتان في هذا العنوان.

16 ينظر المصدر السابق، 289/5

17 إبراهيم السكران، الماجريات، ص74 ؛ و(الماجَرَيَات) عنوان كتاب لعمر السكران ، صدر في شهر شعبان من العام 1436هـ؛ الموافق شهر جويلية من العام2015م. ويراد بالماجريات (ما جرى به العمل) فـ (ال) تعريفية، و(ما) موصولية، و(جرى) بمعنى: وقع أو حدث. وجُمعت بهذه الصيغة (الماجَرَيَات) بفتح الجيم والراء والياء تباعاً. ويتناول هذا الكتاب خمسة نماذج معاصرة فيدرس كيفية تعاملهم المثمر مع السياسة وماجرياتها، وهؤلاء الخمسة هم : العلاّمة البشير الإبراهيمي، والأستاذ مالك بن نبي، والشيخ أبو الحسن الندوي، والدكتور عبد الوهاب المسيري، والدكتور فريد الأنصاري ..

18 آثار محمد البشير الإبراهيمي، 356/5

19 المصدر نفسه، 379/5

20 المصدر نفسه، 285/5

21مقال بجريدة الخبر: الشّيخ البشير الإبراهيمي.. مجدّد الحركة العلميّة في الجزائر، عدد 20 ، مايو 2016

22 مقال بجريدة الخبر: الشّيخ البشير الإبراهيمي.. مجدّد الحركة العلميّة في الجزائر، عدد 20 ، مايو 2016م

23 آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، 84/1

24 المصدر نفسه، 82/1

25 المصدر نفسه، 303/3

26المصدر نفسه، 265/3

27 آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، 295/3

28 المصدر نفسه، 116/2

29 المصدر نفسه، 413/3

30المصدر نفسه، 413/3 وما بعدها

31 المصدر نفسه، 267/4

32 المصدر نفسه، 453/2

33المصدر نفسه، 267/4

34المصدر نفسه، 301/2

35 المصدر نفسه، 293/3

36 قبسات من شخصية العلامة الجزائري الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دراسة لسيرته العلمية والعملية، ص49

37 قبسات من شخصية العلامة الجزائري الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، ،ص38 ( عن آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 290/5 )

38 المرجع نفسه، ،ص38 ؛ عن المصدر نفسه، 164/5 )

39 عمار طالبي، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، 307/4 - 308

40 محمد محمود الصوّاف، من سجل ذكرياتي، ص15- 16 ؛ وينظر: قبسات من شخصية العلامة الجزائري الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص39 .

41 الأصالة، كتاب محاضرات ملتقى السنّة النبوية، 308/1 ( عن كتاب قبسات...، ص39 )

42 كانت بين الإبراهيمي وتلاميذه ورفقائه اتصالات لا تنقطع.. ولمّا كان في منفاه بمنطقة آفلو (وهي من دوائر ولاية الأغواط) زاره تلميذه أحمد قصيبة، (وهو من علماء مدينة الأغواط البارزين وأحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) وأهدى نجله أحمد الذي كان طفلاً صغيراً، أهداه ضبّاً محشواً.. فلمّا شاهد الإبراهيمي هذه الهدية وقعتْ في نفسه موقعاً حسناً، واثارتْ بعض ما في ذاكرته ممّا ورد في شأن الضبّ في حياة الناس، وما جاء عنه في الأدب العربي،.. فكتب هذه الرسالة إلى تلميذه أحمد قصيبة يشكره فيها على الهدية التي ذكّرتْه بأسرار هذا الحيوان وما يحمله من الأسرار العجيبة.. وتقع هذه الرسالة في إحدى عشرة صفحة ..

43 المصدر السابق،362/1

44 المصدر السابق،1/ 150، 061، 184، 186 ؛ وينظر: قبسات من شخصية العلامة الجزائري الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص67،68

45قبسات من شخصية العلامة الجزائري الإمام محمد البشير الإبراهيمي، تصدير الكتاب، ص10،11

46 آثار الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي، مقال في صحيفة البصائر العدد 14 للعام 1947م.

47 مقال بجريدة الخبر: الشّيخ البشير الإبراهيمي.. مجدّد الحركة العلميّة في الجزائر، عدد 20 ، مايو 2016م

48 محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديبا، (وهران، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، د ت)، ص 70-71.

49المرجع نفسه، ص 72.

50 مجموعة من الكتاب، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، (شركة دار الأمّة، ط 2، 2007)، ص237.

51 محمد الطّاهر فضلاء، الإمام الرّائد: محمد البشير الإبراهيمي، (قسنطينة، مطبعة البعث، 1967)، ص 166.

52 آثار الإبراهيمي، ج 2، ص 594

53 ينظر: المصدر السابق، 2/ 484

54 آثار البشير الإبراهيمي، 12/4

# أدبية البشير الإبراهيمي: براعة حفظ، ملكة بيان
## - نظرات في أصول التحكّم الكلامي –

د. حنجار غانم GHANIM HANDJAR
جامعة ابن خلدون –تيارت-
Ghanem58@yahoo.fr

**الملخص:**

قد يصعب تفسير أدبية الشيخ الإبراهيمي في سياق القراءة الانتقائية لمنصوصاته، مالم يراع الدارس منطلقات الرجل المعرفية والتكوينية، التي منحته بحق ريادة الكلمة في عصره.

فقوة الحافظة، وسعة الذاكرة كانتا من المهيئات التي رسخت في أديبنا قيم التعبير، بما هو واف وتام في مقام البيان، على سمت من سبقوه من الرواد أمثال: الجاحظ والتوحيدي والمعري،...

فالرجل إن كان قد استقى من حيّاض الأصالة التاريخية للفكرة الأدبية واللسانية فإنه قد راكم خبراته، وعزّزها بما صنعته ظروف عصره من الذوق الجديد، الذي يجدر أن ينظر إليه ويلتزم بأحكامه، حتى قيل فيه: إنه أمير" البيان، وكاتب القطرين."

فأين تشخّصت أدبية الشيخ الإبراهيمي؟ وما هي خصائص بنيتها الفنية والمنهجية؟ كيف نفيد من سمته الفكري والأدبي على مستوى التعليم والتكوين؟

**كلمات مفتاحية:** أدبية، الذاكرة، الحافظة، البيان.

**لايوجد ملخص بلغة أجنبية**

**أ- روافد الأدبية في شخصية الشيخ البشير الإبراهيمي :**

**1- أثر الذاكرة في تحصيل المعارف:**

ليس هناك ما يلتبس على القارئ في إدراك أدبيّة الإبراهيمي. لأنّها في غير حاجة إلى التدليل على قيامها. فالرجل يصدر في سمته الأدبي عن أصول تعليمية وتكوينية، أصابت **الذاكرة** منه مبلغا في سياق إحيائي، لكلّ ما هو معرفي أصيل ماتع، على سنن من سبقوه من زمر الحفّاظ بتفاوت طبقاتهم.

**فالذاكرة إذن** : شأنها في العقل الإنساني شأن المحرك الجدير بدفع آلة السير نحو الآفاق . ولأجل قيمتها أولاها المنهج التعليمي القديم حيّزا في مسار بناء المعرفة. فكان حظّها من المنهج التعليمي أنّها نقطة الارتكاز، باعتبار المنهج المعرفي في فلسفة ثقافتنا يومها منهجا تراكميا، يتعامل مع المعرفة الإنسانية على قاعدة التوسّع. وهي قاعدة تأسّست ضمن سياق تعليمي أداته الذاكرة **القوية**، لأمر ما، يكون قد رسخ طويلا في وعي الأمة بقوة حالها- الجاهلي والإسلامي- حيث وقع في فهمهم أنّ الذاكرة من أقوى الأدوات انسجاما مع الثقافة الشفوية، وظلّت هذه النظرة حيّة، تجلّيها الدّور التربوية الحرة، والمؤسسات الدينية، في تبليغ مشاريعها التعليمية بما يضمن لها كفاءة **الحمل والاستظهار**. "**فأكثرهم حفظا أجدرهم إماما.**"

ومن هذا الاعتقاد تولّد شعار: "**احفظ فالحافظ إمام**"، أو "**من حفظ المتون حاز الفنون**".

**2- مرتكزات القوّة الحافظة:**

لم يكن في المقابل، لظاهرة الحفظ أن تتحقّق في شخصية طالب العلم ، من دون ارتكازها على عاملين نفسيين مهمّين هما: **الرغبة. و العزم**. لأنّ في فلسفة التعليم بالذاكرة لا تتأتّى المقرّرات والمعارف لطلّابها إن تخلّف أحدهما أو كلاهما.

وتأسيسا على ما سلف نكون في حاجة منهجية، وتفسيرية لإسقاط هذه المقاربة البيداغوجية على علاّمة عصره، **محمد البشير الإبراهيمي**، حتّى نفقه عن يقين سمت الرجل في إبّانه، ووضوح.

**فكيف أدّت آلة الذاكرة دورها في هندسة الصرح المعرفي لرجل بات جديرا بلقب الإمام الحافظ ؟ أين تشخّصت صفات الأدبية في منجزاته النصيّة؟، وكيف نفيد من تجربته في إشاعة الثقافة البيانية داخل دورنا البيداغوجية اليوم؟**

**"3_ <u>توصيف الملمح:</u>**

نلاحظ ابتداء أنّ تلك التوصيفات العالقة بملكة الحفظ قائمة في المحيط التعلّمي للإبراهيمي، كما يفهم من مسرد حياته في التلقي. يقول محدّثا عن نفسه [1] – رحمه الله-:

((نشأت في بيت والدي كما ينشأ أبناء بيوت العلم، فبدأت التعلم وحفظ القرآن الكريم في الثالثة من عمري على التقليد المتبع في بيتنا، الشائع في بلدنا. وكان الذي يعلمنا الكتابة، ويلقننا حفظ القرآن جماعة من أقاربنا من حفاظ القرآن، ويشرف علينا إشرافاً كلياً عالم البيت، بل الوطن كله في ذلك الزمان عمي شقيق والدي الأصغر الشيخ محمد المكي الإبراهيمي - رحمه الله -. وكان حامل لواء الفنون العربية غير مدافع؛ من نحوها، وصرفها، واشتقاقها، ولغتها. أخذ كل ذلك عن البقية الصالحة من علماء هذه الفنون بإقليمنا.....

فلما بلغت سبع سنين استلمني عمي من معلمي القرآن، وتولى تربيتي وتعليمي بنفسه، فكنت لا أفارقه لحظة، حتى في ساعات النوم؛ فكان هو الذي يأمرني بالنوم، وهو الذي يوقظني على نظام مطرد في النوم، والأكل، والدراسة.

وكان لا يخليني من تلقين حتى حين أخرج معه، وأماشيه للفسحة، فحفظت فنون العلم المهمة في ذلك السن مع استمراري في حفظ القرآن؛ فما بلغت تسع سنين من عمري حتى كنت أحفظ القرآن مع فهم مفرداته وغريبه.

وكنت أحفظ معه ألفية ابن مالك، ومعظم الكافية له، وألفية ابن معطي الجزائري، وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر، وأحفظ جمع الجوامع في الأصول، وتلخيص المفتاح للقاضي القزويني، ورقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب، وأحفظ الكثير من شعر أبي عبد الله بن خميس التلمساني شاعر المغرب والأندلس في المائة السابعة، وأحفظ معظم رسائل بلغاء الأندلس مثل ابن شهيد، وابن برد، وابن أبي الخصال، وأبي المطرف ابن أبي عميرة، وابن الخطيب.

**ثم لفتني عمي إلى دواوين فحول المشارقة، ورسائل بلغائهم، فحفظت صدراً من شعر المتنبي، ثم استوعبته بعد رحلتي إلى المشرق، وصدراً من شعر الطائيين، وحفظت ديوان الحماسة، وحفظت كثيراً من رسائل سهل بن هارون، وبديع الزمان.**

وفي عنفوان هذه الفترة حفظت بإرشاد عمي كتاب كفاية المتحفظ للأجدابي الطرابلسي، وكتاب الألفاظ الكتابيه للهمذاني، وكتاب الفصيح لـ: ثعلب، وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب بن السكيت.

وهذه الكتب الأربعة هي التي كان لها معظم الأثر في مَلَكتي اللغوية.

ولم يزل عمي - رحمه الله - يتدرج بي من كتاب إلى كتاب تلقيناً وحفظاً ومدارسة للمتون والكتب التي حفظتها حتى بلغتُ الحادية عشرة، فبدأ لي في درس ألفية ابن مالك دراسة بحث، وتدقيق، وكان قبلها أقرأنِي كتب ابن هشام الصغيرة قراءةَ تفهُّمٍ وبحث، وكان يقرئني مع جماعة الطلاب المنقطعين عنده لطلب العلم على العادة الجارية في وطننا إذ ذاك، ويقرئني وحدي، ويقرئني وأنا أماشيه في المزارع، ويقرئني على ضوء الشمع، وعلى قنديل الزيت في الظلمة حتى يغلبني النوم.

ولم يكن شيء من ذلك يرهقني؛ لأن الله - تعالى - وهبني حافظة خارقة للعادة، وقريحة نَيِّرة، وذهناً صيوداً للمعاني ولو كانت بعيدة.

ولما بلغت أربع عشرة سنة مرض عمي مرض الموت، فكان لا يخليني من تلقين وإفادة وهو على فراش الموت؛ بحيث إني ختمت الفصول الأخيرة من ألفية ابن مالك عليه وهو على تلك الحالة))

ويقول في موضع آخر:(( ولقد حفظت وأنا في تلك السن - الرابعة عشرة- أسماء الرجال الذين تَرجم لهم نفح الطيب، وأخبارهم، وكثيراً من أشعارهم؛ إذ كان كتاب نفح الطيب - طبعة بولاق - هو الكتاب الذي تقع عليه عيني في كل لحظة منذ فتحت عيني على الكتب.

**وما زلت أذكر إلى الآن مواقع الكلمات من الصفحات، وأذكر أرقام الصفحات من تلك الطبعة.**

**وكنت أحفظ عشرات الأبيات من سماع واحد، مما يحقق ما نقرؤه عن سلفنا من غرائب الحفظ.**

وكان عمي يشغلني في ساعات النهار بالدروس المرتبة في كتب القواعد وحدي أو مع الطلبة، ويمتحنني ساعة من آخر كل يوم في فهم ما قرأت، فيطرب لصحة فهمي.

فإذا جاء الليل أملى علي من حفظه - وكان وسطاً - أو من كتاب ما يختارلي من الأبيات المفردة، أو من المقاطيع حتى أحفظ مائة بيت، فإذا طلبت المزيد انتهرني، وقال لي: إن ذهنك يتعب من كثرة المحفوظ كما يتعب بدنك من حمل الأثقال، ثم يشرح لي ظواهر المعانِي الشعرية، ثم يأمرني بالنوم - رحمه الله-.

ثم يقول - رحمه الله - بصدق وصراحة: ((مات عمي سنة 1903م ولي من العمر أربع عشرة سنة، ولقد ختمت عليه دراسة بعض الكتب وهو على فراش المرض الذي مات فيه وأجازني الإجازة المعروفة عامة، وأمرني أن أخلفه في التدريس لزملائي الطلبة الذين كان حريصاً على نفعهم، ففعلت، ووفق الله، وأمدتني تلك الحافظة العجيبة بمستودعاتها، فتصدرت دون سن التصدر، وأرادت لي الأقدار أن أكون شيخاً في سن الصبا.

وما أشرفت على الشباب حتى أصبت بشرِّ آفة يصاب بها مثلي، وهي آفة الغرور والإعجاب بالنفس؛ فكنت لا أرى نفسي تَقْصُر عن غاية حفَّاظ اللغة وغريبها، وحفاظ الأنساب والشعر، وكدت أهلك بهذه الآفة لولا طبع أدبي كريم، ورحلة إلى الشرق كان فيها شفائي من تلك الآفة)).

هذا وقد أشار- رحمه الله - في بعض المواضع إلى أنه كان يحفظ المعلقات، والمفضليّات، وكثيراً من شعر الرضي، وابن الرومي، وأبي تمام، والبحتري.

وأشار إلى أنه يحفظ موطأ مالك وغيره من الكتب." *

فالإبراهيمي كغيره من أبناء الأمة الإسلامية ، خضع لمنهج تعليمي قاس ، صارم وحازم، نال منه الجهد والنّصب، فمنطلقات ذلك المنهج منسجم تماما مع الغايات المحدّدة لملامح متخرّجيه، التي في مبتداها نيل الكفايات الشرعية واللسانية.

ومن هنا فإنّ طالب المرحلة حينذاك كان عليه تحقيق جدارة الانتماء بما يصنع فيه همَة الطموح نحو منصب المشيخة. بالتفرّغ إلى حفظ المتون، واستظهار العيون من أصول

اللسان، من بعد استجماع نصوص الشريعة قرآنا وسنة، وما تلاهما من شروح، وحواش، وتعليقات... فعلى هذه الحال يكون الطالب السالك مهيّئا على وجه اليقين لتحمّل واجب التبليغ في مقامات المعرفة، بعد **إجازة** طال انتظارها.

وعلى هذا المنوال صنعت الرغبة، والعزم، والمراقبة الصارمة ملامح الشيخ الإبراهيمي، ووسمته بوسم الأديب الناضج، اجتمعت فيه الأداة التعبيرية الوافية، والذهن المتّقد، والبراعة فيما حمل من صنوف الكفايات المعرفية، التي أبقته على حياة من الفخار في محافل الكلمة البانية .

**ب - مكامن الأدبية في النص الإبراهيمي:**

خلّف الشيخ البشير موسوعة ** محترمة، ترقى إلى مستوى الإشادة المعرفية من أهل الدراية، اجتمع فيها الفن والعلم، والسياسة، والدين، والاجتماع...وهو أمر نحسبه مبرّرا إذا ما راعينا عوامل تكوينه، التي حاز بسببها مزيّة السبق.

فالإبراهيمي لم يكن بحال نمطيا فيما أنتج، لأنه يدرك علاقة اللغة بالفكرة، ومن البديهي أن يتجدّد في أسلوبية العبارة، بحسب ورودها في المقام، ذلك أنّ تدويناته ظلّت نابعة من قيّمه الشعورية، والانفعالية التي يحياها ذوقا، وفكرا، وثقافة...ولأجل ذلك غابت عنده الرتابة، وثِقَل الكلام، وانتفت أمامه ألوان الابتذال فيما يعني من الدلالات، والمقاصد، فحسبه أنّه من الكتبة القلائل الذين يجنحون إلى هندسة النص، وفق تداعيات الحال التي يعيشها شعورا، وتأمّلا، ولا سيّما وصنيعه في كل ذلك محكوم بثنائية" **الإمتاع، والإقناع**". وهي فكرة تجعل معتنقها وقّافا على خدمة الشّكل، بشيء من الصنعة الحميدة، صونا لأبّهة الخطاب، التي يقتضيها ذوق العصر حينذاك، ممّا يجعلنا مقتنعين بأنّ أديب الجزائر امتداد لمدرسة الإحياء البياني، حيث عاش هذا الاختيار الفني بروح نهضوية ترى في

خدمة الثقافة الأصيلة شكلا من أشكال المقاومة، لواقع تشوّه بداء التغريب، والانحطاط فكان له ما أراد.

وقد ترتّب عن هذا المنهج في كتاباته الوعي بمخاطبيه: الواقعيين والافتراضيين، الفرادى، والجماعات، الرسميين، والعوام.... فكانت اللغة غير اللغة، والأسلوب غير الأسلوب، لأن المقام يعرف المغايرة، والتنوّع. وهذا التصرّف ضرب من فن القول المحتكم إلى أصول البلاغة الماتعة، التي يتقن الشيخ أسرارها بامتياز.

ومع ذلك يبقى شيخنا الأديب في جلّ أنماطه النصيّة يغرف من معين المعرفة البيانية، بحكم ملكته، وطبعه. وهي معرفة أصيلة ذات انتماء حضاري عميق، أساسها الأول **اللغة العربية** بمواصفاتها الجمالية، و ثانيها **الدين الإسلامي**، بما يحمل وحيه من إعجاز وأسرار. فهذا الالتزام جعل سائر منطوقاته ومكتوباته ممتدّة الصلات، ضاربة في لجّ الحضارة القومية، عن دراية، وذوق، وحكمة. فيها من الحقيقة، والمسؤولية، والوضوح ما يجعل خطابه متقبّلا *** في أوساط الأمة بشقّيها العربي والإسلامي.

ج- **شذرات أدبية من فن القول:**

من المتعسّر على الباحث في أدب العلّامة الإبراهيمي أن يضع يده على ما يصحّ الاستدلال به على براعته الأدبية، لسعة ما أنتج – نوعا وكما – من جهة، ولاقتداره على الجمع بين الأساليب النصّية في الفن الواحد من جهة ثانية. ولكن حسبنا أن نقصر المحاولة على بعض المقطّعات المتباينة في مضمونها، وسياقات إنتاجها، لنقرأها **أسلوبيا** بحسب الإمكان.

يقول في شأن الحياة الدنيا:

**النص الأول**

**"إن الحياةَ حسناء، مَهْرُها الأعمالُ العامرة، فلا تَسُوقوا لها الأقوالَ الجوفاء، وإن دينَكم ينهاكم أن تأخذوا الأمورَ بالضَّعف والهُوينى، فخذوها بالقوةِ والغِلاب، وإن أربعَ خلالٍ ارتضاها اللهُ لعباده وأمَرَهم بها؛ الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى"** (2)

**التعليق:**

فظاهر النص أنّه من النوع الخطابي، محدّد الفكرة، والمقام، والغاية. فالأسلوب الخطابي مع تميّزه عن الأدبي إلا أنّه شريكه في بعض المكوّنات، كمكوّن الإيقاع، وجزالة اللفظة، وبلاغة التركيب... ممّا

فالمقطع النثري مؤسّس على عنصر الإيجاز غير المخلّ، موشّح بحسن التقسيم، وصحّة التوازن بين جمله. وإنّ قوّة تعالق الكلم بعضه مع بعض في السلسلة اللفظية، تقرّ بحقيقة السبك، وهي صفة مرغوبة في البناء الفني للنصوص المعتبرة. دلالة على براعة التحكّم في توزيع الوحدات الكلامية بهذه الحال، التي عليها الشيخ البشير، بمزيّة الذوق البياني ، الذي عرف به.

فتأمّل مزاوجته بين أسلوب الخبر المؤكّد بالأداة " **إنّ**"، و أسلوب الطلب المقيّد" **بالنهي، والأمر**" في استرسال وتكرار، ليمنح المتلقي حق التمتّع بجمال المقابلة بين نمطين أسلوبيين صنعهما الأدب، وفرّقت بينهما البلاغة. مع وجوب التنبّه إلى ظاهرة هذا الاستعمال اللغوي في النّص، الذي كشف عن تكاثف دلالي صريح، يوحي بحقيقة النَفَس المديد، الذي يحظى به الشيخ في كلّ منابر الكلام.

**النّص الثاني :**

**"وإن التاريخَ لم يعرف دينًا من الأديانِ لم يَبْقَ على أساس الجنسية، ولم يرجِعْ على قواعدها إلا دينَ الإسلام؛ فهو لا يختصُّ بجنس، وهو صالحٌ لكل جنس، وهو موافقٌ لكل فطرةٍ، وهو ملائمٌ لكل نفس"** (3)

**التعليق:**

نحن بصدد مقتطع نصّي يعبّر عن حقيقة الدين الإسلامي، الذي شغل فكر الإبراهيمي في تاريخ كفاحه الحضاري، إزاء محاولات الإلغاء المتعمّدة من قِبل الغرب بمكر لا ينتهي. ولأجل **الإيضاح، والإقناع** يبني الشيخ فكرته - على مستوى الصياغة اللفظية - بآلية **التكرار** (4) - بحكم الاقتضاء - لأنّه في سياق المنافحة عن أصل حضاري يستغرق الوجود الإنساني كليّة، ومن ثمّ لا مناص من استدعاء المؤكّدات اللفظية، والمعنوية لتقرير الحقائق في عقول، ونفوس المشتغلين بالقضايا الوجودية، وهو ما يسمى صناعة الرأي.

فانظر كم من المرّات تواترت الألفاظ نفسها في هذا النص الخاطف؟ فلقد تكرّر لفظ "الدين" صراحة ثلاث مرّات- 3-، وتكرّر مضمرا ست مرّات – 6 -، وفي الحين عينه وردت "لم" الجازمة مكرّرة في ثلاثة مواضع – 3 – والأمر يتجدّد مع لفظة " كل" و الضمير المنفصل "هو"، إذ ذكر كلّ منهما ثلاث مرّات – 3 –

لنخلص إلى القول:

إنّ أدبية الإبراهيمي في هذا الملحظ تأسّست على قانون **"الإعادة، والتكرار"**، الذي يعني فيما يعنيه المراهنة على إبراز القضية، والتأكيد عليها من باب إقامة الحجّة على الخصم، وحسبه في هذا الإبداع أن جمع بين ما يطلبه العقل من إقناع، وما تستسيغه النفس من إمتاع. رغم أنّ مقام المخاطبة لم يكن بحال فنيّا، ولكن بقت ملكة اللغة طيّعة في لسان الإبراهيمي، وقلمه، فهو يصدر في أقواله عن تدفّق فكري، وسيولة كلاميّة تثير الإعجاب.

**النص الثالث:**

**"فأما اللسانُ العربيُّ، فهو لسان هذا الدينِ الذي نزَل به كتابُه، وهو يُعَد ترجمانه الحاذق الذي نقل الإسلامَ وما فيه من عقائدَ ساميةٍ، وحِكَمٍ غالية، وأخلاقٍ عالية، وأسرارٍ جليلة، وآداب قيِّمة - إلى أممٍ أجنبيةٍ عن لغة هذا الدين، وأخَذَهم بها أخْذةَ السِّحرِ، بكيفيةٍ تُرِيهم أن الدينَ هو اللغةُ، وأن اللغةَ هي الدين"**[5].

**التعليق:**

إنّ **اللغة والدين** من الظواهر التي اهتمّ لها الإبراهيمي في مشروعه الإصلاحي، من باب رفع الملابسة عمّا يجمع بينهما من الصلات الواقعية. ولأجل هذا التعالق نجده حريصا في مثل هذا المقتطف على تفصيل المسألة، وفق ما تكشف عنه اللّغة على مستوى الاستعمال في بناء النص.

فهو يراهن ابتداء على عنصر **الإبانة**، من خلال الإفراط في توظيف الصيغ الواصفة، كالصفات المشبّهة، وأسماء الفاعلين، فضلا عن توزيع الوحدات في الخط التركيبي بآليّة التوالي، كتوالي الجمل الاسمية الموجزة، التي اقتضاها حال الشرح المشخّص بالأداة **"أمّا"** التفصيلية. وهي حرف **معنى** مكانه الصدارة، بوصفه قرينة رتبة. وظيفته تشخّيص المقدّمة، التي تنبني عليها - هي الأخرى- نتيجة مؤكّدة.

وهذا أمر قد لا يحصل إلاّ بفعل كفاءة بناء الكلام، - التي يتوافر عليها الأديب - ، و التزامه بقانون التفكير المنطقي القائم على ثنائية **"السبب والنتيجة"**. **وعليه** فهذا المقطع التعبيري جمع كما - هو ملحوظ - بين **العقل والوجدان**، على غرار ما ألفناه في كتابات الشيخ البشير.

وفي ملحظ آخر تشيع الأسماء في النص بما يلفت الحسّ، فقد وظّف الصيغ الاسمية، الصريحة منها والمضمرة، أكثر من أربعين مرّة "40"، دلالة على ما يفيده الاسم من القوّة و الثبات، كما هو معروف في حقل معاني المفردة على المستوى اللّغوي الصيغي.

**النص الرابع:**

**أيْ شبابَ الإسلام إن الأوطانَ تجمع الأبدان، وإن اللغاتِ تجمعُ الألسنة، وإنما الذي يجمع الأرواحَ ويؤلِّفُها، ويَصِلُ بين نَكِرَات القلوب فيعرِّفها - هو الدِّين فلا تلتمسوا الوَحْدة في الآفاقِ الضيقة، ولكن التمسوها في الدِّين، والتمسوها من القرآنِ تَجِدوا الأُفُقَ أوسعَ، والدارَ أجمعَ، والعديدَ أكثرَ، والقُوى أوفَرَ"** (6).

السّمت الأسلوبي عند الإبراهيمي ثابت في جلّ الأنماط النثرية، حتّى وإن تغايرت مقامات الحدث، فهو منضبط على: إيقاع وضوح الفكرة، وجزالة اللّغه، ومباشرة المخاطَب بما تفرضه ضرورة تبليغ الحقائق المُرادة له.

ففي مثل هذه العيّنة الومضية من حديثه إلى الشباب، يجنح أديبنا إلى اعتماد استراتيجية خطابية، تُفتتَح بلفت وعيه لما يُستقبل من الكلام، على قاعدة خطباء العرب القدامى " **اسمعوا، وعوا** ". وكثيرا ما يحصل ذلك بإحدى صيّغ النداء: " **أيْ شبابَ الإسلام**" . الذي بدوره يتطلّب إخبارا:

"**! إن الأوطانَ تجمع الأبدان، وإن اللغاتِ تجمعُ الألسنة، وإنما الذي يجمع الأرواحَ ويؤلِّفُها، ويَصِلُ بين نَكِرَات القلوب فيعرِّفها - هو الدِّين** " من باب تهيئة حال السامع إلى ما هو جدير بالالتزام، كونه جديرا بالسماع، تحقّق في صورة الأمر، و النهي، و الحثّ... "**فلا تلتمسوا الوَحْدة في الآفاقِ الضيقة، ولكن التمسوها في الدِّين، والتمسوها من القرآنِ**"،من بعد إخبارات مؤكّدة، شكّلت على مستوى بناء النّص **مقدّمة كبرى**. نتيجتها النهائية حتما: "**تَجِدوا الأُفُقَ أوسعَ، والدارَ أجمعَ، والعديدَ أكثرَ، والقُوى أوفَرَ**".

فهذا النمط التعبيري حقّق صفة **الإقناع** بمزايا أربع: **أوّلها: ترتيب الكلام** " مقدمة، نتيجة " **وثانيها:" أسلوبية اللغة** " إخبار، طلب" **وثالثها: "قوّة الفكرة** " وطن، لغة، دين"، **ورابعها: "التعزيز بالإطناب المسجّع** " توالي الجمل.

**الخلاصة:**

إنّ الشيخ البشير حقّق أدبيّة خطابه بهذا القدر من الجمالية رغم أنّ سياقه الكلامي ينزع بقوّة نحو العقلانيّة، ليلاحظ المتأمّل اقتداره على الجمع بين ثنائية "**البيان، والبرهان"** في فضاء تعبيري واحد، وهو من الأمور العسيرة على الكثير، فهذا ديدنه في جلّ المنصوصات الشفويّة، منها والمخطوطة.

فأسلوبه - رحمه الله – نزّاع إلى المباشرة والتقريرية حالما يفرض عليه الحدث المرافعة لأجل القضيّة، التي يحياها، ومن ثمّ تكون النّبرة اللغوية عنده مؤسّسة على الوضوح، والبيان، في حين ينشحن كلامه بالتأنّق اللّفظي، والبراعة التصويريّة طالما تجرّد للنص الإبداعي، لغرض إمتاع مخاطبيه.

وحسب الرجل منّا أن نقرّ له بأفضال السّبق في مضمار الكلمة، المعبّرة عن سمته المعرفي، بما يجعلنا مدينين له بأكثر ما تدريه أنفسنا. فلنا في مخلّفاته الأدبية [7] ، والفكرية واللسانيّة...ما يمنحنا الأمل في قيافة أثره، على بيّنة وهدى، حال ما صدقناه الرجاء.

**تولّى اللّه فقيد الدين، واللغة، والوطن برحاب رحماته التي لا تُحدّ -.**

**5- التهميش:**

[1] قد كُتِبَ العديد من الدراسات والأبحاث في سيرة الشيخ البشير الإبراهيمي . منها ما تولّاها نجله أحمد طالب، في آثار البشير الإبراهيمي كما كتب - رحمه الله - عن سيرته الذاتية بيده. في مناسبات عدّة، أشهرها ما قدّم لمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1961م عندما عين عضو عاماً فيها.

* أعتذر لقراء هذا المقال عن الإسهاب في اقتباس ترجمة العلامة البشير الإبراهيمي بتمامها، لأني على يقين سأكون مخلاّ بحقيقة الرجل إن أنا حذفت بعض مراحل حياته التعليمية، ومن ثمّ التزمت بواجب الإفادة لكل مستعلم عن حياة هذه النابغة، العامرة بصنوف العرفان، وخدمة لما تقتضيه هذه الدراسة على مستوى المنهج.

** ينظر حصيلة أعماله المطبوع منها والمخطوط، لما هي عليه من تنوّع معرفي، وفني دلالة على سعة محصوله.

*** لاحظ تنقلاته العلمية في الحواضر العربية والإسلامية، وانتسابه لكثير من الهيئات الأكادمية، وشيوع أعماله في المحافل الدولية. يرجع إلى مسرد حياته.

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله د. أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ج 3، ص 413.

[3] المرجع نفسه، ج1، ص 108.

[4] قال علماء البلاغة قديما: "الشيء إذا تكرّر تقرّر." قالوه من باب ربط السبب بالغاية.

[5] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 109.

[6] المرجع نفسه، ج1، ص 163.

[7] ينظر قائمة ما ترك العلاّمة محمّد البشير الإبراهيمي، بين مخطوط، ومطبوع، وهذا بعضها:

- **عيون البصائر** :وهي مجموعة من مقالاته التي كتبها في السلسلة الثانية من مجلة البصائر.
- **بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية بالجزائر**
- **النقايات والنفايات في لغة العرب** :جمع فيه كل ما جاء على وزن فعالة من مختار الشيء أو مرذوله.
- **أسرار الضمائر في العربية**
- **التسمية بالمصدر**
- **الصفات التي جاءت على وزن فعَل**
- **نظام العربية في موازين كلماتها**
- **الاطراد والشذوذ في العربية** :وهي رسالة في الفرق بين لفظ المطرد والكثير عند ابن مالك.

- **ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة**
- **رسالة في ترجيح أن الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان**
- **رواية كاهنة الأوراس** :بأسلوب مبتكر يجمع بين الحقيقة والخيال.
- **رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية**
- **حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام**

**شعب الإيمان** :جمع فيه الأخلاق والفضائل الإسلامية.

## 6. قائمة المراجع:

1- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله د. أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ج 3.

# فهرس الموضوعات:


| الملتقى الوطني: البشير الإبراهيمي في عدد خاص من مجلة "مقامات" | | | | |
|---|---|---|---|---|
| الديباجة | | | | |
| برنامج الملتقى | | | | |
| مداخلات اليوم الأوّل:2020/03/09 | | | | |
| الرقم | المتدخل | الجامعة | عنوان المداخلة | الصفحة |
| 01 | أ.د/بوداود وذاني | الأغواط | حضور الإنسان في فكر الشيخ البشير الإبراهيمي | 23-07 |
| 02 | د/ الحاج جغدم | الشلف | صورة المقاومة في كتابات الشيخ البشير الابراهيمي | 35-24 |
| 03 | أ.د/ دريم نور الدين | الشلف | البعد الحجاجي وبنيته الإيقاعية في خطابات البشير الإبراهيمي | 52-36 |
| 04 | د/العلاوي العيد | البيض | الشيخ البشير الابراهيمي وضوابط البحث العلمي قراءة في "رسالة الضب" | 71-53 |
| 05 | د/ أحمد سعودي | الأغواط | هاجس الوحدة العربية ومقتضياتها في أدب البشير الإبراهيمي | 90-72 |
| 06 | د/ أمين خروبي | أفلو | أسس التعاون الاجتماعي ولوازمه في فكر البشير الابراهيمي | 122-91 |
| 07 | أ.د/ الوكال زرارقة | أفلو | المنهج التغييري في أدب محمد البشير الابراهيمي | 139-123 |
| مداخلات اليوم الثاني:2020/03/10م | | | | |
| 01 | د/ صفية بن زينة | الشلف | آفاق البعد اللغوي وآليات تجسيده عند البشير الابراهيمي | 154-140 |
| 02 | ط/ غويرق فاطمة | الاغواط | البعد الوطني والقومي في خطابات البشير الابراهيمي | 171-155 |
| 03 | ط/بروبي غنية | الاغواط | البشير الابراهيمي معلم وطني وأثر قومي | 192-172 |
| 04 | ط/علي زرارقة | تيارت | القضايا القومية في أدبيات محمد البشير الابراهيمي | 209-193 |
| 05 | ط/ ميهوبي خديجة | الاغواط | الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر من خلال كتابات البشير الابرهيمي | 224-210 |
| 06 | أ.د/ بوفاتح عبد العليم | الأغواط | الخصائص الاجتماعية والثقافية والأدبية في فكر البشير الإبراهيمي | 259-225 |
| 07 | د/ غانم حنجار | تيارت | أدبية البشير الإبراهيمي: براعة حفظ، ملكة بيان - نظرات في أصول التحكّم الكلامي – | 274-260 |
| فهرس الموضوعات | | | | 275 |

## التوصيات:

1- نشر أعمال الملتقى في عدد خاص لمجلة "مقامات" للدراسات اللسانية والنقدية والأدبية التابعة لمعهد الآداب واللغات للمركز الجامعي بأفلو.

2- ترسيم الملتقى الخاص بالعلامة محمد البشير الإبراهيمي وترقيته وتنظيمه دوريا للكشف عن أعمال هذا العلامة اللغوية والأدبية والإعلامية والسياسية والإصلاحية.

3- تحفيز الباحثين من الأساتذة والطلبة للاهتمام بالأعمال الأدبية واللغوية والإصلاحية للعلامة محمد البشير الإبراهيمي في رسائلهم البحثية.

4- فتح مشاريع دكتوراه تهتم بالمنجز الأدبي والعلمي للعلامة محمد البشير الإبراهيمي.

5- توسيع محاور ملتقيات محمد البشير الإبراهيمي لتشمل شخصيات الحركة الإصلاحية في الجزائر.

6- الاحتفاء بالشخصيات الوطنية العلمية، الأديبة والثقافية من خلال التكريم الرمزي لها كاعتراف بمجهوداتها في مجالات اختصاصاها وفي خدمة الوطن والأمة.